LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University

مرآة التراث

العدد الثامن عشر – ربيع/صيف ٢٠٢٣

- الجيل الجديد في مرآة التراث
- فُصُول من سيرة «شاعر الأرز»
- بيروت الجميلة بريشة مائيَّة
- التعمير يبدأ من المدرسة

مرايا التراث

أَكاديميّة مُحَكَّمَة تَصدر مرتين في السنة

يَنشُرُها

مركز التراث اللبناني

في

الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU

رئيس التحرير المسؤُول/مدير المركز

هنري زغيب

الهيئَة العِلْميَّة

الأَساتذةُ الدُّكاترة (ترتيبًا أَبجديًا بِاسْم العائِلة):

ناديا اسكندراني | **جامعة بيروت العربية** | **رئيسة قسم اللغة الفرنسية وآدابها**

سامي بارودي | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **أُستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدُولية**

رمزي بعلبكي | **الجامعة الأَميركية** | **أُستاذ كرسيّ الدراسات العربية**

وحيد بَهْمَردي | **الجامعة اللبنانية الأميركية** | **رئيس دائرة التواصُل والفُنُون واللُغات**

كاتيا جنيناتي | **الجامعة اللبنانية الأَميركية** | **عميدة كُلية الآداب والعلوم**

نضال الأميوني دكّاش | **الجامعة اللبنانية الأميركية** | **أستاذة الآداب والعلوم الإنسانية**

أَهيَف سنو | **جامعة القديس يوسف** | **أُستاذ الدراسات العربية والإِسلامية**

أَنطوان قسّيس | **جامعة الرّوح القدس-الكسليك**

الإِدارة والتحرير

مركز التراث اللبناني - الجامعة اللبنانية الأَميركية - قريطم - بيروت

هاتف: ٦٤ ٦٤ ٧٨ ١ ٩٦١ + (المقسّم ١٦٠٠)

ص ب: ٥٠٥٣ - ١٣ بيروت - لبنان

clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

مجلة مرايا التراث Facebook: Mirrors of heritage

تصميم و إخراج STRATCOM–LAU

صورة الغلاف: بلدة دوما (من كتاب إِدي شويري «القرية – محميَّةُ البيت اللبناني»)

مرايا التراث

العدد الثامن عشر - ربيع/صيف ٢٠٢٣

٣ **أُولى الـ«مرايا» - هنري زغيب**
مرآةُ التراث في متناوَل الجيل الجديد

تراثنا الأدبيّ
٨ **هيام ملاّط**
فصولٌ مشرِّفة من سيرة شاعر الأَرز

تراثُنا بريشتهم
٢٨ **سهيل منيمنة**
بيروت الجميلة بالريشة المائية

محفوظاتنا التراثية
٣٨ **سليم حيدر**
التعمير من الأساس يبدأ بالمدرسة

تراثنا التاريخي
٥٦ **أ.د. مروان أبي فاضل**
نظرة ابن خلدون إِلى التّاريخ الكنعانيّ والقرطاجيّ

٩٣ **د. بيار مكرزل**
تجّار البندقية في بيروت بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر

LAU Heritage
١٣٩ **Gabriella Nassif**
The Arab Institute for Women: A Brief History

Notre Patrimoine Littéraire
١٥٩ La LAU commémore Charles Corm

مرآةُ التراث
في متناوَل الجيل الجديد

هنري زغيب
رئيس التحرير

مع صدور هذا العدد الجديد من «مرايا التراث»، يكون «مركز التراث اللبناني» أَنجزَ على منبر الجامعة الأُمِّ موسمًا حضوريًّا كاملاً من الندوات. ويأْتي ذلك بعد انقطاع عن «الحضوريِّ»، ولجوئه إلى ٢٠ ندوةً إلكترونيَّة عن بُعد، بسبب جائحة كورونا والأَحداث الأَمنية، تعويضًا عن استحالة الحضور إلى الجامعة لمتابعة الإيقاع الشهري من المحاضرات والندوات كما كان اعتاد «المركز» تنظيمها وإقامتَها طيلة السنوات السابقة من عمره الذي يبلغ الحادية والعشرين، وما زال ينبض تحضيرًا وإعدادًا وندواتٍ ومنشوراتٍ ونشاطًا دائبًا على تحقيق رسالته الأُولى: نشْر التراث اللبناني في الجيل الحاضر بحضور الجيل السابق الذي ما انفكَّ يتابع ويحضر ويقدِّر نشاط «المركز».

ويَرفد نشاطَه المنبريَّ في الجامعة، إصدارُ هذه المجلة التي، منذ تحوَّلَت رقميةً مع عددها الثاني عشر، اتَّسَع انتشارُها إلى كل العالم حتى باتت تغطِّي عددًا كبيرًا من الجامعات ومراكز الأَبحاث، وأَصبحَت مرجعًا محَكَّمًا يعاد إليه في الدراسات الأَكاديمية.

من هنا حرصُنا، في المجلة، على اختيار المواضيع المعمَّقة البحث والمراجع والمصادر، كي تكون مفيدةً كلَّ رغبةٍ في العودة إليها، واستخلاص مادةٍ منها لأَيِّ بحث أَو دراسة.

وما يقوم به «المركز»، يؤَدي به ما يحتاجه الوضْع في لبنان اليوم من حاجة إلى نشْر تراثنا اللبناني في وجوهه المختلفة ومعالِمه المتعددة وأَعلامه المبدعين الذين ترسَّلوا له تركوا لنا آثارهم نغْتني منها ونقتفيها. من هنا كان احتفاؤُنا هذا الموسم بالشاعر اللبناني الفرنكوفوني شارل قرم، تَوَازيًا مع «المهرجان الدولي والفرنكوفوني للكتاب ٢٠٢٢» شهدَتْه بيروت خلال شهر كامل، وكان للجامعة حضور فيه بندوة كاملة أَعدنا نشْر نصوصها في القسم الفرنسي من هذا العدد، تعميمًا فائدةَ ما جاء في مداخلات المحاضرين.

فالتراثُ اللبنانيُّ الواسعُ الفضاء والمدى، تلزَمه متابعة دؤُوبٌ في أَكثر من وسيلة وواسطة. لذلك يسعى «مركز التراث» إِلى استخدام أَيِّ طريقة لإِيصال كنوزِ تراثنا إِلى اللبنانيين، مقيميهم والمهاجرين، ليكون في متناوَل الجميع ذخرًا لهم عند التفكير بما أَعطى لبنان وأعطى أَعلامُه من ثمار فكر وأَدب وفنون.

في هذا السياق يحمل هذا العدد الجديد مواضيع جديدةً في طرحها، عريقةً في جوهرها، بين حضور شاعر الأَرز شبلي ملَّاط وما كان له من دور مُشرِّف في الحرب العالَمية الأُولى، وحضور سليم حيدر شاعرًا وكاتبًا ومُحاضرًا وسفيرًا، عبر محاضرة له في «الندوة اللبنانية»، نعيد نشرها لِما فيها من رؤْية ثاقبة في شأْن المدرسة اللبنانية ومناهجها. ويحضُر ابن خلدون في هذا العدد، مطلًّا على تاريخنا الفينيقي والكنعاني والقرطاجي ليضيْءَ من منظاره الثاقب حقائقَ لم تُنشر بعد. كما يكون حضورٌ لافتٌ لِلَوحة مائية عن بيروت رسمَها دبلوماسي بلجيكي هاوي الرسم خلال وجوده في بيروت سنة ١٨٣٩، وبيروت في مطلع صحْوَتها الحضارية والمدينية تتهيَّأُ كي تصبح مدينة رئيسة على هذا الشاطئ المتوسط، وتستقطب إِليها سيَّاحًا ومستشرقين من كل العالَم.

هكذا، بين محاضرات حضورية، ونشاط عادٍ إِلى إِيقاعه الدَوريّ كما من قبل، وهذه المجلة التي، منذ صدورها سنة ٢٠١٤، لم تتوقَّف عن الصدور مرتين في السنة، وَرَقيةً لـ ١١ عددًا، ثم إِلكترونية منذ العدد ١٢ حتى هذا العدد، يواصل «مركز التراث اللبناني» رسالتَه التي نذَرَ لها أَداءَه قبل ٢١ سنة، ويؤَدِّيها في كنف الجامعة الأُم التي آمنَت برسالته، وتدعم نشاطه، كي يكون منارةً لتراثِ لبنان، وعلامةَ خير ونتاج، موسمًا بعد موسم، حتى يكون للجيل الجديد زادًا فكريًّا وثقافيًّا وتراثيًّا يستاهلُ أَن يستحقَّ لبنان وأَن يباهي به لبنان.

هنري زغيب

مدير المركز/رئيس التحرير

شُروط النشر في مجلة «مرايا التراث»

يَهمُّ مجلة «مرايا التراث»، إدارةً وهيئةً علْمية، أَن تلفت الباحثين إِلى التالي:

١. أَن يكون البحثُ المُرسَل أَصيلاً في بابه، غيرَ منشورٍ أَو مرسَلٍ للنشر في مجلة أُخرى.

٢. اعتماد المنهجيّة العلميّة المُتعارَف عليها في المجلات العلميّة المُحكّمة: التوثيق في كتابة الحواشي والأُصول والمصادر والمراجع والمُختصَرات العلميّة.

٣. عدم التهجُّم الشخصي وإِلماحات الأَدلجة والإِسقاطات غير المُسنَدة في مقاربات البحث.

٤. جميع الأَبحاث المُقَدَّمة إِلى المجلة تَخضع لتحكيم اللجنة العلمية، وقد تستعين إِدارة المجلة عنَد الحاجة بهيئة اختصاصيين تبقى أَسماء أَعضائها طيّ الكتمان وفق العُرْف الأَكاديمي.

٥. يُرسل الباحث مع نصه ملخَّصًا عنه في نحو ٢٠٠ كلمة بغير لغة بحثِه (بالإِنكليزية تفضيلاً أَو بالفرنسية) تسهيلاً لفَهرسة المجلة وأَبحاثِها في البيبلَيوغرافيا العالَمية.

٦. تحتفظ إِدارة المجلة بِحَقّ النشر أَو برفض أَيِّ بحث لا يستوفي شروطَ النشر أَعلاه.

٧. لا تتبنى إِدارةُ المجلة واللجنةُ العلميّة الآراءَ الـواردةَ في الأَبحاث المنشورة، وتبقَى هذه على مسؤُوليّة كُتّابها.

٨. يَحصل كلُّ باحثٍ على ثلاث نُسَخ من العدد عند صدُوره، وعلى نسخةٍ إِلكترونية من بحثه.

٩. تَشكُر إِدارةُ المجلة واللجنةُ العلميّة تعاونَ الباحثين في احترام شروط النشر، حفاظًا على المستوى العلْمي في نهج الجامعة، وخدمةً لنصاعة الذاكرة التراثيّة في لبنان.

١٠. يُرسل الباحثون نصوصَهم باسم رئيس التحرير على هذا العنوان:

مجلة «مرايا التراث» – مركز التراث اللبناني
الجامعة اللبنانية الأميركية – قريطم – بيروت

أَو إِلكترونيًّا على عنوان «مركز التراث اللبناني»: clh@lau.edu.lb

تراثُنا الأدبي

هيام ملاَّط
فصولٌ مشرِّفة من سيرة شاعر الأَرز

فصولٌ مشرِّفة
من سيرة شاعر الأَرز

د. هيام جورج ملّاط

١. شبلي ملاَّط والأَمير شكيب أرسلان

ربطت شاعر الأرز شبلي ملاّط وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان روابط الثقة والصداقة والمودة، منذ ما قبل الحرب العالميّة الأولى، إذ كانا يلتقيان على أحاديث وشؤون أدبية وعامّة. ومع اندلاع الحرب توثّقت هذه العلاقة وحاولا معًا مساعدة مواطنيهم وتخفيف آثار الاستبداد عليهم بقدر المستطاع في تلك الأيّام الرهيبة.

سنة ١٩١٦ أرسل الأمير إلى صديقه الشاعر تهنئةً لاقترانه بالآنسة ماري الياس شكرالله، منها:

كم بِنْت فكرٍ قد رفعتَ نِقابها ... مجلوّةً تمشي على استحياءِ
من بعد ما عزّت على مَن رامها ... هيهات تطمسُها عيون الرّائي
زُفّت إليك جميع أبكار النُّهى ... فاهنَأْ ببكر زفافك العَصماء

وعن علاقتهما فترة طويلة، بقيت لنا رسائل توثّق مرحلة عصيبة من تاريخ لبنان الحديث.

أرسلان إلى الملاّط من الآستانة

أمين الغريّب

في حزيران ١٩٣٠ نشر أمين الغريّب (في العدد التاسع من مجلّته «الحارس») رسالة قديمة من ٢٤ أغسطس ١٩١٧ كان وجّهها إلى شبلي ملاَّط الأميرُ شكيب أرسلان من الآستانة التي كان استقرّ فيها لمحاربة جمال باشا بعدما بدأت علاقته بالأمير تتحوَّل من فتورٍ إلى عداوة.

وهنا الرسالة مصوَّرةً عن «الحارس» (ص ٦٧٤ و٦٧٥):

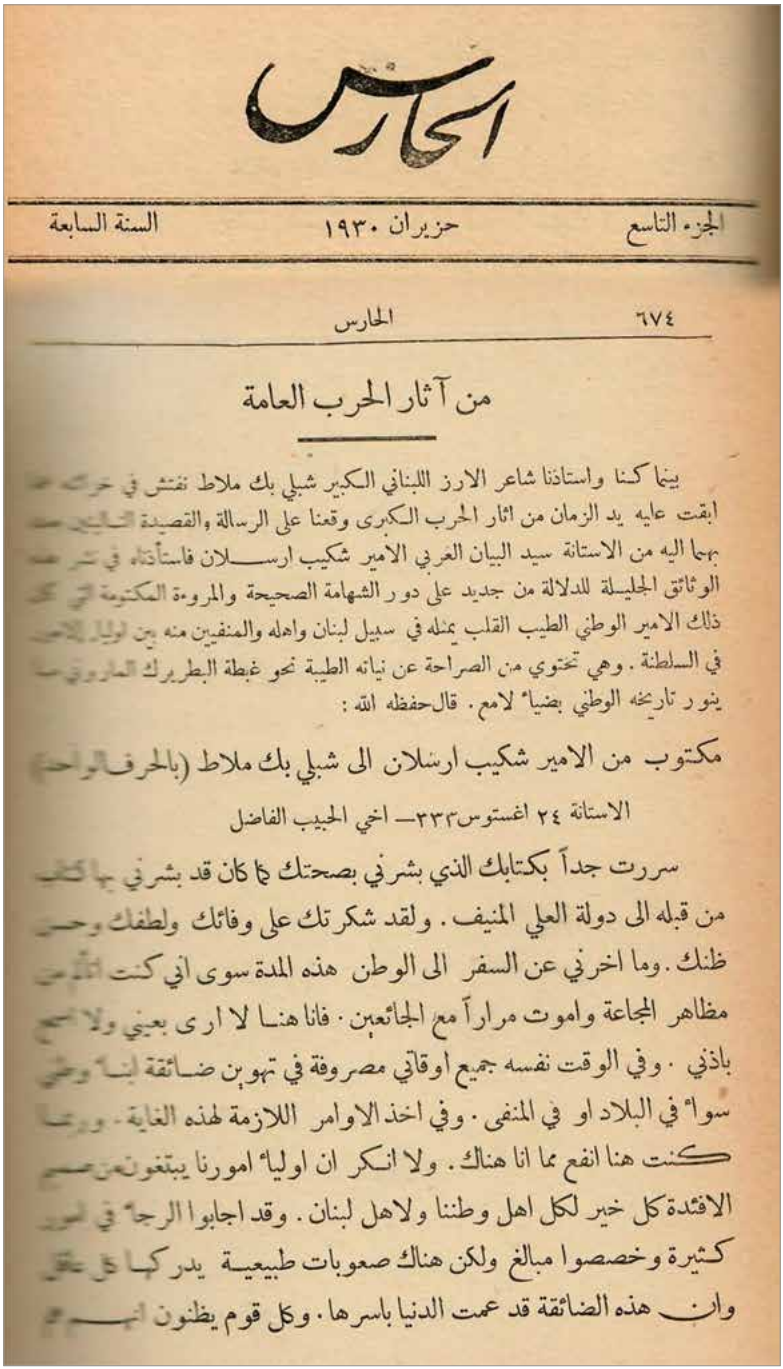

الحارس

الجزء التاسع — حزيران ١٩٣٠ — السنة السابعة

من آثار الحرب العامة

بينما كنا واستاذنا شاعر الارز اللبناني الكبير شبلي بك ملاط نفتش في حوادث ما ابقت عليه يد الزمان من اثار الحرب الكبرى وقعنا على الرسالة والقصيدة التاليتين مهما اليه من الاستانة سيد البيان العربي الامير شكيب ارسلان فاستأذناه في نشر هذه الوثائق الجليلة للدلالة من جديد على دور الشهامة الصحيحة والمروءة المكتومة التي تحلى ذلك الامير الوطني الطيب القلب بمثله في سبيل لبنان واهله والمنفيين منه بين اولياء الامر في السلطنة . وهي تحتوي من الصراحة عن نياته الطيبة نحو غبطة البطريرك الماروني ما ينور تاريخه الوطني بضياء لامع . قال حفظه الله :

مكتوب من الامير شكيب ارسلان الى شبلي بك ملاط (بالحرف الواحد)

الاستانة ٢٤ اغستوس ٣٣٣ — اخي الحبيب الفاضل

سررت جداً بكتابك الذي بشرني بصحتك كما كان قد بشرني بها كتاب من قبله الى دولة العلي المنيف . ولقد شكرتك على وفائك ولطفك وحسن ظنك . وما اخرني عن السفر الى الوطن هذه المدة سوى اني كنت اتألم من مظاهر المجاعة واموت مراراً مع الجائعين . فانا هنا لا ارى بعيني ولا اسمع باذني . وفي الوقت نفسه جميع اوقاتي مصروفة في تهوين ضائقة ابناء وطني سواء في البلاد او في المنفى . وفي اخذ الاوامر اللازمة لهذه الغاية . وربما كنت هنا انفع مما انا هناك . ولا انكر ان اولياء امورنا يبتغون من جمع الافئدة كل خير لكل اهل وطننا ولاهل لبنان . وقد اجابوا الرجاء في امور كثيرة وخصصوا مبالغ ولكن هناك صعوبات طبيعية يدركها كل عاقل وان هذه الضائقة قد عمت الدنيا باسرها . وكل قوم يظنون انهم

وحدهم المصابون . وليس الامر كذلك « متصرفنا الجديد»[١]، لا يقل عن سلفه في شيء من الانسانية والحنان وطهارة القلب وعلو الهمة و ربما كان يمتاز عليه ببعض خصائص فالله نسأل توفيقه لخير الجبل اجمع »

سررت بكون دولة القائد الكبير دعا غبطة البطريرك واكرم وفادته ولاقاه براً وترحيبا و كل سرور يدخل على غبطته يدخل عليّ لاننا من القديم مرتبطون وكاننا متكافلون متضامنون واوليا الامور يعرفون ما بيننا من الارتباط . وانا واثق انني لا ابالغ في حرف مما اقوله في حق غبطته من خلال الخير كلها وحب السلام ومن الاستمساك بعروة العثمانية

من وقت الى آخر نريد ان نحرك فتور الخاطر ونجلو صدأ القريحة ما يطرأ عليها من دواعي الهموم ونخرم سلسلة اطراد الكوارث بشيء من بواعث الارتياح واسباب الجمام ونحثو في وجه الجد الاجهم شيئا من تراب العبث الضاحك استعانة بنكات الادب وطرائف المُلح على نوازل الدهر ونوائب الحرب وهزاً لسكون الغربة باوتار الشعر و رنات الفلب . وقد اخترنا ان نرسل اليكم بعض ذلك من عفو القريحة التي تتجاذبها عوامل جمة وان كنا فيه كمن اهدى الجمان الى عمان او المقامات الى بديع الزمان[٢] . ولنا الامل منكم في ستر عورها والاخذ بيد ضعفها ونحن من هنا نرعى في سروح « الشرق » جياد افكاركم وسوابقها ونلمح على شُرَف الصحف نوانس ابكاركم وعواتقها طال بقاؤكم

المخلص

شكيب ارسلان

[١] اسماعيل حقي بك — ٢٠، هكذا يكتب إمام العلم والوجاهة والشرف بين اللبنانيين الى صديقه الاصغر منه سناً، نظروا الى ادب رجال الامس بالنسبة الى ادب غلمان اليوم . . .

الأمير شكيب أرسلان

أرسلان إلى الملاّط من جنيف:

في مرحلة لاحقة (٢ تشرين الثاني ١٩٣٨) أرسل الأمير شكيب من جنيف رسالةً[١] إلى صديقه شبلي أوضح فيها حقيقة أحداثٍ كانت جرَت إبان الحرب الكونيّة الأولى حول موضوع جمع السلاح من اللبنانيين، والعلاقات المتعثّرة آنذاك بين البطريركيّة المارونيّة وجمال باشا.

وهذا نصّ الرسالة:

«أخي الحبيب الشاعر الكبير أطال الله بقاءه. نعم: الخواطر متواردة والشواعر واحدة، وبعد، فما إن أرسلتُ كلمتي إلى السيد سعد الدين خالد، حتى جاءني كتابكم الأول الذي قدَّرتُ وصوله في وقت وصول كتابي إلى الموما إليه ليطلعكم عليه. ثم جاء كتابكم الثاني ومعه المقالة المتعلّقة ببعض مواقفي الوطنية في أيام الحرب.

فأما قضية إرسال ما يجب من الكلام عن شعركم لأجل أن يذكر في الجزء الثاني من ديوانكم، فهذا شيء لا يحتاج إلى تنبيه، وقريبًا أرسل الكلمة اللازمة.

وأما مسألة المقالة، فكنت أود لو صرفتُم النظر عنها لأني أخجل من التنويه بأعمال أُعدُّها من بعض الواجبات التي لا فضل فيها لمثلي، ولكني أعلم أنَّ تلك هي إرادتكم، وأنَّ عندكم شهادةً من نفس البطريرك المرحوم يثقل على وجدانكم أَن لا تؤدُّوها، وقد سمعتموها بأذنكم، فلذلك لا بأس بنشر هذه المقالة التي هي في الحقيقة خلاصةٌ لحوادث كثيرة وليس عندي ما أصحح فيها سوى ما يلي:

جمع سلاح المسيحيين دون سلاح سائر الطوائف إساءة

قضية جمع السلاح من النصارى هي سابقة لقضية البطريرك الحويك، وكان الذي يريد مباشرتَها الجنرال زكي باشا قائدُ فيلق سوريا، وكان حادثني بها في دمشق وأبديت له محاذيرها السياسية، وأنَّ جمع سلاح النصارى من دون جمع سلاح أبناء وطنهم من الدروز والسنة والشيعة لا يوافق أصلاً. وإذا جئتم تجمعون سلاح الجميع تحقق عند الطوائف

١) أثبتها نجيب البعيني في كتابه «أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه»، ص ٢٥٦–٢٦٢، الدار الجامعية ١٩٩٢.

المحمدية أنكم تسيئون الظن فيهم أيضًا فصار الجميع ضدكم. فقال: «لكن كيف نصنع، فإننا نخشى أن يقوم النصارى بثورة» فقلت له: «إذا عوملوا بالعدالة لا يقومون بثورة، ولا يريدون غضب الدولة عليهم، وأنا قد كلمت رؤساءهم وعلمتُ دخائلهم، ونحن أبناء وطن واحد نعرف أسرارهم ويعرفون أسرارنا، فأنا أكفل أن لا يقع منهم شيء» فسكت.

بعد أيام كنت في عاليه فجاءني منه كتاب رسمي، مع الأسف لا أجده بين أوراقي الآن ككثير من الوثائق التي كنت حفظتُها واعتنيتُ بها لو كنت علمتُ أن بعض الناس في المستقبل سيجحدون ما قمتُ من خدمة أبناء وطني دون استثناء. من هذه الوثائق كتاب زكي باشا يقول لي فيه: «كنا تحدثنا معك في قضية جمع سلاح المسيحيين في لبنان، ولم توافق على ذلك، وقلتَ إنك تكفل كل حادث يقع من جهتهم ضد الدولة. ولما كانت هذه المسألة ذات أهمية، وجدنا لزومًا لمفاوضتك فيها بصورة رسمية تخلُّصًا من المسؤولية». فكتبتُ إليه في النهار نفسه مؤكدًا ما قلتُه له شفاهًا، وهو أن جمع سلاح المسيحيين دون غيرهم لا يوافق السياسة، وجمع سلاح الجميع لا يوافق السياسة أيضًا. وأما من جهة حصول ثورة من جانب المسيحيين، فأنا أكفل عدم حصولها ما دامت العدالة جارية. لا شك أن هذا المكتوب الذي كتبه لي زكي باشا وجوابه مني مسجلان في أوراق مشيرية الشام، وأغلب الظن أنها تكون الآن في أوراق نظارة الحربية بتركية. لم أُطْلع أحدًا على هذا السر يومئذ، لأن إفشاء أسرار الدولة فيه مسؤولية كبيرة. غير أني صادفت المرحوم بكر سامي بك، والي بيروت حينئذ، آتيًا من دمشق إلى بيروت مارًا بصوفر، فرجَوتُهُ وهو سائر في سيارته أن يتوقَف فوقف، فحكيتُ له قصة جمع سلاح النصارى وماذا كتب لي قائد الفيلق وماذا أجبته، وقلت لبكر سامي: «ماذا ترى: أَأَخطأت في جوابي هذا أم أصبتُ. أصدقْني القول». فقال لي، رحمه الله، وأشهد له بهذا أمام الله والناس، والله على كل شيء شهيد: «قد أصبتَ جدًا فليس بنا حاجة إلى إثارة هذه المسألة». وأتذكر أنه أردف ذلك بكلمة تبريك لي على شجاعتي أو شيء بهذا المعنى. عندنا في القرآن الكريم «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين»، فلهذا وجَب أن أؤدي هذه الشهادة بحق المرحوم بكر سامي بك. وأظنه غير مجهول في بيروت، فالناس تعلم مآثره فيها. ثم بعد مدة أسررت هذا الأمر إلى شخص آخر هو المرحوم المطران باسيليوس الحجار الذي كان من أعز أصدقائي، وكان يشاركني في كل همومي. أخبرته بالخبر بعد أن استحلفتُه على كتمانه فسالت دموعه وقال لي: «لا أقدر أن أُفشي هذا السر نظرًا لليمين التي حلفتُها، ولكن سيأتي يوم أُخبر فيه المسيحيين بما كنتَ تدافع عنهم في أيام الحرب.»

جمال باشا والبطريرك الماروني

هذه هي قضية جمع السلاح.

بقيَت قضية البطريرك الحويك الطيب الذكر، فهذه لم تقع من زكي باشا بل من نفس جمال باشا، وذلك يوم وصوله إلى الشام. فقد لاقيناه إلى محطة البرامكة، ولما سلّمتُ عليه بين الجمهور قال لي: «إن أنور باشا ذكر لي إياك كثيرًا»، ثم نزل في أوتيل «دماسكُس بالاس»، وبعد الظهر ذهبتُ أنا والمرحوم نجيب باشا الملحمة للسلام عليه، لأن نجيب باشا كنت أنا قدمتُه إلى أنور باشا ناظر الحربية الذي أعجب بآرائه وبخبرته السياسية. فلما نشبَت الحرب مع الدولة قال نجيب باشا لأنور باشا: «أنا حاضر للذهاب إلى سورية ولبنان حتى أسَكّن خواطر المسيحيين، لا سيما الموارنة، وأجعلهم معتقلين حبال الدولة». فشكر له أنور باشا هذه المهمة، وجاء نجيب الملحمة إلى حلب ثم إلى بيروت. ولما جاء جمال باشا إلى الشام قائدًا للفيلق، التمس نجيب باشا مني أن أقدِّمه لجمال باشا، فذهبنا معًا للسلام على المشار إليه، وهذا أول يوم وصوله، فجمال باشا بعد سلامنا عليه أحبَّ بأن يحادثني وحدي، وانصرف نجيب، فعندها فاجأني بقضية استحضار متصرف لبنان وبطريرك الموارنة إلى دمشق. وأجبته بمثل ما كنتُ قلتُ لك، وانفصلنا على غير اتفاق، ورآني نجيب الملحمة ذلك اليوم واجمًا مشغول البال، فسألني السبب فقلت له: «لا شيْء». وثاني يوم استأنفتُ الكلام مع جمال باشا، وأبديتُ وأعدتُ وأقسمتُ له الأيمان أن البطريرك مريض وأنه يرسِل للسلام عليه عدة مطارين من قبله». قال: «فليكونوا من الدرجة الأولى»، قلت له: «ليس في المطارين درجات، سيأتي للسلام على دولتك ثلاثة أو أربعة مطارين ومتى عوفي البطريرك يأتي بنفسه». فاقتنع وخرجتُ مسرورًا، ولما شاهدني نجيب الملحمة قال لي: «اليوم أنت غيرُكَ أمس»، قلت: «نعم»، ورويتُ له القصة كلها، فكتب إلى البطركية. وما علمت ماذا كتب غير أنه أطلعني على البرقية التي أبرق بها إلى البطرك يشير عليه بإرسال المطارين حالاً. وأنا لم أقل ما حصل معي لأحد، لما في إفشاء أسرار رجال الدولة من تبعة. وفضلاً عن ذلك فأنا لا أريد أن أتبجح أمام الناس بأمور أُعدها من واجباتي الوطنية. فلما رجعت من دمشق إلى بيروت صادفتُ حبيب باشا السعد، وهو ولله الحمد حي يرزق، فقال لي هذه العبارة: «نشكرك من

حبيب باشا السعد

حيث أنك حافظتَ على شرف بطركنا». فقلت له: «أستغفر اللّٰه إن كنت عملتُ شيئًا، فهو أقل من الواجب». واستغربتُ كيف عرف حبيب باشا بالقصة، فيظهر أنه عرفها إما من البطركية نفسها التي كتب إليها نجيب الملحمة باشا، أو نجيب باشا نفسه.

ما عدا ذلك ليس في المقالة شيء يلزم تصحيحه. نعم يمكن أن يضاف أنني عندما أخذت أتكلم في صوفر، في قاعة الأوتيل الكبير، أمام جمال باشا والبطرك وأركان الحرب الذين منهم علي فؤاد باشا مدير المدرسة العسكرية اليوم في أنقرة، وأذكر صداقة الطائفة المارونية وبطريركها للدولة، كان المطران عواد حاضرًا وهو حي يرزق أيضًا. ثم لما ذهب البطريرك المرحوم ليستريح في غرفته، ذهبت لأسلِّم عليه فعانقني وشكرني كثيرًا على ما قلت لجمال باشا وكان هذا بحضور حاشيته. ثم لما سافر من صوفر، صادفتَه أنتَ وسمعتَ منه ما سمعتَ ولم أكن حاضرًا.

نعم: قضية إرسال العربة من قبَل جمال باشا إلى البطرك حتى يأتي بها، كانت هي مني. ثم لما قسا الجو بيني وبين جمال باشا بسبب طغيانه وبطشه ونفيه للألوف من العائلات دون أن يسمع لي نصحًا، وقد حصلت بيني وبينه مجادلات شديدة وذهبتُ على أثرها إلى الآستانة وملأتُ المراجع العليا بالشكوى من سياسته في سورية، وأوضحتُ مضراتها العظيمة بالدولة، أرسل إليّ البطريرك الحويك، بواسطة صديقي الشيخ بان الخازن، ينصحني بعدم التهور في عداوة جمال باشا، لأن البطريرك، طيب اللّٰه ذكره، قد سمع أن جمال باشا يتوعدني، وهذا كان صحيحًا، حتى أن الشيخ عبد العزيز شاويش رحمه اللّٰه عندما قابلني في الآستانة عانقني وأخذت دموعُه تسيل قائلاً: «ما صدَّقت إنني أراك، فإن جمال باشا صرح للدكتور أحمد فؤاد بحقّك بما يفيد نيّة بطشه بك»، ثم شاهدتُ الدكتور أحمد فؤاد فأخبرني بما وقع بينه وبين جمال من الجدال الشديد لأجلي، وقال لي، وهو نفسه من كبار مأموري الأمن العام: «أوصيك أن تكون على حذر من جمال باشا».

كذلك نجيب باشا، نجيب باشا الملحمة، حذَّرني من الخروج ليلاً، فسألتُه عن السبب فقال لي: «بلغني أن جمال باشا يريد أن يرسل أناسًا يغتالونك في الطريق، فليس من الحكمة الاستخفاف بالعدو، وهؤلاء الناس قد يقتلونك ويقتلون الذين قتلوك وكل شيء يعملونه». فضحكت وقلت لنجيب باشا: «لا يتغير شيء من طوري بأمور كهذه». ثم أن نجيب شقير الأرصوني رحمه اللّٰه، المتزوج بتركية، كان قد علم من زوجته نقلاً عن سيدة تركية ذات علاقة بجمال باشا أنه ناوٍ انتهاز أول فرصة للبطش بي.

وقد أخبرني نجيب بذلك وقال لي: «قلت لزوجتي أخبرتُ الأمير شكيب ولكنه لا يبالي بهذه الأمور». فإذا كنتَ، أيها الأخ، تريد وعندك شيء من الوقت، تُدخل في المقالة هذه المعلومات لتكون الروايات على وجهها.

قريبًا أَفرغ من كتابة المقدمة التي أُعدُّها للطبعة المرتقبة من ديوانك، كما إني أرسل إليك اليوم بعض ما يطرأ على القريحة من خواطر، وقت نريد أن نحرِّك فتورها ونجلو صدأها مما ينتابها من دواعي الهموم، ونخرم سلسلة اطّراد الكوارث بشيءٍ من بواعث الارتياح وأسباب الجمام، ونحثو في وجه الجد الأجهم شيئًا من تراب العبث الضاحك، استعانةً بنكات الأدب وطرائف الملح على نوازل الدهر ونوائب الزمن، وهزًّا لسكون العربة بأوتار الشعر ورنات القلب. وها هنا بعض ذلك من عفو القريحة التي تتجاذبها عوامل جمة، وإن كنا فيها كمن أهدى الجُمان إلى عُمان، أو المقامات إلى بديع الزمان، ولنا الأمل منكم في ستر عوارها والأخذ بيد ضعفها، ونحن من هنا نرعى في مروج الشرق جياد أفكاركم وسوابقها ونَلمَح على شرف الصحف أوانس أبكاركم وعواتقها. دام بقاؤك لأخيك شكيب أرسلان جنيف ٢ تشرين الثاني ١٩٣٨».

رسالة أرسلان مقدمة ديوان الملاّط

شبلي ملاّط

بعد بضعة أيام وجّه الأمير شكيب كتابًا إلى صديقه شبلي أدرجَه هذا الأخير كمقدمة لديوانه، جاء فيه: «شعر الأخ الأستاذ شبلي بك ملاّط لا يمكن وصفه بأحسن من عرضه، ولا نعته بغير الحث على حفظه. فإنه لا يبلغ الواصف منه معشار ما يبلغ هو من نفسه. فهو الشعر الذي يصح أن يقال فيه: عينه فراره، وسره استظهاره، وتعريف تبلغه، وتحليته تسوغه، وروايته رواؤُه، ونعته جلاؤه، والإشادة به نفس إنشاده، والترنم بمدحه مجرد إيراده، فمهما نبهت على محاسنه كان تنبيهه على نفسه أبلغ وأسرع، ومهما أقمت عليه من البراهين، كان برهانه في ذاته أظهر وأسطع. إنه لعمري هذا السهل الممتنع، الداني المرتفع، القريب البعيد، المعتصم بقنن الامتناع وهو أقرب من حبل الوريد. وإنه هو النوع المرقص المطرب المعرب عما في نفسك بأحسن ما تريد أن تعرب لا تكفل ولا تعسف، ولا تصفع ولا تنطح، ولا تزيد ولا تعمل، بل الجمال الذي لا يحتاج إلى تجمُّل، وهي الألفاظ على أقدار المعاني لا تزيد ولا تنقص، والأثواب

على نسبة القدود فلا تطول ولا تقصر، وهي القوافي لا تجد منها قافية إلا معروفة قبل الوصول إليها، وترى البيت كله منصبًّا عليها، مصدقًا لما خلفها وما بين يديها. وأما دخول الآذان بلا استئذان، فإن كان في هذا العصر شعر ألغيَتْ في وجهه حجابة السامع، وتناولتْه حتى أفهام البلداء تناوُل الأبصار الحادة للبروق اللوامع، فيكون شعر الأخ الملاّط في وضوحه ونصوعه، وبروزه وسطوعه، وتعلق خواتمه بهواديه، وارتباط أواخره بمباديه، وبأنه لا يحير قارئًا ولا سامعًا، ولا يُتعب لهما ذهنًا ولا يسومهما بقد الهباءة كدًّا ولا جهدًا، وإن كان يسومهما العلاء فهو علاء دون تصعيد جاهد، ولا كد ناصب، وإنما يطير بك في آفاق المعالي وأنت على مهاد وثير، ومركب كريش النعام موَطَّإٍ بالحرير وأنت راكب جناح الأثير. لا تسمع للملاّط بيتًا إلا هتفت له: مرحى، وتظن أنك تسمع بيتًا فإذا بك تسمع آية: «يا هامان ابن لي صرحا».

ولا ينحصر نبوغ الملاّط في المقاصد العالية والمرامي النائية والمنازع التي تجد فيها طائر شعره محلقًا دائمًا، وإن كان في هذا الموطن لا يشق له غبار، ولا يدرَك له مطار، وإنما هو مستَوْلٍ على الأمد في أكثر المواضع، وإن كان قد ملك ناحية الجزل فما فاته الرقيق، وإن جال في مآسد السباع فطالما جال في مراتع الآرام لا يرود حتى يصيد، ولا يجول حتى يصول، ولا يصول إلا صولة الفحول، ولعله فاته من مزايا الشعر تقليد ما يقال له «الشعر الجديد»، وخيرٌ له أن لا يحسن هذا النوع الذي يشرب منه الإنسان ولا يروى، وكأنما قارئه يأكل في نومه كما يقال. تعمَّد أهله أن يأتوا بما لم يأتِ به الأوائل ففاتهم الأوائل والأواخر معًا، وحاولوا أن يبدعوا ويغربوا فما قدروا على شيء سوى الإتيان بالأعجم الذي لا يفهم ولا يُفهم، وما قاربوا الإحسان إلا عندما استولت عليهم السليقة الأصلية، ونزع لهم العرق العربي الصريح فرجعوا إلى ما نشأوا فهُم بين أمرين: إما أن يقولوا ما يفهمه الناس وتسيغه أذواقهم وحينئذ فهو الشعر العربي المطبوع على غرار الشعر الجاهلي أو المخضرم أو المولّد وليس شيء من هذا بجديد، وإما أن يقولوا ما يخالف أسلوب هؤلاء ليقولوا بدعًا ويحدثوا غير معهود، فحينئذ هو الشعر الذي لا يُعرَف له قبيل من دبير ولا شرق من غرب. وأنا في شك هل يفهمه أنفس قائليه، وأن تظاهروا بفهمه. إن الفصيح لا يتعلق بقديم وجديد، وإنما هو ما وافق الذوق البشري ولاءم الطبع الإنساني وخاض في السمع بلا تفكير وامتزج بالطبع بلا تطبُّع، وإن هذا مركوز في فطرة الإنسان منذ وجد الإنسان. فإن كان للشعر العربي الملائم ذوق أهل هذه اللغة مرآة صافية نقية فيكون في مثل شعر الأخ الملاّط الذي ينادي القارئ كل عبارة

منه: أنَّ تحتك معنى سريًّا وأنَّ هذا الشعر، مذ كان، كان عبقريًا. شكيب أرسلان – جنيف ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨».

شبلي يرد الوفاء

من مراجعة ما كتبه نجيب البعيني[٢] يستفاد أنْ «عندما أعلن الأمير عزمه على الرجوع إلى وطنه لبنان سنة ١٩٤٦، مهّد شبلي ملاّط مع الشيخ بشارة الخوري، رئيس الجمهورية اللبناني في ذلك الحين، لإقامة مهرجان استقبال للأمير يليق بمكانته تشترك فيه الحكومة والوزراء والنواب، فجرى الاستقبال في مرفأ بيروت في ٣٠ تشرين الأول من تلك السنة على ظهر الباخرة «بروفيدانس». وسابقًا، كان الأمير شكيب توسّط لدى جمال باشا، العام ١٩١٥، لإرجاع والد الشيخ بشارة عن طريق النفي، فعاد هذا الأخير إلى بيته حيث مكث طوال الحرب.

وعندما توفي الأمير شكيب في ٧ كانون الأول ١٩٤٦، رثاه شبلي بقصيدة عصماء أتى فيها على وصف جهاد الأمير ونضاله ووطنيته ومكانته في لبنان والعالم العربي والإسلامي[٣].

٢. شهادات عن دور شبلي ملاّط في الحرب العالميّة الأولى

ارتبط شبلي ملاَّط طوال حياته بصداقاتٍ دامت ما سنحت ظروف الحياة باستدامتها، وبعضها كان ظرفيًّا. وهي تميّزَت بالتقدير والودّ لِما كان بين المفكّرين والأدباء من وعيٍ تامٍّ خطورةَ الظروف العاصفة بلبنان وبلاد الشرق، مع الرغبة الأكيدة في المحافظة على كيانات مجتمعٍ فرَضَ عليه التاريخُ التصرّفَ بحنكةٍ فائقةٍ نظرًا إلى دقة المواقف وانعكاساتها السلبيّة، بل الدمويّة، وفقًا لمزاجية الحكّام والقيمين.

حافظ ابراهيم

بناءً عليه، نشأَت بين شبلي ملاَّط وأدباء عصره ومفكّريه روابطُ صداقة وألفة، بين أبرزهم: يعقوب صرّوف، شبلي الشميّل، خليل مطران، سليم سركيس، أمين تقيّ الدين، أنطون الجميّل، الأمير شكيب أرسلان، أحمد شوقي، حافظ ابراهيم، بشارة الخوري (الأخطل

٢) نجيب البعيني: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٣) شبلي ملاَّط: الديوان، الجزء الثاني، ص ٤٤٦–٤٤٧، بيروت ١٩٥٢.

الصغير)، عيسى اسكندر المعلوف، أمين الريحاني، يوسف خطّار غانم، يوسف صالح الحلو (صاحب جريدة «الخواطر» وجَدّ كارلوس سليم لوالدته)، حبيب مسعود، وديع عقل، مي زيادة، ...

شاءَت مناسباتٌ عدَّةٌ تعزيزَ هذه العلاقات بين شبلي ملاَّط وأترابه، خصوصًا عند زياراته مصر وسوريا والأردن والعراق، أو لدى استقبالهم في لبنان أو لقاء أصدقائه.

تعززَت شبكة علاقات شبلي، بأوسع مدى، عندما مثَّل لبنان في مناسبات أدبية مميزة منها: تكريم خليل مطران في مصر (١٩١٣)، ويوم مبايعة أحمد شوقي إمارة الشعر (١٩٢٧)، ومناسبات أخرى أتى شبلي على ذكرها في ديوانه الصادر سنة ١٩٥٢.

وحافظ ابرهيم زار لبنان وسوريا (١٩٢٩) وأشار إلى هذه الصداقة والتقدير في قصيدةٍ، منها:

يا وقفةً في جبال الأرز أنشدها ... بين الصنوبر والشربين والبانِ
تستهبط الوحي نفسي من سماوتها ... وينثني ملِكًا في الشعر شيطاني
علّي أُجاودكُم في القول مقتديًا ... بشاعر الأرز في صُنْعٍ وإتقانِ

في الحرب ظل الملاَّط في خدمة شعبه

تنويهُنا بصداقات شبلي ملاَّط وعلاقاته بنخبة العالم العربي في عصره، هو لتأكيد أنه – عندما وقعت الحرب العالمية الأولى وتولَّى جمال باشا الحُكْمَ في الشرق الأدنى وفي لبنان بعد إلغاء امتيازات نظام المتصرفية، مع إبقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية لحاملي بطاقات من متصرفية جبل لبنان – كان يمكن شبلي أن يعتزل مركزه الإداري في المتصرفية رئيسًا للقلم العربي (ما يوازي وزارة الداخلية في ذاك النظام) وينسحب إلى مصر. لكنه لم يفعل. فشخصيته القوية كانت تأْباه أن يقع في الانهزام واليأْس. لكنه اختار البقاء في مركزه رغم مرارة الأيام وصعوباتها، خدمةً مواطنيه وتخفيفًا، قدْر الممكن، من آلامهم ومشاكلهم. لذا، حين قام من يشكُّون بدوره فترتئذٍ، أصدر مذكراته بعنوان «فإذا رميتُ أصابني سهمي»، فانبرى أبرز أدباء العصر ومفكريه بالتعبير عن تقديرهم لدور شبلي ملاَّط في الحرب العالمية الأولى.

جمال باشا

وهنا قَبَسٌ من تلك الشهادات:

إميل يوسف حبشي: في كتابه «جهاد لبنان واستشهاده» (بيروت١٩٢٠) سردٌ وقائعَ الحرب العالمية الأولى ومآسيها، بشهادات من كانوا وسْط ذاك الأتون الحارق. وخصّ شبلي ملاّط بالصفحتين ٢٢٣ و٢٢٤ وفيهما: «شبلي بك ملاّط: لو حلَّ ملاك من السماء محل شبلي بك من الحكومة التركية، وهو شاعر، لأثنى على جمال ورفاق جمال أكثر منه، ولا يقال عن الرجل غير هذا، وهذا لا يلام عليه لأنه ليس عيبًا، فضلاً عن أن الرجل من أخلص المجاهدين وأصدق الوطنيين. وإذا قرأتَ له شعرًا بجمالٍ نظمتْه شفتاه خلال الحرب، فاقرأْ له مواقفه وتغنِّيه بذكر الاستقلال والنهضة قبل الحرب وبعد الحرب. وإن كنتَ شهدتَ نكبة إخوانك اللبنانيين، فاذكُر دائمًا أن شبلي خدم أصحابه، ولو أراد الأذية لاستطاعها».

الأديب والمؤرخ لحد خاطر: في كتاب «مذكرات لحد خاطر – صفحات من تاريخ منطقة الجرد الجنوبي» (أصدرتْه ابنته نهى بإيعاز شقيقها منير: بيروت، «دار لحد خاطر») الصفحتان ١٨٩ و١٩٠: فصل خاص عن علاقته بأستاذه في مدرسة «الحكمة» شبلي ملاّط، ومما جاء: «شبلي الصحافي والصديق: بعد إعلان الدستور في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨، ترك شبلي التدريس في «الحكمة» وانخرط في سلك الصحافة فأنشأ جريدة «الوطن»، ونالت شهرة ورواجًا لِما كان يزيِّنها من غرّ قصائده ومقالاته وفرائد كتابات أصدقائه من أدباء ذاك العصر. وبعد سنتين اضطُر إلى إيقافها لأنها كانت تشدّد النكير على المستبدّين. بعثوا إليه من أضرم النار في مطبعتها فاحترقت بكامل أدواتها. بعدها انتقل إلى جريدة «النصير» لعبود بك أبي راشد فحرّرها زهاء سنتين. أهدى إليّ شبلي الجريدتَين وكتب إليَّ يسألني مواصلته ببعض مواضيع مما كانت تجود به قريحتي في ذلك العهد، عهد الشباب، فلم يسعني إلاّ إجابته إلى رغبته، وبذلك كان له عليَّ الفضل في تعويدي الكتابة في الصحف وفي تحبيب الصحافة إليّ حتى قيّض لي بعد حين أن أصرف في خدمتها شطرًا كبيرًا من عمري (...) وكنتُ في ضيافة شبلي حين هاجم الأسطول الإيطالي مرفأ بيروت صبيحة يوم من ١٩١٢ واضطررت إلى الهرب مع الهاربين من جميع أهالي بيروت كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً، فامتلأت بهم طرق الضاحية وكانوا بأغلبيتهم الساحقة يسيرون على أقدامهم لقلّة وسائل النقل في تلك الأيام. ففيما كنت أسير بين السائرين في جوار فرن الشباك، إذا بعربته تقف إلى جانبي، وبصوت شبلي يناديني منها للصعود إلى جانبه ففعلْتُ، وكانت دعوته لي بمثابة خشَبةِ إنقاذٍ هبطت عليّ من السماء لم أعرف كيف أشكُره عليها ولا كيف أُعرِب له عن اغتباطي بمشاهدته ومشاهدة مَن كانوا معه في العربة، وهم من بعبدا ممن رافقوني

في التتَلْمذ له في «الحكمة». وقد تفضّل شبلي عندئذ باستضافتي طوال ذينك النهار والليل في بيته في بعبدا، مبديًا نحوي من ضروب العطف والمؤانسة والمجاملة ما أذكره له ببالغ الثناء والتأثر (...) ثم كان له الفضل في الترخيص لمدرستي في الرويسة، إذ كان شبلي تقلَّد وظائف في حكومة لبنان على عهدي المتصرفية والانتداب، كان فيها جميعًا مثال الموظف الأمين الواقف نفسَه على خدمة بني قومه، أخصّهم المحتاجون والمظلومون وأصحاب المصالح في الحرب العالمية الأولى. فهو كان في تلك الأيام ملجأَ كل قاصد، ولطالما حفظ حياةَ أُسَرٍ كثيرة من غوائل المجاعة، وأنقذ عددًا من شبان لبنان سكان ولاية بيروت من التجنيد، وساعد غيرهم على الظفَر بوظائفَ تدريسيةٍ درّت عليهم الرزق. وكنت في ذلك العهد، سنة ١٩٠٧، قد أنشأت مدرستي «الأهلية» في رويسة النعمان. وعند وقوع الحرب سنة ١٩١٤ تلقيتُ مذكرةً من حكومة المتصرفية بوجوب الحصول على رخصة للمدرسة من لجنة مختصة، فأتيت بعبدا للحصول على ما طُلب مني. لجأْتُ إلى أستاذي وصديقي شبلي في إنالتي مقصدي، فترك مكتبه للحال وقادني إلى حيث أُعطِيَتْ لي رخصة في مدة وجيزة ودون أقل عناء. وهكذا كان يفعل مع كل مَن قصَده من ذوي المطالب والحاجات».

الدكتور فؤاد صروف: في الحفلة التكريمية التي أقيمت في ذكرى شبلي ملاّط (قصر الأونسكو – بيروت ١٠ كانون الأول ١٩٦١) ألقى خطابًا مؤثرًا في صديقه القديم ذكَرَ فيه دور شبلي في مساعدة المواطنين خلال الحرب العالمية الأولى. ومما قال: «لكَم سألت نفسي عن هذا الرجل – وهو في غمار الوظيفة، ومعارك الكرامة في لبنان، والسعي الكريم يبذله سخيًّا كشعره لإخوانه في ضيق الحرب، ومنها والدي – كيف استطاع أن يستوفي ما استوفاه من عدة محْكمة لجلُوّ هذا الجوهر. ولست أجد من رَدٍّ يُقنعني سوى «أن النابغة قدَرٌ إلهي». ويوم مشيتُ مع الأدب ولبنان وراء جثمانه، عادت بي الذاكرة إلى قصيدته في حفلة عاليه، فصعدَت إليَّ من أغوار صباي أبياتُه في ختامها:

وإذا التقى وطني وأشتات المنى ... جدَّدتُ ذاهب صبوتي وغرامي
وإذا نبا أملٌ به آسيتُه ... واليأسُ خِلّي والرجاء أمامي
وأقمتُ أرعى أرزه وسماءه ... حتى تذرّ الساقيات عظامي

وفي لمحة كالبرق الخاطف وجدتُني أعْبُر الحجاب الرقيق بين الحياة والموت، وأهمس: «نم قريرًا، أبا شوقي، فذرور عظامك، ورفيف شدوك، وعطر أرزك وأرزنا، باقية أبد الدهر خافقةً في هذا الهواء الذي نتنفس».

الأب لويس شيخو: ربطته بشبلي ملاَّط صداقة قديمة. وكان نشر له عدة قصائد في مجلة «المشرق»، من أبرزها: «أغاني أسرى البوير في جزيرة القديسة هيلانة» («المشرق»، سنة ١٩٠٢، ص ٤١٧). وعندما أصدر شبلي مفكّرته «فإذا رميت أصابني سهمي» علّق عليها الأب شيخو («المشرق»، المجلّد ١٨ – ١٩٢٠ – ص ٦٣٦) في مقاله «مفكرات وصفحات مطوية لشبلي أفندي ملاَّط» جاء فيه: «رمى بعض اللبنانيين في المهجر جناب كاتبنا وشاعرنا الوطني شبلي ملاَّط بسهام المَلام لمجاملته الحكومة التركية في أيام الحرب، فاقتضى عليه الأمر أن يدافع عن تصرّفه بهذه الكرّاسة، فبيَّن بأصدق الكلام ما صارت إليه أحوال البلاد في تلك الحقبة، وما أحاط به خصوصًا من أخطار النفي والمصادرة بل الإعدام، فلا يؤْخذ عليه أن احتاط لنفسه فَمَدَحَ مكْرهًا أرباب الأمر وأصاب لديهم حظوة. على أنه بِتَقَرُّبِهِ من السلطة المالكة توّسل خدمة كثيرين من مواطنيه لا سيّما الفقراء والأرامل والإكليريكيون. هذه خلاصة تلك المفكّرات، فعساها تقطع ألسنة العاذلين».

يعقوب صروف

عند صدور نبذة شبلي «فإذا رميتُ أصابني سهمي» خصّها بمراجعة في «المقتطف» (عدد آب ١٩٢٠، ص ١٦١-١٦٢) هنا صورةُ نصِّها كما صدر:

باب التقريظ والانتقاد

مفكرات وصفحات مطوية

شبلي بك ملاط من كتاب لبنان المعدودين وشعرائه المبرزين وهو الذي انتدبته ادباء سورية ليمثلهم في القاهرة يوم احتفلت بشاعر مصر والشام خليل افندي مطران . وقد نشر الآن رسالة عنوانها مفكرات وصفحات مطوية بدأها وختمها بالقول المأثور « فاذا رميت اصابني سهمي » . ويستدل منهُ على ان بعض اصدقائه عيروهُ واكثروا من عذله فوقع في حيرة بين ان يبرر نفسهُ فينسب اليهِ التباهي او يصمت فيثبت عليهِ ما عيروهُ بهِ

لما قرأنا الصفحات الاولى من هذه الرسالة لم نجد فيها ما يوجب نشرها لانهُ ما من كاتب تسنم منزلة عالية الا نال منهُ من كان يعدهم اصدقاءهُ . ولكننا لم نكد نوغل فيها حتى رأينا من الحقائق ما جعلنا نود لو توسع الكاتب فيما نشر . فقد اثبت اولاً انهُ قاوم الظلم باستخدام قريحته الوقادة لجعل ولاة الامور يثقون بهِ ويحببونهُ الى ما يلتمسهُ منهم لدفع مظلمة عن ابناء وطنهِ وجلب منفعة اليهم ففاز بذلك فوزاً حسناً . واثبت ثانياً ان جمال باشا لم يكن بالاسد الضاري الخالي من كل عاطفة شريفة كما يصورونهُ . مثال ذلك ما جاهر بهِ الكاتب لجمال باشا في فلسطين حين اجتمع بمندوبو الولايات السورية وسألهم عن الاعاشة في لبنان فان الكاتب انكر ما ادعاهُ البعض لمزعي بك والي بيروت من العمل الطيب وقال ان المجاعة على ازدياد وان المطاعم ستة فقط وهي اسمية لاغير اذ كثيراً ما يرتادها الفقراء ولا يعطون شيئاً . فاستغرب جمال باشا ذلك ودعا في الحال رئيس اركان ديوانهِ وامرهُ بارسال المفتشين الى لبنان لاستقراء الحقيقة . ثم بعث بمقادير وافرة من الحنطة لتوزع على الفقراء على يد بطريرك الموارنة

وثالثاً ان مأموري الاتراك وبعض المحتكرين من السوريين انفسهم هم الذين اضروا بلبنان وسائر البلاد السورية . وحبذا لو توسع في هذا الموضوع وذكر كل الذين كان لهم يد في ذلك ليبقى اسمهم لعنة الى الابد

وانا نرفع شكرنا الى حضرة ملاط بك على الخدمة الجليلة التي خدم بها بلادهُ في احرج الاوقات ونهنئهُ بما اعطي من توقد القريحة وقوة العارضة وحسن الاسلوب

وهنا ما كتبه يعقوب صروف عن «ديوان الملاَّط» في عدد آب ١٩٢٥ من مجلته «المقتطف» (ص ٣٣٥–٣٣٧):

اغسطس ١٩٢٥ التقريظ والانتقاد ٣٣٥

ديوان الملاط

وهو ديوان المرحوم تامر الملاط واخيهِ صديقنا الفاضل شبلي بك الملاط وكلاهما من اعلام الشعراء الذين انجبتهم سورية في هذا العصر

كان تامر شاعراً بليغاً ديباجتهُ اقرب الى ديباجة الجاهليين وشعراء صدر الاسلام منها الى شعراء العصر الحاضر كما ترى في قصيدتهِ التي وصف فيها عراكاً خيالياً بين « الشاعر والثمر » وقصيدتهِ التي وصف فيها القطار الحديدي بين بيروت ودمشق قال في الاولى يصف الثمر

وارقط رابي المتن مستحصد الشوى ... كقنطرة الباني على عُمُد عَبلِ
خفيف ضبور الوعث تنفي متى عدا ... يداهُ الحصى كالمستطير من النبلِ
هويت لهُ شدقانِ مثل مغارةٍ ... ووجهٌ عليهِ شارة الغدر والختلِ
مفطّحُ ما بين المسائح باسلٌ ... باسجر حملاق وكالحةٍ عصلِ

وفي رأي الاديب وديع افندي عقل محرر جريدة الوطن البيروتية ونائب جبل لبنان ان تامراً «لم يركب هذا المركب الجاهليَّ من السبك الا عن الضرورة التي تقتضيها حالة خاصة وهو فيما خلا ذلك عشيق الجزل الرقيق» كما في قصيدتهِ الشامية والحياة في الشعر

وعندنا ان قصيدة الثمر لا تقرأ مرة واحدة حتى تردد قصيدة « الحياة في الشعر » عشرات المرات وهي القصيدة التي نظمها ابان مرضهِ ووصف فيها حالهُ وصفاً دقيقاً يثير العطف والالم ومنها

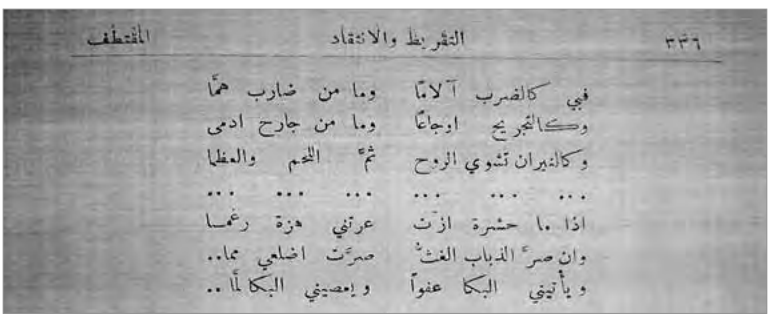

٣٣٦ التقريظ والانتقاد المقتطف

فهي كالضرب آلاماً ... وما من ضارب همّا
وكالتجريح اوجاعاً ... وما من جارح ادمى
وكالنيران تشوي الروح ... ثمّ اللحم والعظما
... ...
اذا ما حشرة ازّت ... عرتني هزة رغما
وان صرّ الذباب الغثّ ... صرّت اضلعي مما..
و يأتيني البكا عفواً ... و يعصيني البكا لما ..

والقصيدة كلها على هذا النسق من سهولة البيان وصدق التصوير

اما الجزء الثاني من الديوان فخاص بشبلي بك. وقد عرفنا صاحبهُ موظفاً كبيراً في حكومة لبنان وشاعراً مجيداً يجري الشعر على قلبهِ ولسانهِ جزلاً نمّاً من غير تعثر او ترديد وخطيباً بليغاً يترنح حين انشاد شعرهِ كأن بهِ سكراً من خمر الشعر فيترنح معهُ الجمهور الذي يصغي اليهِ

ختمنا مطالعة الجزء الاول من الديوان الخاص بالمرحوم اخيهِ فاذا امامنا صفحة عليها « ديوان شبلي — الجزء الاول » فجعلنا نقلب الصفحات واحدة واحدة من مذكرات سياسية الى تهانٍ ازجاها الادباء في لبنان تحية للشاعر في حفلة زواجهِ ورسائل كتبت عنهُ واليهِ في قصيدتهِ التي انشدها في حفلة تكريم خليل مطران حينما جاء مصر موفداً من قبل ادباء سورية . قلبنا نحو ١٢٠ صفحة على هـذا النمط وفي النفس شوق الى قصائد الملاط التي تنمُّ على روحهِ فبلغناها في مستهل الصفحة ٢٢٣ من الديوان واذا امامنا قصيدة وطنية بليغة عنوانها «على ذكر اول ايلول» وهو عيد استقلال لبنان الكبير

لكن ذكر شبلي بك يقترن دائماً في ذهننا بقصائدهِ القصصية الشهيرة وخصوصاً التاريخي منها التي تدور على حادثة من حوادث التاريخ العربي اخذها الشاعر وحاك حولها من بديع خيالهِ قصة شعرية تروى ابياتها وتستعاد لما فيها من سهولة المبنى وجزالة اللفظ وبلاغة المعنى . ومن هذا القبيل نذكر قصيدة « خولة بنت الازور » « وبين اليمن والشام او ام البنين » « وسيف بن ذي يزن » . ان هذه القصص الشعرية اشبه شيء بفن الايدلز او الاپيك عند الافرنج اذ يأخذ الشاعر شخصاً وقد يكون خرافياً من تاريخ بلادهِ ويحوك حولهُ قصة يبين فيها فضائل الامة وصفاتها على اسلوب شعري حماسي قصصي . وهاك ما يقولهُ شاعرنا عن فضائل الحكم في اوائل الفتح العربي في قصيدة سيف بن ذي يزن

اغسطس ١٩٣٥ التقريظ والانتقاد ٣٣٧

عمّ الملوك الألى شادوا عروشهمُ ... على اساسين من عدلٍ وإحسانِ
واطعموا الناس احراراً بما اعتنقوا ... وصوبوا من تقاليد واديانِ
واكرموا النفرَ الغُرَّ الألى نبغوا ... واحوزوا السبق في ميدانِ عرفانِ
وروّجوا الشعرَ حتى نال صائغهُ ... درًّا بدُرٍّ ومرجاناً بمرجانِ
وحققوا في صناعات وحسبهمُ ... بدائعٌ صوّرت في قصر غمدانِ
ومهدوا عقبات الرزقِ وانقسموا ... للشعب ما شاء من يسرٍ وعمران
وقوّموا أودَ الاحكام وانتدبوا ... من القضاة لها ارباب وجدانِ
لا غمزة الجفن مكحولاً تطير بهم ... ولا تضعضعهم رنّاتُ رنّانِ

ومن قصائدهِ الحكمية البليغة قصيدة « حول الشباب » ردّ بها على الذين اتهموهُ بانهُ كان في الحرب ممالئاً لجمال باشا حربًا على بلادهِ وابناء وطنهِ

ومن نُبل العلاقة بين شبلي ملاّط ويعقوب صروف: يوم مثَّل شبلي أدباء لبنان في مهرجان مبايعة إمارة الشعر لأحمد شوقي (١٩٢٧) وشهرة قصيدته، بادلته مي زيادة عند استقباله بعد الحفلة: «عَمَلْتُ إيه يا بيه؟ كِدَه تشقُّون جدار الأوبرا؟»، ووجّه إليه صاحب المقتطف الرسالة التالية[٤]:

٤) ديوان شبلي ملاّط: الجزء الثاني، ص ٧٨–٧٩، بيروت ١٩٥٢.

«عزيزي الشبل بل الأسد الرئبال: لقد بيَّضْتَ الساحة، ورفَعْتَ راية السوريين عامة واللبنانيين خاصة. أمّا أنا فقد شق عليّ أن لم تتمكن من إنجاز وعدك. لكنني عَذَرتُكَ بما رأيتُه من انشغالك المستمر حتى لقد صرتَ مُعَرَّضًا لآفتين: العين والعجب. أما العين فالعلم نفاذها فلا أخشى عليك منها، وأما العجب فأدبك يرفعك عنه. وأؤكد لك أنه لم يحدِّثني أحد في أمرك إلاَّ رأيتُه معجبًا بك وذلك حَسَب كل أديب.

أخوك يعقوب صروف – القاهرة ٤ حزيران ١٩٢٧»

والأرجح أن هذه الرسالة آخرُ ما كتب يعقوب صروف إذ توفي في تموز ١٩٢٧.

مي زيادة[٥]

ربطت صداقة وتقدير ميّ بشبلي ملاَّط، خصوصًا بعد تمثيل الأخير أدباء لبنان وسوريا في مهرجان تكريم خليل مطران (القاهرة ١٩١٣). وأشار شبلي إلى ذلك: «من ١٩١١ إلى ١٩١٣ قامت لنا في مصايف لبنان مجالسُ أدب وشعر ونوادر، كانت واسطةَ عقْدها المحدثةُ الساحرةُ ميّ زيادة حين تغشى صيف لبنان مرة على نبع الصفا، وحينًا في زحلة، وأيامًا في صوفر وضهور الشوير. ثم جمعَتْني بها في مصر الحفلة التي أقيمت في نادي الجامعة المصرية تكريمًا لشاعر القطرين خليل بك مطران، وكنتُ يومها من المتكلمين على منبر الجامعة. وكلانا نجح ووجَّه الأنظار. من أجل النجاح، ومن قبيل القصاص، حكمَ علينا مدير حركة الحفلة سليم سركيس، صاحب مجلة «سركيس» الخفيف الروح بإنشاء عدد من مجلة «سركيس» نصفُه بقلم الآنسة ميّ والنصف الآخر بقلمي. وكان ذلك سنة ١٩١٣.[٦]»

وبالفعل، حرَّر الملاّط نصف ذاك العدد (صدر في ١٥ آذار ١٩١٣ من صفحة ١٢٩ إلى صفحة ١٥٤)، وفيه مراسلات بين شبلي ملاَّط وشبلي الشميل وسليم سركيس، وقصائد من شعره لم يصدر في ديوانه. وعندما أصدر الملاّط مفكرته «فإذا رميت أصابني سهمي» وجهّت له ميّ زيادة الرسالة التالية:

«٢٨ شارع المغربي – القاهرة في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٠

«عرفت أنا كذلك لأول وهلة على ظرف الخطاب ذلك الخط الخاص الذي يرتسم فيه خيال الشاعر وقوة الرجل جميعًا، كما كنت عرفته قبل

٥) ديوان الشقيقين تامر وشبلي ملاَّط، الجزء الأول، ص ١٣٨–١٣٩، بيروت ١٩٢٥.

٦) شبلي ملاَّط: الديوان، الجزء الثاني، ص ٣٣–٣٤، بيروت ١٩٥٢.

ذلك اليوم على الرسالة المطبوعة «فإذا رميت أصابني سهمي». حسنًا فعلت الصحيفة السورية في المهجر إذ رمتك بما رمَت، فَبَعَثَتْكَ على تنميق هذه الرسالة الغراء التي تبَّيْنْتَ فيها الذكاء الحاد، والنفَس العميق البليغ، وسِعَة الصدر، والإخلاص في خدمة القوم والوطن، ومجموع تلك القوى والشمائل خليقٌ بأن يكون هالة فخر تتوج بها هامات كبار الرجال».

الصحافي والأديب جورج الخوري بولس كرم – الأرجنتين[٧]

وفي مجال شهادته عن شبلي ملاَّط نشَرَ في صحيفة «العدل» (ريو دو جانيرو) مقالاً صدَر في الصفحة الأولى من العدد ١٧٤٤ (٢٠ أيار ١٩٢١) تحت عنوان «الملاَّط الشاعر» جاء فيه: «للملاط وقفات سواحر. فقد تعود على ربط القلوب بخيوط من الاستهواء بحيث يدفعها ويجذبها إلى الحد الذي يريده. وهو بشاعريته وبنبرات صوته وبالتفنُّن في الإلقاء وحرصه على اللغة وجرأته يعدّ بين شعراء لبنان في الطليعة. فإن سعد جِدّه أو لم يسعد، فقد بلغ الدرجة التي يستحقّ معها أن يغشَى المَجالس والمواقف، ويروّض العقول ويؤهّب النفوس ويستميل الرأي إلى ما ينحو، وقد رأيتُه في الحرب حاملاً روحه في كفه ومُسيلاً نفسه في شعره حتى بلغ مكانة ساعدَتْه على نجدة أصفيائه وكَمّ فم الموت عن التهام جياع لولا استنداؤه إعاشتهُم لَطَوَتْهُم الأرض مع من انطوى من الشهداء الخالدين. وقد عرف ان يحفظ نفسه غير مدّخر لغده ضمانة. واذا عِيْبَ عليه بأنه كان ملق اللسان فإننا كلنا نتملَّق ولا رهبة للموت علينا. فكيف هو والمشانق كانت على قيد أذرع منه (...) أحببت الملاط شاعرًا ووثقْتُ بعقله وعرفتُ مكان الشدة والضعف فيه. وكنت ألومه في سرّي على تبِعات كان يحملها من جرأته. لكنني كنت أرى في أقصى مرامي النظر بأنه كان يدسّ في قصائده وخُطَبه شيئًا تتمّ عنه تعابيره الشائقة، فكان كمن يحمل سراجًا في حالك الليل ويقف على رَبْوَة. فمن أحَبّ الاستضاءة، كان عليه اجتياز الشقة المظْلمة إلى الوصول للنور. لكنه كان إذا وقف للمدح يُطرئ، وللرثاء يُبكي، وللهجاء يوجِع ويُدمي. وقد وقف أخيرًا شاعرًا في حفلة قاعدة تمثال اليازجي فأخذ التاريخَ ونسَلَ منه حادثةً خطيرة رَوَاها في شعر فخم لا يصحّ أن يكون في الشعر أبلغ منه وأفصح».

٧) توفيق ضعون ذكرى الهجرة، ص ٤٢٨ سان باولو ١٩٤٧.
هيام ملاَّط: «شبلي ملاَّط شاهدًا – الأدب اللبناني في النصف الأول من القرن العشرين بين أرض الوطن ومهاجر أميركا الجنوبية»، ص ١٠٠–١٠٦، منشورات مركز التراث اللبناني – الجامعة اللبنانية الأميركية، بيروت ٢٠١٨.

تراثُنا بريشتهم

سهيل منيمنة

بيروت الجميلة بالريشة المائية

بيروت الجميلة بالريشة المائية

سهيل منيمنة
مؤسس/رئيس جمعية «تراثنا بيروت»

بعد أيام من وصوله إلى بيروت في ٦ أيلول ١٨٣٢، غادر الشاعر الفرنسي لامارتين (١٧٩٠–١٨٦٩) مكان إقامته المؤقت في حي مار مارون، وارتقى تلة مار متر على أحد مرتفعات منطقة الأشرفية. تأمل المدينة طويلاً، ثم أخرج قلمه ومدوّنته وكتب: «طالما تخيّلتُ في طفولتي الجنّة الأرضيّة، جنّة عدن التي تختزنها الأمم في ذاكرتها، إما حلمًا جميلاً، أو ناموسًا لزمان ومكان في غاية الكمال. تتبَّعت خطى ميلتون (John Milton) في وصفه المبهج سحرَ مكان إقامة أجدادنا الأوائل. غير أن الطبيعة هنا، كما في كل شيء، تفوق الخيال. لم يمنح الله الإنسان القدرة على الحلم بهذا الشكل الجميل الذي صنعه. حلمتُ بجنّة عدن، ويمكنني القول إنني رأيتها [يقصد بيروت]». (رحلة إلى الشرق ١٨٣٢–١٨٣٣، صفحة ٥٤) Voyage en Orient 1832–1833 p 54. Paris.

منظر لبيروت من تلة مار متر في عشرينيات القرن الماضي

لامرتين بالريشة

بعد سبع سنوات قام دبلوماسي بلجيكي فنانٌ هاوٍ وعالم نبات يدعى بنجامين ماري Benjamin Mary (١٧٩٢–١٨٤٦) فنقل باللون كلمات لامارتين الشاعرية في لوحة مائية بانورامية مذهلة في كانون الثاني ١٨٣٩.

ولد سنة ١٧٩٢ في مدينة مونس البلجيكية ودرس القانون في جامعة بروكسل. بعد مسيرة مهنية قصيرة في السياسة الداخلية، عُيِّنَ في تموز ١٨٣٢ أول قائم بالأعمال لدولته إلى البرازيل، فأقام في ريو دي جانيرو خمس سنوات، وقَّع خلالها باسم بلجيكا على معاهدة تجارية أبرمتْها البرازيل مع هولندا سنة ١٨٢٨، ونال استحسان الملك ليوبولد الأول وتنويهًا من الحكومة البرازيلية. وخارج أنشطته المهنية كان يضع رسومًا خاصة بالنباتات. وبعض رسومه محفوظة في مؤسسات عامة بين البرازيل وأوروبا.

سنة ١٨٣٩ تم ترشيحه أول سفير لبلجيكا في اليونان. وبين ١٨٣٩ و١٨٤٥ سافر ورسم في اليونان وألمانيا والجزر الأيونية وسوريا وليبيا وتركيا ومصر والبرتغال وإسبانيا. خلال تلك الفترة، وضع مجموعةً بعنوان «Voyage en Grèce et en Orient fait dans les années 1839 à 1845» يضم ٢١ مشهدًا بانوراميًا، ١١ منها بالقلم الرصاص، و٤ بالبنِّي الداكن و٦ ألوان مائية بينها لوحتان بانوراميتان لبيروت، عرضهما متحف نابو (الهري، شمال لبنان) في معرض «بيروت ١٨٤٠–١٩١٨: صور وخرائط».

المائيتان

وضع ماري تينك المائيتين البانوراميتين في كانون الثاني ١٨٣٩ (سنة ولادة التصوير الفوتوغرافي) وفيهما تفاصيل دقيقة لمبانٍ رئيسة تحيط بها الحدائق والبساتين الجميلة. وأكتفي في هذا النص بقراءة المائية الكبرى.

في قراءة اللوحة من اليسار إلى اليمين يبدو برج الشامية سنتينا ثم برج القلعة البحرية ثم برج تنكز (الشهير آنذاك ببرج البعلبكية) ويبدو جزء من برج المصلّى. كما تبدو مئذنة جامع الأمير منذر خلْف قيسارية الصاغة، وبجانبها مباني محلة الشيخ رسلان ومئذنة الجامع العمري الكبير، فسراي الأمير منصور عساف وباب السراي وجامع السراي (وهو جامع الأمير عساف).

باب السرايا عام ١٨٩٩
للألماني أوبنهايم

على سبيل ماء في ساحة بيروتية للفرنسي آلوا بير سنة ١٨٨٩

وتبدو في اللوحة مزارع منطقة الصيفي: برج أبو هدير (وهو غير برج أبو حيدر في منطقة المصيطبة)، وفي الوسط تبدو المباني المطلة على ساحة البرج (معظمها خانات ومقاهٍ) وصولاً إلى برج الكشاف الشهير، ثم محلة القيراط (ساحة الدباس لاحقًا) وفيها برج زخور وبرج الأمير أسعد الشهابي (لاحقًا برج ناصيف فياض) فخان الكنفاني. وإلى شرق برج الكشاف تبدو مباني «درب النهر» (الجميزة ومحيطها) وفي الأعلى مزارع وبيوت منطقة الأشرفية.

في الجزء السفلي للَّوحة وباللون الأَبيض يبدو الجزء الجنوبي من سور بيروت، وفي منتصفه باب الدركه ومحلة الدركه. وفي الجزء الأيمن من اللوحة تبدو منطقة رأس النبع وفي طرفها الشمالي محلة الدحداح التي فيها برج دندن وبرج دعبول، وفي الجزء السفلي تبدو شواهد قبور مقبرة الباشورة.

السُور

كان يحيط بيروتَ القديمة (كمعظم مدن الشرق) سور منيع لحمايتها من هجمات الأعداء. رجّح المؤرخون وعلماء الآثار بناءَه زمنَ الكنعانيين والحثّيين. وورد أوّل ذكر له في رسائل تل العمارنة الأثريّة عبر طلب تقدّم به حاكم بيروت فترتئذٍ من فرعون مصر السماح له بتحصين المدينة بسور وحصون. وتعاقب الغزاة على بيروت واختلفت الخطط العسكرية حول السور: البعض اهتمّ ببنيانه وتحصينه كالعرب والصليبيين والمماليك، ومال البعض الآخر إلى الاستغناء عنه كالرومان والبيزنطينيين والأيّوبيّين. لكن التاريخ يسجّل لأحمد البوشناقي (المشهور بأحمد باشا الجزّار) أمره بالبنيان الأشهر لسور بيروت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

عُرفت بيروت قديمًا بالمدينة المربّعة، وأحاطها السور من جهاتها الشرقيّة والجنوبيّة والغربيّة فيما كان البحر حدّها الشمالي. ولسورها أربعة أبواب: الدركه، السراي (المصلّى)، الدباغة، السنطيّة، أضيفت إليها لاحقًا ثلاثة أبواب: يعقوب، إدريس، أبو النصر، وأضيف باب السلسلة من الناحية البحريّة لكنه غير متّصل بالسور بل ببرج السلسلة.

هُدم السور نهائيًّا عام ١٨٤٠، وسُمح للسكان بالتمدّد خارج بيروت المربّعة فلم يبقَ من سورها إلّا بضع قطع متناثرةٍ تلاصقت مع العمارة وضاعت وسط الانتشار العمراني أواخر القَرن التاسع عشر. لكنّها تركت أسماءها مكانها، كساحة «عَ السُور» (رياض الصلح)، وباب الدركه، وباب إدريس، ثمّ عادت فظهرت أوائل القرن العشرين مع التخطيط الحديث للمدينة، وشق طرقات جديدة باشرت بها بلديّة بيروت إبان حكم العثمانيّين، وأكملته إبان سلطة الانتداب الفرنسي، ووثّق مصوّرون فترتئذ هذه الأماكن، كأبواب الدركه ويعقوب والسراي، وبدت جوانب من السور في محلّتي الدبّاغة والسراي. وكان السور ذا عدّة أشكال بحسب تخطيطات بناته، لكن الثابتَ ارتفاعُه حتى خمسة أمتار، يبدأ بأربعة أمتار عند قاعدته لينتهي إلى نحو الثلاثة عند قمّته. وفي الإحداثيات المعاصرة كان السور يبدأ من جانب نفق الإسكْوَى في ساحة رياض الصلح، ويتّجه شرقًا ملاصقًا المباني باتجاه كاتدرائيّة مار جرجس المارونية، لينعطف بينها وبين مسجد خاتم الأنبياء محمّد الأمين منحدرًا شمالاً مارًا في الباحة الأثرية بمحاذاة ضريح الرئيس الشهيد رفيق الحريري، حتى يصل إلى الجانب الغربي من مبنى جريدة «النهار»، وينحدر نحو البحر مع انعطافة صغيرة عند التل الأثري حيث كانت القلعة. وكانت الجهة الغربية تمتد من نفَق الإسكْوى مرورًا بالشارع أسفل السراي الكبير، فالجدار الشرقي للكنيسة الكبوشيّة (لم تكن داخل السور) ثم ينحدر باتّجاه الحدود الغربيّة لأسواق بيروت، مارًّا بشارع البطريرك الحويّك، فجامع المجيديّة، وينتهي عند البحر.

سور بيروت في لوحة للفرنسي بلانشار

الأبـواب

كان لسور بيروت عدد من الأبواب اختلف المؤرخون في تعدادها بين خمسة وسبعة. وعن المؤرخ عبد اللطيف فاخوري: «ينبغي التنويه بما عُرفت به بيروت لدى السّياح الأجانب بأنها «المدينة المربّعة»، ما يبرّر رأينا أن الأبواب القديمة لم تكن تزيد عن أربعة، فحماية المدينة والدفاع عنها يفرضان التقليل من المنافذ/الأبواب ... والأبواب القديمة كانت شرقًا باب السراي، الباب الموصل إلى سراي الحاكم مباشرة، قِبلةً باب الدركه عند رأس شارع المعرض، غربًا باب السنطية باتّجاه مقبرة السنطية ومنطقة رأس بيروت. والباب الرابع باب الدباغة عند الشمال الشرقي لجهة المرفأ. يؤيد هذا الرأي أنَّ دومنيل دو بويسون لم يشر إلى أي استحكامات خاصة إلا لأبواب السراي والدركه والدباغة، أما أبواب يعقوب وأبو النصر وإدريس فلا تتمتع بأي تحصينات دفاعية، ما يعني أنها حديثة العهد».

وفي رسم توضيحي، اعتمادًا على خريطة مسح لبيروت داخل سورها وضعتْه البحرية الملكية البريطانية سنة ١٨٣١، إشارة إلى سبعة أبواب: باب السلسلة وباب الدباغة وباب السراي وباب الدركه وباب يعقوب وباب ادريس وباب أبو النصر. وتكرر هذا العدد في كتابات أكثر المصنفات الأجنبية والمحلية.

كانت الأبواب تُقفل عند مغيب الشمس فيُنارُ المصباح المعلّق إلى جانب كل واحد منها. ثم تُعطى مفاتيح الأبواب إلى متسلّم بيروت يحفظها عنده حتى الصباح. وكانت القوافل الواصلة ليلاً إلى بيروت تبقى خارج المدينة حتى يُفتح الباب في الصباح. وحده باب الدركه يبقى مفتوحًا حتى الواحدة بعد منتصف الليل.

الأبراج

في كتابه FiftyThree Years in Syria نقل المبشّر الأمريكي Henry Harris Jessup (المتوفى سنة ١٩١٠، وكان أحد مؤسّسي الكلية السورية

البروتستانتية – الجامعة الأميركية لاحقًا) ما كتبه مواطنه المبشر Fisk في وصف سور بيروت سنة ١٨٢٣: «كان محيطًا بالبلدة يرتفع صوب البحر، فيه أبراج وتحصينات لصدّ القراصنة من اليونان. وأقيم برج في ظاهر السور على مسافة قصيرة من الباب الجنوبي الشرقي لصدّ أي اقتحام برّيٍّ للبلدة، وكان هذا البرج متينًا عاليًا يبلغ ارتفاعه ٨٠ قدمًا». وعن رحالة روسي زار بيروت سنة ١٨٤٤ أنْ كان لسور المدينة المتهدّم عشرة أبراج أطلقت عليها أسماء الحصون والقلاع المشهورة.

زيتية للفرنسي جول كوانييه مؤرخة ١٨٤٤ يبدو فيها بعض الأبراج البيروتية
من محفوظات متحف المتروبوليتان في نيو يورك

كان الرحّالة الأجانب يتحدثون عن بعض أبراج بيروت العسكرية، في استعمالهم كلمة «برج»، مع أن في بيروت أبراجًا مدنية ارتبطت أسماؤها بأسماء العائلات البيروتية: برج دندن وبرج سعادة وبرج العيتاني وغيرها. والفرق بينها وبين الأبراج العسكرية أنها كانت أقرب إلى بيوت ذات عدة طبقات، بُنِيَ أكثرها في مزارع وبساتين خارج السور على نظام العقد، واستعملت منازل صيفية هربًا من حر المدينة، فيتركها أصحابها عائدين داخل السور عند الشعور بأي خطر.

كانت الأبراج العسكرية، داخل السور أو خارجه، محصّنة تتواصل مع أبراج باقي الأقاليم بإشعال النيران في أعلاها ليلاً، أو بإطلاق أعمدة الدخان نهارًا. أشهرها برج الكشاف والبرج الكبير وبرج السلسلة. وكان في أغلبها عدد من المدافع وأكياس من القنابل المخروطية والعادية وبراميل بارود وبريمات ومغاليق حربية. أما الأبراج المدنية فكانت في معظمها بيوتًا من طبقتين وفق نظام العقد في البساتين والمزارع وسُمّيت بأسماء العائلات البيروتية التي بَنَتْها أَو استملكتْها.

الخانات

استعمل الفرس والمغول والأتراك والمماليك كلمة «خان» للدلالة على الأمبراطور أو السلطان، فتضاف إلى اسم الحاكم. ثم أصبحت الكلمة تعني مجموعة حوانيت، وأطلقت في العهدين المملوكي والعثماني على المركز التجاري أو السوق، ثم على الفنادق، وشاعت اللفظة بين العرب.

الخان لفظة فارسية تعني المنزل أو مكان مبيت المسافرين وقوافل التجار، ويمكن اعتبارها فنادق العصور القديمة. عرفت بيروت قديمًا خانات تركّز معظمها في منطقة المرفأ والأسواق القديمة وساحة البرج، أكثرها تمّ تشييده خلال فترة حكم الدولة العثمانية لوقوعها على الطرق التجارية وكونها محطة لقوافل الحج الوافدة من الشمال إلى الديار المقدسة في فلسطين أو الحجاز. كثُر إنشاء الخانات في بيروت قرب مرفإها لإقامة التجار الوافدين إليها بحرًا فانتشرت في أنحاء المدينة داخل وخارج سورها وقرب مداخلها عند أبوابها. وكانت وظيفة الخان في المدينة استقبال التجار بشكلٍ عام، من باعة الجُملة ومُروّجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء. وفي هذا المكان كان يتمّ البيع والشّراء، كأنّ المكان لم يعد لإيواء المُسافرين بل لاستقبالهم ريثما يُتمّمون تجارتهم.

ساحة البرج في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعدسة الفرنسي شارلييه - مجموعة السيد بدر الحاج

كان في بيروت قديمًا نحو ٣٠ خانًا اشتهر أغلبها بأسماء مالكيها (خان طاسو وخان رمضان وخان أنطون بك...) أو بأسماء نوع البضائع

التي تخزَّن أو تباع فيها (خان البارود وخان المزيكة وخان الصاغة...)، أو باسم المحلة التي تقع فيها (مثل خان الدباغة وخان الصيفي،...). وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت الوكالات التجارية بِاسم عائلات امتهنت التجارة (بسترس وسرسق وأياس وثابت وشقال والأحدب ودمشقية ومنيمنة وغيرها) تتمركز كلّها وتنمو حول الخانات الكبرى في المدينة. وهدمت تلك الخانات البيروتية بعد الحرب العالمية الأولى، أو أقيمت فوقها مبانٍ، وخاصة دور سينما في ساحة البرج، ولم يبق لها أي أثر اليوم.

خان الملاحة في منطقة المرفأ بعدسة الفرنسي بونفيس،
تلوين المهندس مازن المر لجمعية تراثنا بيروت

الساحات

لأن بيروت القديمة مدينة صغيرة محاطة بسورٍ زمنَ رسم اللوحة، لم تكن فيها مساحات لساحات عامة سوى اثنتين صغيرتين: أُولى بجوار سراي الأمير منصور عساف، وأخرى صغيرة غربي الجامع العمري عُرفَت بساحة الشهداء نسبة لشهداء الحروب الصليبية وهي غير ساحة البرج أو ساحة الشهداء منذ ١٩١٦ حتى اليوم. أما الساحات الأكثر اتّساعًا فكانت خارج أسوار المدينة، وأشهرها: ساحة المصلّى وساحة البرج وساحة السور. فماذا عنها؟

١. ساحة المصلّى: أو ساحة باب السراي، يحدّها من الغرب سراي الحكومة القديمة ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلة المدور، ومن الجنوب خان الوحوش والقسم الشمالي من ساحة البرج.

٢. **ساحة البرج:** نسبة إلى برج كبير قديم كان إلى شمالها. وينسب كثيرون التسمية إلى برج الكشاف الظاهر في اللوحة، وهذا خطأ يجب تصحيحه. سُمّيَت لاحقًا ساحة المدافع نسبة إلى المدافع الروسية التي تمّ تسليمها إلى الأسطول الروسي سنة ١٧٧٣ أثناء حملة إخراج الجزار من بيروت وقامت بقصف سور المدينة الشرقي. وعن بعض الباحثين أن سبب التسمية يعود إلى المدافع الفرنسية التي أُنزلت فيها سنة ١٨٦٠ خلال أحداث تلك السنة. لكن الاحتمال الأول أكثر توثيقًا. ولاحقًا أُطلقت على الساحة وحديقتها عدة أسماء: ساحة البرج وساحة الحميدية وساحة الحرية وساحة الاتحاد وأخيرًا ساحة الشهداء ولا تزال تحمل هذا الإسم إلى يومنا هذا.

٣. **ساحة السور** (ساحة عَ السُور): بين بابَي الدركه ويعقوب وسميت هكذا لملاصقتها سور المدينة مباشرة. وأيام رسم هذه اللوحة كانت فسحة متسعة يقصدها الناس للتنزه واحتفالات الأعياد، وبقيت هكذا حتى ١٨٦٠ حيث مدت في جانبها الشمالي طريق العجلات وعلى جانبها الجنوبي المخازن والدكاكين ثم طرأت عليها تغييرات.

الأشجار والزهور

يبدو من قراءة اللوحة أن الفنان عالم نبات: من شجرة الجمّيز وشجيرات الصبّار إلى اليسار، وصولاً إلى أشجار الزنزلخت (أزدرخت) وأشجار السرو الجميلة، وما كان رسام آخر يوضح تفاصيل هذه الأشجار والشجيرات والأزهار كما فعل ماري. كان أهل بيروت على صلة وثيقة بأشجارهم وأزهارهم ومنتجاتهم الزراعية. وحين رسم ماري هذه التحفة الفنية، كانت مناطق المدينة خارج الجدار مزارع: مزرعة الأشرفية ومزرعة المصيطبة ومزرعة رأس بيروت ومزرعة الصيفي، وغيرها. تم تقسيم تلك المناطق حدائقَ وبساتين وكرومًا وجلولاً وبساتين. وكانت هذه تحوي أنواعًا مختلفة من أشجار الفاكهة كالبرتقال والرمّان والتّوت والأكي دنيا (أسكيديا). وزينَت شجيرات الزهور الجدران الخارجية للمنازل، وأقيمت حول النوافير (البِرَك) وسْط الفناء، وخاصة الياسمين والبنفسج والنرجس والزنبق والورد.

أشجار المقسيس وشجيرات الصبار في منطقة جرن الدب (شارع الحمراء لاحقًا) نهاية القرن التاسع عشر

سمّى البيارتة أحياءهم وحاراتهم نسبة إلى الشجر، فعُرِفَ كل حي بهذا الاسم: أحياء الجميزة والزيتونة والخروبة والتينة والصنوبرة. وبعض هذه الأسماء لا تزال حتى اليوم.

محفوظاتنا التراثية

سليم حيدر: التعمير من الأساس يبدأ بالمدرسة

سليم حيدر:
التعمير من الأساس يبدأ بالمدرسة

مساء الاثنين ١٧ كانون الثاني ١٩٤٩، استقبل منبر «الندوة اللبنانية» الشاعر سليم حيدر (يومَها وزير لبنان المفوَّض في إيران) ألقى محاضرته «التعمير من الأساس» حلقةً من سلسلة محاضرات «تعمير البيت اللبناني».

وكان سليم حيدر (١٩١١–١٩٨٠) من أَبرز الأعلام اللبنانيين، سفيرًا ونائبًا ووزيرًا، وناشطًا فكريًّا وأَدبيًّا وشعريًّا.

لأَهمية تلك المحاضرة والدور الوطني الذي كان لسليم حيدر في جوهر التراث اللبناني، تُعيد «مرايا التراث» نشْرها لِما فيها من رؤْية وطنية استشرافية.

في مفهوم لبنان

الدكتور سليم حيدر
١٩١١ - ١٩٨٠

التعمير من الأساس؟ من أيّ أساس؟ من أساس البيت اللبناني. أيكون البيت اللبناني متداعيًا ينذر بالخراب كي نفكر بتعميره؟

الموضوع، كما هو، أشدُّ خطرًا. إنّه يفترض البيت اللبناني أرضًا بكرًا، ويرمي إلى تعميره من الأساس، أي إلى وضع أسسه.

أفيكون لبنان قاعًا صفصفًا؟

سؤال يتحتّم الجواب عليه أولاً، ولا مفرّ من ذلك.

هذه الأرض التي ذُكِرت في التوراة عشرات المرات، مثالٌ للعمران. وعمرانُها أقدَم من التوراة.

وهذا المليون الذي انفلق مليونَين كما تنفلق الخليَّة، عمَّرَت بالواحد أرض الاباء، وعمَّرت بالآخَر الارض إطلاقًا.

وهذا الكيان الذي تربّع في جامعة الدول العربية، وفي منظمة الأمم المتحدة، وارتفع له في أهمّ عَواصم الدنيا علَمٌ خفّاق، ومثّله فيها الوزراء المفوّضون والقناصل، ونطق باسمه مندوبون في معظم المؤتمرات الدولية، والذي احتضن بالأمس القريب أكبر مؤسّسة ثقافية في العالم[1] ترأَّسها بكلّ جدارة، وساهم في أعمالها مساهمةً فعّالة، مثيرًا الإعجاب الاجماعي.

أتكون هذه الأرض خواء؟ أيكون هذا المليون هملاً؟ أيكون هذا الكيان وهمًا؟ أيكون البيت اللبناني آخرَ الأمر لا وجود له؟

تلك أسئلة لا تحتاج إلى جواب. بل لا تستحقُّ الجواب. والحقّ على الموضوع: التعمير من الأساس، فتعالوا نعمّر الموضوع من أساسه. الحقّ على المَجاز، على الاستعارة، على الكناية، على جميع هذه الضروب الكلامية التي نلجأ إليها، نحن الشعراء، لنذُرَّ على الحقيقة المؤلمة رشاشًا من الوهم، لذة الحياة.

في التعمير من الأساس

ما بال علماء الاجتماع يتَّبعون خطانا؟

ما بالهم لا يخترعون لعلْمهم ألفاظًا جديدة لا تستعير ولا تكنّي؟

إنّهم يطرقون الواقع من باب الخيال. يريدون أن يكونوا بنّائين في المجتمع فيستعيرون اصطلاحات العمارة، وهي لا تنطبق الا عليها. فلكلّ بناءٍ أساسٌ يقوم عليه، ولا يكون التعمير من الأساس إلاّ إذا هدمنا البناء. فهل أنتم مستعدّون؟

لا... لا إخالكُم.

لذة التعمير الاجتماعي أنْ لا معول فيه. نحن أتينا نهدم بالكلام ونبني بالكلام. لا تخافوا. ولكنَّ الكلام مقدّس، وهنا كلّ الخطر. فالتوراة كلام، والإنجيل كلام، والقرآن كلام... والحرب أولها كلام.

إذَن نحن في معركة كلامية، سينتج عنها لخير لبنان معارك في الآراء، إلى أن نتفاهم على القصد ونمشي جميعًا موحَّدين إلى تعمير البيت اللبناني من أساسه. وهذه المرة لا لعب على الألفاظ.

---

١) يقصد المؤتمر الثالث لمنظمة اليونسكو، وهو انعقد في بيروت بين ١٧ تشرين الثاني و١١ كانون الاول ١٩٤٨، وكان ذلك لأول مرة خارج مقره الرئيس في باريس.

لماذا العجَلة لا تمشي؟

مَمَّ نشكو في لبنان؟ سأقيم الدعوى أمامكم، باسطًا جميع الوقائع دون تحيُّز. فأنا قاضٍ سابق.

نظرةً إلى الصحف، وأُذُنًا في المجتمعات، واستفتاءً للحاكم ولرجل الفكر ولرجل الشارع: القولُ واحد وإن اختلفت الأصوات والنبرات. العجلة لا تمشي.

«العجلة لا تمشي». هذا يقول من الدواليب، ذاك يشكو من الصندوق، هاذاك يشكّك في الخيل وذلك يتّهم السائق: «العجلة لا تمشي». وينظُر الخبير إلى العجلة فيرى أنّ دواليبها سالمة وأن صندوقها متين. ثمّ يتطلع إلى السائق فيراه، والعرق يتصبّب من جبينه، يحاول ضمّ يمناه إلى يسراه فلا يُفلح.

وترتفع الأصوات: «غيِّروا السائق. بدِّلوا السائق». ويتغيّر السائق، ويتوالى السائقون، والعجلة لا تمشي إلاَّ وثْباتٍ متقطِّعة، بثقلٍ وعناء. فالخيل تشد إلى جهات مختلفة. تعالوا إذن نربّي الخيل.

إنّها خيول أصيلة، مطهَّمة، يقدَح من سنابكها الشرر. ولكنّها تتسابق في غير نظام، ولا تَسير باتّجاه واحد.

تعالوا نربّي الخيل. فلن يَصْلح لبنان ما لم يَصْلح الشعب اللبناني.

ستثور ثائرتكم. ستقولون إنّي رفعت التبِعَة عن السائق لأنّي من وكلائه. لا. خاب ظنّكم. لم أرفع التبعة عنه، بل سألقيها عليه. فهو منا، وعليه، إضافةً إلى تَبِعَتنا، نحن الخيل، تَبِعَة السائق. ولكنه منا، يجب ألاّ ننسى هذا الأمر.

لنتركِ المجاز. كفانا شعرًا. ولنجابِه الأمور بكلّ صراحة.

أساس الشكوى

نحن في لبنان نشكو داخليًّا من قانون الانتخاب، ومن التوظيف شكلاً وأساسًا، ومن إهمال العمران في بعض المناطق، ومن اضطراب الأَمن، ومن ضغْط الشارع، ومن فوضى إدارية ومالية وما إلى ذلك، ومن فقدان الثقة. ونشكو خارجيًّا من بعض المجازفة في سياستنا، ومن الارتجال وعدم الاستقرار.

أقول نشكو، وليست كلّ شكوى مسموعةً حتمًا بعد التحقيق. هذا بالإجمال.

أمّا التفصيل فاعفوني من ذكْره، عفاكم اللّه:

أولاً: لأنّه في مضمون الإجمال، فذِكْره كإغفالِه، لا يؤثّر في جوهر البحث.

ثانيًا: لأنّ الخير كلّ الخير في كتمانه لصالح الشعب، فمتى دخلَت الشكاوى في باب التفاصيل دخلَت في حيّز المنافع الشخصية.

ثالثًا: لأنّه رُوِيَ عن أَكّار لبناني أنّه كان يسُوق حماره محمَّلاً مِلحًا، فأمطرتْه السماء وابلاً، فسَبَّ دين الحكومة.

اللبناني طَموح إلى الكمال، لا يرضيه شيء.

إذن لنقتصرْ على ما قدَّمنا من التُهم، مجْمَلَةً دون تفصيل، فإن فيها الكفاية.

إنّ هذه التُهَم قذائفُ ثقيلةٌ تدكّ بناء الوطن دكًّا حتى الأَساس، وتوجِب تعميره من الأَساس. هكذا نعقد الهدنة مع الموضوع الذي أَثرْنا عليه حملة شعواء باسم المجاز والاستعارة والكناية.

لا أقول إنّ جميع هذه الشكاوى مسموعةٌ بالنتيجة، بل أصارحكم أنّ فيها كثيرًا من المغالاة. على أنّ ذلك لا يمنع أنّها تُهَمٌ خطيرة، وأنّ فيها كثيرًا من الصواب. فالعجلة لا تمشي أيًّا كان السائق، بل تثب وثباتٍ متقطعةً بثقْل وعناء، لأنّ الخيل تشدّ بها إلى جهات مختلفة.

الأساس الأول: المدرسة وتعميرها

لا بدّ من خرق الهدنة مع الموضوع: التعمير من الأساس. فهمْنا ما نقصد بالتعمير، فما تُرى نقصد بالأَساس؟

إنّه المدرسة: معمل الرجال. مدرسة البيت، ومدرسة الدراسة، ومدرسة الحياة.

البيت والحياة لهما أهمّية كبيرة. لكنّي سأقصر بحثي على الأَهمّ، على المدرسة، مربِّية آباء المستقبل وأمهاته، الذين يربون أبناءهم حقبة من الزمن في البيت ثم يسلِّمونهم إلى المدرسة فتخْرجهم إلى جامعة الحياة.

وإذا كان الأَساس هو المدرسة، فالموضوع أصبح: تعمير المدرسة.

هدنة ثانية مع الموضوع، هدنة إلى حين.

لولا خشية القول «ما دخلَت السياسة شيئًا إلاَّ أفسدَتْه»، لأسميتُ موضوعي «في سياسة المدرسة».

إنّ للكلمات حياةً لا تختلف عن حياة الأشخاص إلاَّ بأنّها أوفر ذخرًا وأطول عمرًا. إنّها تولَد وتعيش وتموت. وهي كالبشر: تولد شرعًا أو

سِفاحًا، وتعيش هادئة أو قلقة. ولعلّ ما يميّز الكلمة من الإنسان - وهو كلمة اللّه- أنّه إذا مات فلن يُبعَث إلاّ يوم الحشر في زحمة الخليقة المنشورة بكاملها، بينما تُبعَث الكلمة بعد موتها فتتقمّص معنىً جديدًا.

الكلمة إناء يَصطبغ بلون ما فيه. والسياسة كلمة اصطبغَت في لبنان بلون ما وضعنا فيها من مغالطات، من تحازب في كلّ شيء، ودسيسةٍ على كلّ أمر، وكيفيةٍ في كلّ إتّجاه، بوحي من أنانيتنا، أنانية شعب يكاد كلّ فرد فيه أن يكون عبقريًّا، وتُخْفق فيه معظم الأعمال الاجتماعية.

لذلك أُشفق على المدرسة، التي نودّها خالصة من كلّ شائبة، أن تُقَرن بالسياسة التي ألصقنا بها، خَطَأً، جميع الشوائب.

أما إذا قلبنا إناء السياسة على فمه فأُفرغ منه كلّ ما كان أُفْرغ فيه وعادت الكلمة إلى معدنها، فهي من فعل «ساس»، أي رعى وتَدبَّر وقاد إلى هدف. وليس منكم من يشك في أنّ المدرسة، هنا أو في أيّ بلد آخر، اليوم أو في أيّ زمان، تحتاج إلى رعايةٍ وتدبيرٍ وقيادةٍ إلى هدف.

بعد هذا، لم يعُد من حرَج أن ندعو الأشياء بأسمائها فيكونَ الموضوع «في سياسة المدرسة». هل تكون الهدنة نهائية هذه المرّة؟

قد تتساءلون: ما الفائدة من هذا الدوَران حول الموضوع؟ لكُم حقّ السؤال ولي حقّ الجواب؛ ولا إخال الموضوع إلاّ رابحًا. ذلك أنّني لن أُنصّب نفسي هنا مربّيًا، بمعنى الكلمة العلمي، فأحاضر عن المدرسة من حيث برنامجها وتنظيمها، وتفاعُل هذين في مطابقة مقتضى الحال، من موافقة مواد الدراسة لعقلية التلميذ حسب سنّه واستعداده، وتوزيع هذه المواد على سنيّ الدراسة، وعدد الصفوف في كلّ حلقة، والتلاميذ في كلّ صف، وما إلى ذلك من مشاكل التعليم والتربية الخالصة. ولجميع هذه الأمور أرباب أكفأ مني لأنّهم محترفون. إنّهم المعلّمون، جسورُ الأجيال.

منبر «الندوة»

بعد هذه المقدمة التي طالت، أمهّد لموضوعي بكلمة عن هذه «الندوة».

على منبرها تتعالى جميع الأصوات بنبراتها الأصيلة، حتى لكأنّ نشْرتها الدورية، في جوهر ما تزف إلى القارئ، منتخباتٌ من أروع ما يُنشَر في لبنان. إنّها «الندوة اللبنانية» بأَلِف التعريف. ونحن الباحثين في تعمير البيت اللبناني، نحن الآن إذَن في جوّنا الملائم.

لن أعود إلى ما قبل التاريخ ولا إلى الماضي البعيد. إذا كان في مطلع كلّ بحثٍ جدّي لا بد من التفاتةٍ إلى الوراء، فالماضي القريب مسرح اختبار

على منبر «الندوة اللبنانية»

خصيب. على أني لا أكتم جهلي معظم الشيء عن حال المدرسة اللبنانية في عهد الفينيقيين والرومان واليونان والكلدانيين والبيزنطيين والحثّيين وغيرهم، ممّن عبَروا في لبنان فغَبروا، وبقي هو، وبقي فيه على أرضه وفي نفوس أبنائه شيءٌ من عبقرياتهم.

أمّا الماضي القريب فظلامٌ يخيِّم على الأقطار العربية إبان العهد العثماني، حتى كادت الغربية أن تَتَتَرَّك لولا قبس كان يشع من تحت سنديانةٍ في لبنان.

ويوم شبّت الثورة الفرنسية تُملي على العالم حقوق الانسان سنة ١٧٨٩، فُتحَت في «عين ورقة» (غوسطا كسروان) كبرى مدارس لبنان. لغاتُها: العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وموادُّ تدريسها: اللغات والمنطق والفلسفة والتاريخ والأدب وعلوم ذلك الوقت. ومن تلاميذها المعلِّم بطرس البستاني صاحب «محيط المحيط»، وأحمد فارس الشدياق. ولن أزيد حرفًا واحدًا.

مدارسُهم ومدارسُنا

ابتداءً من الثلث الثاني للقرن التاسع عشر، زحفَت الإرساليات الأجنبية إلى لبنان: الآباء اليسوعيون، إخوة المدارس المسيحية، الآباء اللعازاريون، راهبات المحبة، العلمانية الفرنسية، الجامعة الأميركية،... أذكر هؤلاء ولا أعلم، ولا يهم هذا البحث أن أعلم، تواريخ وصولهم بالتسلسل، كما أن عدّهم ليس بوجه الحصر.

عاشت مدارسهم وازدهرت، ولا تزال عائشة مزدهرة.

وفُتحت المدارسُ الوطنية الخاصةُ: الحكمة، البطريركية، المقاصد الاسلامية، الداودية، الجامعة الوطنية في عاليه، وسواها... لا تهمّنا التواريخ هنا أيضًا وليس العدّ بوجه الحصر.

جميع هذه المدارس، الوطنية والأجنبية، هي معامل العلْم في لبنان. وأود، وأنا أمرّ بها، أن أرسل لها تحية مخْلصة، مخْلصة لها ولموضوعنا الآن. فكم أنكر فضلَها من حمَل عليها، وكم غالى بفضلها من تحزَّب لها. والواقع أنّ كلّ مدرسة كالتي ذكرْت، من حيث العلْم، نبراس ساطع. ولكننا نبحث هنا أكثر من العلم المجرّد. نريد أن تمشي العجلة.

ها نحن أولاء في لبنان، تلاميذ هذه المدارس. والعجلة لا تمشي لأنّنا مختلفون في إلى أين المسير.

إن اختلاف الاتّجاه، في صفوف الأمم الراقية (أعني الاختلاف على الوسائل مع الاتفاق على الغاية) معضلة من أَعقد المعضلات، وتهدّد بالانهيار أحيانًا. فكيف يكون الاختلاف على الغاية؟

هذه الدعوى التي أقيمها أمام محكمة الرأي العام، ليست ادّعاءً مباشرًا، كما يقول زملائي السابقون قضاةُ النيابة العامة. إنّني قمت بتحقيق – وأنا محقّق سابق – لدى المربّين ولدى رجال الفكر ولدى العامة.

سلبيتان وإيجابية

لن أذكر هوية المستَجْوَبين ولا الإفادات واحدة واحدة؛ فلا فائدة من الأمر بل فيه ضرر. لكني سأُجمل، محافظًا على الجوهر: نحن في لبنان فئاتٌ ثلاث: سلبيَّتان وإيجابية.

السلبية الأولى: لبنان بلد واسع على صغر مساحته، أوسع ممّا يجب أن يكون. ينبغي أن تُبْتَرَ منه أجزاء لنتخلّص من سكانها فيعود وطنًا صغيرًا لقوم معيَّنين يعيشون فيه منكمشين على أَنفسهم، ينظرون إلى الأفق على تماوج البحر. وهذه سلبية انعزالية انكماشية.

السلبية الثانية: لبنان بلد صغير. صادراته لا تُوازن وارداته. فلا زراعة فيه ولا صناعة ولا إنتاج. إنّه جزء من كلّ. لا يستطيع أن يعيش بكيانه الحالي. يجب أن يذوب الجزء في الكلّ، على وهج الصحراء. وهذه سلبية اندماجية مفرطة.

الإيجابية هي أن لبنان، بحدوده الحاضرة، كيانٌ حقيقي، يمكن أن يعيش ويجب أن يعيش. والايجابيات عمومًا تستند إلى التاريخ والدين واللغة والتربية، إلى جميع عناصر القومية، تقرّرها كما تشاء، وتفسّرها

كما تشاء. والدين يلعب دوره المهم في تقسيم هذه الفئات. على أن من الانصاف القول إن الفئة السلبية الاندماجية فيها من الطائفتين، والفئة الإيجابية مزيج متوازن منهما. إذَن فالدين ليس وحده هو السبب.

الفئتان السلبيتان، الانكماشية والاندماجية، تعتنقان حرية التعليم المطلقة وتناضلان من أجلها. والفئة الإيجابية ترى التوجيه في سياسة المدرسة. وكلّ ذلك طبيعي. أن تكون في لبنان فئة تريد بتْر قسم منه لتستقل بالآخَر، ذلك طبيعي. وأن تكون في لبنان فئة تُنكر وجوده، فذلك أيضًا طبيعي. وطبيعي أن تتشبّث كلّ منهما بحرية التعليم المطلقة لتزرع مبادئها في نفوس التلاميذ الطريئة. بقي عليّ أن أقرّر حقيقةَ أنّ الفئة الإيجابية هي الأكثر عددًا والأقوى عددًا، وذلك أيضًا طبيعي.

ماذا يجب أن نعمل لنحافظ على الجميع فنعيد إلى الحظيرة مَن اعتقدوا، واعين أو مأخوذين، بوجوب تركها؟ نحن لا نريد أن نفقد من لبنان لبنانيًا واحدًا، نحن الإيجابيين. علينا أن نتفق على ما نحن فيه مختلفون. ولكي تمشي العجلة يجب أن نختطَّ لها هدفًا معلومًا تسير إليه، وأن ندرِّب الخيول على السير معًا في اتّجاه واحد.

مفهوم الفرادة: لبنان التاج

ما هو الهدف، وكيف ندرّب الخيول؟ الهدف: لبنان الذي يجب أن نتّفق على مفهومه.

لبنان رقعة من الأرض على شاطىء المتوسط في قلب الشرق الادنى. تعاقبت عليه المدنيّات الفينيقية والرومانية واليونانية والبيزنطية والحثّية والمصرية القديمة والعربية، وتركت ما كوَّن تراثَه القائم، تراثًا زاخرًا ممتازًا، والصفتان معنيّتان بكلّ ما فيهما من قوة.

لغته العربية وهو من أركان نهضتها. مركزه في قلب البلدان العربية، وتشدّه إلى هذه البلدان صِلَة الأُخوّة وصِلَة الجوار وصِلَة التاريخ ووحدة المصالح والوحدة الجغرافية قبل كلّ شيء. على أنه منذ القدَم كان محافظًا على ذاته، وعلى ميزاته الخاصة، وعلى استقلاله الروحي. أمور يجب ألاَّ ننساها لأنّها كيان لبنان: إنّه همزة الوصل بين الشرق والغرب.

لبنان بلد عربي، لا شك في ذلك، جغرافيًّا واقتصاديًّا ولغةً وشعورًا بذاته. أما العِرَق فليس في الكون أمَّة خالصة. على أنّ أخلص ما في نَسَب لبنان، في نسَب القسم الأكبر من أهله، مسيحيين ومسلمين، هي العروبة. ذلك أن صفة العروبة تربطه بالبلاد العربية كما تربطه بتركيا، مثلاً، صفة

الشرقية. ولو لم يغالِ الاندماجيون بالقول إن هذا الجزء من الكلّ يجب أن يذوب في الكلّ، لَما غالى الانكماشيون بالقول إنّهم من غير نسَب. فالتَفَيْنُق ردُّ فعْل في لبنان، ليس إلاَّ. أمّا الإيجابيون، وهم الكثرة الساحقة، فيعرفون أن لبنان بلد عربي، ولا يفرّطون بشبرٍ واحد من كيانه الحاضر. ليست العروبة هي الوحدة. ولبنان ليس عربيًّا وحسب، بل هو تاج العروبة. إنّه التاج. أليس التاج صغيرًا، ثمينًا، منمنمًا، متألّقًا، ينبوع وإشعاع؟

لكن لبنان أكثر من بلد عربي. إنّه بلد إنساني، بلد الفكر والروح، بلد التساهل، بلد الإخاء. منذ القرن الثاني والعشرين قبل ميلاد السيد المسيح، ولبنان يدرّس اللغات الأجنبية، ويتلقّف ثقافات العالم، لتشعَّ منه مبلْوَرةً صافية. إنّه نافذة على البحر. وبصفتيه العربية والإنسانية دخل جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة. فاشتراكنا في هاتين المنظَّمتين إعلان عن واقع.

لبنان إذَن بلد عربي إنساني. وكما لا تشكِّل الإنسانية خطرًا على استقلاله، كذلك لا تشكّل العروبة خطرًا على استقلاله. إنّه همزة الوصل بين الشرق والغرب، لكنّه هو ذاتُه قبل كلّ شيء. تلك حقائق وليست أفكارًا أبشّر بها من عنديّاتي. هذا مفهوم لبنان. إنّه الواقع. والميثاق اللبناني هو الواقع اللبناني. هذا هو الهدف.

مدرسة مثلّثة الأنواع

بقي تحقيق هذا الهدف: تدريبُ الخيول على السير بالعجلة في اتّجاه واحد. فأين ندرّبها؟ أين نربّي اللبناني؟

أين؟ في المدرسة اللبنانية.

وهنا يجب أن نقف قليلاً، فنرى ما هو كائن، ونبحث في ما يجب أن يكون.

الشعر دأْبُهُ أَوَّلاً

عندنا في لبنان ثلاثة أنواع من المدارس: الأجنبية، والوطنية الخاصة، والرسمية. ولأن جوهر حديثي هو «سياسة المدرسة»، أقسّمها قسمين: الأجنبية والوطنية الخاصة من جهة، والمدرسة الرسمية من جهة أخرى.

المعاهد الأجنبية والوطنية الخاصة، زاهرة على العموم. هي من حيث العلْم نبراس ساطع. لكنها قائمة بتشجيع الدول الأجنبية، والمعاهد الوطنية الخاصة طائفية في معظمها، وبهذه الصفة تستند في معظمها إلى تشجيع الطوائف. وإذ أقول ذلك، لا أتجاهل أنّ في مدرسة «الحكمة» مثلاً بعض التلاميذ المسلمين، وقد يكون في المقاصد الإسلامية بعض المسيحيين. لكنّ اللون الغالب هو الطائفية. فمدارسنا الخاصة، كمنظمات الشباب، جميعها تسعى إلى خير لبنان وإلى الأُخوَّة والتفاهم، لكن كلاًّ منها مقصورة في الإجمال على طائفة معينة. وهذا هوالواقع.

هذه المعاهد الأجنبية، وهذه المعاهد الوطنية الخاصة، يجب أن تبقى حتى ولو زرعنا لبنان من أقصاه إلى أقصاه بمدارس رسمية تضاهيها وتَفُوقها. وإذ أقول ببقائها، لا أفكر بصعوبة إقفالها وما يمكن أن يجرّ هذا القرار من احتجاج دول أجنبية، ومن هياج فئات وطنية، ومن سفك دماء في الشارع، بل أفترض الأمر لقمة سائغة، وأقول — ومصلحة لبنان وحدها نُصْب عيني — يجب الاحتفاظ بالمعاهد الأجنبية وبالوطنية الخاصة على السواء، لأنّها حقل صالح للاختبار العلمي، وللأساليب التربوية الجريئة، ولأنها، مهما حاولنا مجاراتها، هي الكفيلة بأن يبقى لبنان همزة الوصل بين الشرق والغرب. يجب أن تبقى، وتبقى لها حرية التعليم، لتتمكن من أداء رسالتها العلمية، ولتبقى حافزًا لنا، ولو أصبحنا — وآمل أن نصبح — حافزًا لها.

هذا حقّ لها علينا. ولنا عليها حقّ المراقبة. فلا يجوز أن يدرِّس معهد في لبنان ما يمسّ بكيانه السياسي ولا بجوهره الروحي ولا برصانته الإنسانية. وفي تحقيق قمت به، لم يُنكر معظم رؤساء المعاهد هذا الحقّ للحكومة، لكنّهم تشبّثوا بأَمر هو أيضًا حقّ: أن تكون الرقابة إشرافًا نزيهًا لا تدخُّلاً ولا ضغطًا.

واقع المدرسة الرسمية

المدرسة الرسمية لا تزال طفلة في المنهاج. إنّها توصل إلى الشهادة التكميلية. ولكن كم مدرسة رسمية في لبنان توصل إلى هذه الشهادة؟ بل كم مدرسة رسمية في لبنان توصل إلى الشهادة الابتدائية؟ وإذا خرجنا من بيروت، حيث المدرسة الرسمية أثبتت وجودها رغم جميع النواقص، فأين المدرسة الرسمية في الملحقات؟

إذا نظرنا إلى المعلمين يكفي أن نعلم كم يتناولون آخر الشهر لنعرف من يمكن أن يكونوا. وإذا نظرنا إلى وكلاء للمعلمين تعيَّنوا بالمئات في

هذه السنوات الأخيرة، يكفي القول إنّ وزارة التربية الوطنية لا همَّ لها اليوم إلاّ التخلّص من معظمهم. وإذا نظرنا إلى كبار موظفي الدولة الذين يستطيعون البذل في سبيل تعليم أولادهم، فأولادهم في المدارس الأجنبية وفي المدارس الوطنية الخاصة.

المدرسة الرسمية مدرسة الفقراء، وموظفو الدولة ليس لهم ثقة بمدارس الدولة. وكيف تكون الحالة غير ذلك، ووزارة التربية الوطنية منذ ثماني سنوات لم تعرف وزيرًا انفردَت به فتفرّغ لها، ولا مديرًا بقي فيها أكثر من أشهر؟ وإذا لم يكن من فضل لانعقاد مؤتمر اليونسكو في لبنان إلاَّ أنّه أفهمنا أنّ وزارة التربية الوطنية أهمُّ الوزارات في الدولة، وأشدُّها التصاقًا بنا وفعالية فينا، أفرادًا وجماعات، فالملايين التي تكبّدناها في سبيل انعقاد هذا المؤتمر لم تذهب عبثًا.

المدرسة الرسمية لا تزال طفلة. وهذا لا يعني أنّها ستبقى طفلة. فلنا هدف يجب أن نصل إليه: مدرسة ابتدائية، فثانوية، فجامعة. نريد أن يكون لنا ما لجميع الدول الراقية.

الابتدائية الموجودة اليوم، رغم ما قلت فيها، نواة صالحة يجب أن نتعهّدها. والثانوية يجب أن نفتحها. فما معنى البكالوريا اللبنانية شهادة حكومية، وليس للحكومة مدرسة تهيِّئُ لهذه الشهادة؟

والجامعة لا بد منها. لكنّي أرجئها لعشر سنوات، لعشرين سنة إذا إقتضى الامر، فعشرون سنة في عمر لبنان أقلّ من القليل، ويقوم البناء على أساس متين. فغايتنا تكوين اللبناني الأمثل، العربي الإنساني، اللبناني العربي العالمي.

دار المعلمين فالجامعة

هذا اللبناني مَن يكوّنه؟ يكوّنه المعلّم. ولكن علينا أولاً أن نكوّن المعلّم. لو كنت وزيرًا للتربية الوطنية لما وَعَدْتُ بإنشاء جامعة لبنانية في بنايات اليونسكو، بل لأنشأْتُ فيها دارًا عليا للمعلّمين، على غرار دار المعلّمين العليا في فرنسا. ولكنتُ جعلتُها قسمين: الأول تحضيريًّا يدخل إليه حملة البكالوريا فيدرسون سنتين يتوسّعون في العلوم والآداب تمهيدًا لما سينتَقُون من فروع بعد أن يوجَّهوا إليها حسب مواهبهم، ثم يقدمون مسابقة يدخل الفائزون فيها إلى القسم الآخر حيث يتخصّصون على أحدث الطرق التعليمية والتربوية بما انتقوا من علوم وآداب وفنون.

هذه الدار، ماذا نعلّم فيها؟ نحتذي منهاج دار المعلّمين العليا في فرنسا ونستمدّ منه، ونضيف إليه اللغات الشرقية الحيّة والميتة: الفارسية،

التركية، الأرْدو، البشتو، اليونانية، اللاتينية، العبرانية، السريانية، الكلدانية، الفينيقية، السنسكريتية... جميع اللغات التي مرّت على هذه البلاد أو تفاعلت مع العربية أو تركت في المجتمع الإنساني روائع فكرية وروحية. فارفعوا في هذه الدار منبرًا لتاريخ الأديان الشامل؛ الأديان الموحِّدة: الموسوية والمسيحية والإسلام، والاديان المعدِّدة: البوذية والبراهمية والوثنية جميعها. إرفعوا فيها منبرًا للميثولوجيا: اعتقادات الأقدمين وخرافاتهم الدينية، فهي علْمهم، طريقة تفسيرهم الكون، ويجب ألاّ نجهلها. وخصّوا بالعناية الشعوب التي مرّت في لبنان، يكن لديكم ميثولوجيا لبنانية من أذخر ما عمرت به متاحف الروح والفكر. كوّنوا اللبناني العالَمي، عربيًّا مستقلاً، ذا ثقافة واسعة شاملة، موجهة إلى الخير، خير بلده وخير الانسانية.

تأمين المعلمين

يجب أن تقفز هذه الدار، دار المعلمين العليا، قفزة واحدة، مشروعًا ضخمًا منذ البدء، بحيث تُخرّج كلّ عام خمسين معلّمًا على الأقل، خمسين أستاذًا، وبحيث تكون نواة الجامعة المقبلة.

من أين أساتذتها؟ من هنا، ومن هناك وراء البحر.

أين يجد خرّيجوها العمل بعد هذه الدراسة الواسعة؟ في الثانوية اللبنانية التي يجب إنشاؤها، وفي الجامعة اللبنانية عندما توجد، وفي المعاهد الخاصة، أجنبية ووطنية، وفي البلاد العربية جمعاء.

هذه الدار، دار المعلمين العليا، حاجة ملحّة. إنّها دار التربية، مكوِّنة المكوِّنين، مُعِدّة الأساتذة. والشرق العربي أصلح من تربة لبنان لبذور الفكر. إنّها أداة الإشعاع الفكري، رسالة لبنان.

فتحنا دار المعلمين العليا في بيروت على بركات اللّه. وفتحنا الثانوية. أين؟ ثانوية واحدة لا تكفي. أود أن تكون الثانوية نموذجية، واحدة في مركز كلّ محافظة، وليس ذلك بكثير. فقد أمست بيروت نصف لبنان، من أجل المدارس. والازمات في العاصمة: أزمة السكن، وأزمة السير، وأزمة السوق... والأزمات في القرى: الرحيل عن القرى، والانصراف عن الأرض، وبيع الأرض بخسًا... والأزمات الاجتماعية في لبنان: البطالة، والتكالب على الوظيفة، واضطراب الأمن... جميع هذه الأزمات تردُّ في معظم أسبابها إلى تَمَركُز العلْم في بيروت، وفي معظم الباقي من الأسباب إلى تَمَركُز كلّ شيء في بيروت.

المطلوب إذن: تنشيط المدرسة الرسمية الابتدائية، وفتح الثانوية النموذجية، وفتح دار المعلمين العليا. والأمور الفنية متروكة لأرباب الاختصاص.

نعم: بالإمكان

قد تقولون: كلّ ذلك جميل. إنّه حبر على ورق. وهل بإمكان لبنان، مع تقوية المدرسة، فتح الثانوية النموذجية في المحافظات الخمس، وفتح دار المعلمين العليا بقسمَيها التحضيري والتكميلي، وبضخامتها التي تود؟

أقول: نعم. ولِمَ لا يكون بالإمكان؟

أَيُعْوِزُنا أساتذة؟ ها هم خرّيجو السوربون والبوليتكنيك والسنترال وجامعات أميركا وإنكلترا يفتشون عن عمل يعينهم على الحياة فلا يجدون، ويمكننا استقدام من نشاء من أساتذة الغرب.

أَيُعْوِزُنا التلامذة؟ ها هم بمئات الأُلوف يتزاحمون بالمناكب، وترفض المدارس والمعاهد أكثرَ من نصفهم في كلّ عام لأنّها تضيق بهم، فضلاً عمّن يأتينا من طلاب البلاد العربية.

أَتُعْوِزُنا الكتب المدرسية؟ ها مكتباتنا تغصّ بمؤلفات الكتّاب العرب والكتّاب الأجانب، ننتخب منها ما يلائمنا، ونؤلّف ما يجب تأليفه.

يخطب في مناسبة وطنية

أَيُعْوِزُنا المال؟ ها إنّنا نعمّر من الأساس. فهل يجوز الاقتصاد في أساس البيت والإسراف في زخرفته؟ ألا تخافون أن تنهار الجدران الفخمة والسقوف المتينة والنقوش البارعة على الأساس الواهي؟ إذَن يجب ألاّ يعوزنا المال.

البيت هُوَ هُوَ المدرسة

البيت اللبناني، لا أقول إن أساسه المدرسة. بل أقول إنه هُوَ هُوَ المدرسة: الابتدائية الطابق الأرضي، الثانوية الطابق الأوسط، والجامعة الطابق الأخير. أمّا الباقي: الداخلية والخارجية والمالية، العدلية والصحّة والاقتصاد الوطني، الزراعة والتجارة والصناعة... جميع الوزارات، جميع الدوائر، جميع مرافق الحياة اللبنانية ومنظماتها العامة والخاصة، أولئك سكّان الغرف في البيت اللبناني. وجميع هؤلاء السكان يهمّهم أولاً ألاّ ينهار البناء على رؤوسهم.

ولْنفترض أن المدارس التي طلبناها فتحت أبوابها، فتعالوا نطلّ من النوافذ.

الكتاب المدرسي

كَوَّنَّا المعلّم وفتحنا المعاهد اللازمة، فماذا يجب بعد؟ التعليم معلّم وكتاب ثمّ تلميذ. فبعد تكوين المعلّم يجب تأليف الكتاب. تأليف الكتاب إن لم يسبق تكوين المعلّم يجب أن يماشيه على الأقل، لأن الكتاب يكوّن المعلّم الذي يكوّن التلميذ بواسطة الكتاب. إنّها شبه حلقة مفرغة. لذا يجب الإسراع إلى تأليف الكتاب اللبناني، إلى تأليف الكتب اللبنانية المثلى.

هيا نؤلّف: في تاريخ لبنان، على ضوء مفهوم لبنان كما استخلصناه من الواقع منذ حين، عربي، إنساني، مستقل، همزة الوصل بين الشرق والغرب. وفي جغرافيا لبنان بوجه شامل: الطبيعية، والاقتصادية، والاجتماعية، والروحية. ما على وجه الارض وما في بطنها. جميع الامكانيات. وكتابًا في التربية المدنية اللبنانية، يَدرُس التلميذ فيه جهاز الدولة التي هي دولته، ودستورها السياسي، وميثاقها القومي، وطابعها الروحي. وكُتُبًا للمطالعة أو للقراءة يدرسها الطالب ويُسْأَل عنها: فكتابًا أول يجمع من أساطير الأدب العربي ومن أَساطير الآداب العالمية، مصوغة في قالب عربي أخّاذ، كلّ ما يغرس في طينة التلميذ الطريئة المثُلَ العليا التي نودّ أن تصبح طبيعة في أولادنا: الجمال، الإخاء، التعاون، الوفاء، الفرح، التفكير بأسرار الكون، الاعتماد على النفس، الإقدام، الصبر، البطولة... كلّ ما يكوّن اللبناني العربي الإنساني. وكتابًا آخر يكون للتلاميذ ذخرًا روحيًّا: مقتطفات من التوراة والإنجيل وأقوال الرسل، ومن القرآن والحديث ونهج البلاغة وأقوال الأئمّة والصحابة. مقتطفات من كلّ ما فيه روح صِرف وما ليس فيه تعرّض لدين آخر. فنحن في لبنان مسيحيون ومسلمون. ويجب

أن نعيش متفاهمين متحابّين، والمرء عدوٌّ ما جهِل ومَن جهِل. ليس هذا هو التعليم الديني، والمدرسة الرسمية يجب ألاّ تفصل التلاميذ فئاتٍ وتلقّن كلّ فئة طقوس دينها. إنّما الخير كلّه في أن تُدرَّس كلُّ فئة شيئًا من أدبيات مذهب الفئة الأخرى. بذلك يحصل التفاهم. وكتابًا ثالثًا يقصّ على التلاميذ أهمّ أسرار الكون وأنفع الاختراعات، من حيث نتيجتها العلْمية وصداها الحيوي، بطريقة طريفة بسيطة خلاّبة تتوخّى شحذ الخيال وإيقاظ التفكير، لاحشو الدماغ.

أمثال هذه الكتب نريد، وطبيعيٌّ ألاَّ يؤلّفها إلاّ أربابها، وأن تراقبها الحكومة وأَن تكون لجنة المراقبة صالحة للقيام بمهمتها، قوميًا وعلْمًا وذوقًا. وينبغي ألاّ ننسى اللغة الاجنبية. فمن عناصر تكوين اللبناني العربي العالَمي أَن يُتْقِن لغة عالمية. واللغات العالمية اليوم اثنتان لا ثالث لهما: الفرنسية والإنكليزية. وإتقان كلتَيهما اقتراب من الكمال في هذا المضمار. وإتقان لغات أخرى، الروسية والألمانية على الأخصّ، أمر فيه كلّ الخير، لكنّه أمرُ أفراد يتخصّصون لا قاعدة عامة.

المناهج

وجدنا المعلّم ووجدنا الكتاب، فماذا عن مناهج التعليم؟ المناهج قضية مختلطة، فيها سياسة وفيها فنّ وفيها سياسة الفنّ، والآراء في كلّ ذلك متضاربة. رأى فريق أنّ توحيد مناهج التعليم أساس لتكوين اللبناني، وأنّ المناهج وُحّدت دون ضغط بفضل الامتحانات الرسمية. فالمدارس الأجنبية والمدارس الوطنية الخاصة مضطرّة إلى اتّباع المناهج الرسمية ليفوز تلاميذها بالامتحانات. ولم يطالب بإصلاح المناهج الرسمية، ولا الامتحانات، فهو راضٍ عنها. ورأى فريق ثانٍ أنّ هذه المناهج، على وجوب وجودها، تحتاج إلى تعديل وإصلاح فيجب تخفيف المواد حسب عقلية الطالب وسنّه ووقته، وتبقى الامتحانات على ما هي مع ضمانة صلاحية الفاحصين ونزاهتهم. وقال فريق ثالث بنسف كلّ ما هو رسمي: المناهج والمدرسة والامتحانات، زاعمًا أنّ المدرسة الرسمية تجرّد اللبناني من لبنانيّته، لأنّها لا تعنى إلاّ بالمعلومات وليس لها رسالة كما للمدارس الخاصة. وحمَلَ على البكالوريا بحجّة أنّها تقتل روح التربية والتوجيه المهني وتشلّ النشاط الفكري عند الطالب، النشاط الصرف وتجعل منه آلة لاستيعاب مواد متعدّدة متشعّبة قد لا يحتاج إلى معظمها في دراسته العليا ولا يتّسع وقته لدراستها ولا يقوى دماغه على هضمها، وبحجّة أنّها تَهيِّئُ للجامعات قوالب من السكّر لا أدمغة وقلوبًا. فليس من المعقول أن

نجهّز طالب الحقوق بما نجهّز به طالب الطب، وفرع الفلسفة لا يميّز بين الاثنين. واستعاض هذا الفريق عن البكالوريا بشهادة نهاية الدروس الثانوية، تعطيها المدرسة مرفقة بمعلومات عن مواهب التلميذ ودراسته ومواظبته وصحّته، وما إليها.

الاختلاف في وجهات النظر يبلغ أشدّه إلى أن يصير تناقضًا تامًّا. أرأيتم لماذا لا تمشي العجلة، ولن أقول إنّ الخيل تشدّ بها إلى جهات مختلفة. إنّنا لا نختلف هنا على أمور سياسية قومية بل على أمور علمية تربوية، وعلى سياسة هذه الأمور بملء معنى السياسة، والكلمة في كلّ ذلك للمربّين.

النقاش نواة الوصول

ليست البكالوريا أمرًا لا بدّ منه. فهذا النظام الأنكلوسكسوني يولي المدارس والمعاهد والجامعات كامل ثقته، والشهادات جميعها مدرسية تعترف بها الحكومة. وليست البكالوريا خطلاً مبدئيًّا. فهذا النظام الفرنسي لا يزال يعتصم بها رغم تعديلاته العديدة.

المهمّ في كلّ ما تفحّصنا من المواضيع: أن يتناقش أولو الاختصاص نقاشًا علميًّا رصينًا، وأن يدلي كلّ منهم بآرائه مستندة إلى اختباراته، ونتيجة نقاشهم كفيلة بأن تحمل إلينا المنهاج الأمثل.

فإلى النقاش أيّها المربّون. إلى النقاش المثمر يا رجال الفكر، يا رجال السياسة، يا آباء التلاميذ، يا أمهات اليوم والغد، يا أيها الشعب اللبناني. تعالوا نختطّ للعجلة هدفًا تسعى إليه، وندرّب الخيول على السير معًا في اتّجاهٍ واحد.

استخلصت الهدف اللبناني من الواقع اللبناني، ورسمنا اتّجاه السير بوحي رسالتنا القومية والإنسانية. وذلك ليس أهمّ ما عملنا، بل الأهمّ ألاّ نريد أن يفلت من لبنان لبناني واحد.

عودة لبنان ينبوع إشعاع

قلت في بداية كلامي إنّني سألقي على السائق تَبِعَتَه ولا أهاب؛ إنها تَبِعَتُه المزدوجة لأنّه منا ولأنّه سائق. وألقيتُها عليه في الماضي والحاضر: والمدرسة الرسمية حجّتي، وفي المستقبل: والمشاريع الضخمة التي طلبت سلاحي. لكنّي ألقيت عليه تبعته وحدها لا تَبِعَتَنا عليه. فتحقيق

هذه المشاريع وما يتطلّب من سعي متواصل، وبذل عن سخاء، وصبر في غير وهن، وإقدام في غير عرقلة... كلّ ذلك علينا نحن الشعب، قبل أن يكون على الحكّام.

العمل: إنشاء مدارس، إنشاء المدرسة اللبنانية الكاملة وهي وحدها الكفيلة بأن يتعاون الشعب اللبناني، تلميذها، على الحياة بصدق وإخلاص، في إطار الأُخوّة الوطنية، لأنّها تكون وحّدت المفاهيم ووضعت النقاط على الحروف في أبجدية السياسة اللبنانية الداخلية والخارجية. وهذه المدرسة اللبنانية الكاملة، التامة بفروعها المتسلسلة، هي الكيان اللبناني الفكري. ونحن، الباحثين في سياسة هذا الكيان، وضعنا منذ الآن أساسه. وبهذا نعود إلى الموضوع الأصلي: التعمير من الأساس، ولم يعد بالأمر هدنة. إنّه السلم النهائي.

هذا العمل يتطلّب التفكير الناضج والاستفتاء والمناقشة. فلكتابة محاضرة تتوخّى التعمير من الأساس حبرًا على ورق، اضطررتُ إلى الاستفتاء، وإلى إزعاج المربّين في صوامعهم العليا والمفكرين في أبراجهم العاجية ورجال الشارع في عملهم اليومي. فكيف إذا أردنا البناء بالحجر والحديد ثمّ بالعلْم والكتاب ثمّ بالمناهج والبرامج؟ إنّ هذا الأمر يتطلّب جهود سنوات، جهود فكر وعمل، جهودًا متواصلة. وليس ذلك بكثير على تعمير البيت اللبناني من أساسه. ومتى عمُرَ هذا البيت لا تعود الشكاوى معضلات مزمنة، ولا معضلات حادة، بل تجد حلّها الطبيعي لأنّنا نكون اتفقنا على المفاهيم وعلى طرق المعالجة. ومتى عمُر هذا البيت يعود لبنان إلى طبيعته، عربيًّا إنسانيًّا مستقلاً، يؤدّي رسالته العربيّة والإنسانيّة، آخذًا معطيًا، مستفيدًا مفيدًا، ينبوعَ إشعاع فكري وروحي، واحة سلام وتساهل وإخاء في صحراء الأنانية البشرية، ويعود همزةَ الوصل بين الشرق والغرب.

تراثنا التاريخي

أ.د. مروان أبي فاضل
نظرة ابن خلدون إِلى التّاريخ الكنعانيّ والقرطاجيّ

د. بيار مكرزل
تجّار البندقية في بيروت
بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر

نظرة ابن خلدون إلى التّاريخ الكنعانيّ والقرطاجيّ

أ.د. مروان أبي فاضل

أستاذ التاريخ في كليّة الآداب والعلوم الانسانيّة في الجامعة اللبنانيّة (الفرع الثاني)، وفي العمادة
(Marwan.abifadel@ul.edu.lb)

مقدمة عامة

بين القرنين التاسع والسادس عشر (م.) تناولت المصادرُ العربيّة مواضيعَ تاريخيّةً من العصورِ السابقةِ الإسلامَ. وتميّز المؤرّخون العرب عمومًا بسِعة معلوماتهم التاريخيّة وتنوُّعها، واتَّسمت دراسات بعضهم بنضوج ووضوح علمي ومنطقي. وبعد دراسةٍ تحليليّة مضمونَ تلك المصادر، للمتخصصين في التاريخ القديم أن يضيفوا معلوماتٍ مساعِدةً على فهمٍ أوضح مواضيعَ معيّنةً من التاريخ القديم.

ابن خلدون (توفي في ٢٦ رمضان٨٠٨ ه./ ١٧ آذار ١٤٠٦م.[١]) بين أبرز مؤرّخين تناولوا تاريخ الكنعانيّين-الفينيقيّين في العصور الوسطى، وإن هو لم يخصّهم بدراسة مستقلة. ويمكن أن نستخلص إشارات إلى تاريخهم عند ذكْره أخبار نوح وأبنائه، والأنساب، وأخبار أنبياء اليهود وكل ما يرتبط بتاريخ «بني إسرائيل». وهو تناول أيضًا تاريخ شعوب قديمة من بلاد ما بين النهرين ومصر واليونان والرومان، يمكن أن نستخلص منها إشارات إلى تاريخ الكنعانيّين والقرطاجيّين، عند إشارته إلى الحروب بين

---

١) هو ولي الدين علي عبد الرحمن ابن محمد المعروف بـ«ابن خلدون». ولد في تونس العام ٧٣٢ه./ ١٣٣٢م. حصّل علومًا في القرآن والحديث واللغة العربية والفقه. قبل بلوغه العشرين انتقل إلى «فاس» مع نهاية العام ١٣٥٠، ثم إلى غرناطة في الأندلس للعمل في خدمة السلطان محمد الخامس العام ١٣٦٢، ثم سافر عند «بيترو» ملك قشتالة المسيحية. انتقل في العام ١٣٧٥ إلى تلمسان في الجزائر، وإلى مصر المملوكية العام ١٣٨٢ مرافقًا حملة مملوكية قادها السلطان فرج بن برقوق العام ١٤٠١ لدفع تيمورلنك عن دمشق. بعدذاك عاد إلى القاهرة ليتولّى مرّة أخرى منصب قاضي القضاة، وبقي في منصبه حتى توفيّ ١٧ آذار ١٤٠٦. للاطلاع أكثر على سيرته: مروان أبي فاضل، «نظرة ابن خلدون إلى تاريخ اليونان القديم»، **مجلة المشرق**، السنة التاسعة والثمانون، الجزء الأول، كانون الثاني – حزيران، بيروت، ٢٠١٥، ص ٦٩ – ٩٦؛
M. TALBI, "Ibn Khaldoun", *EI2, III,* pp.849 – 851; V. MONTEIL, "Ibn Khaldoûn, sociologue et historien, (1332 – 1406)", *Rev. Hist. 237, (1967),* pp. 339 – 345.

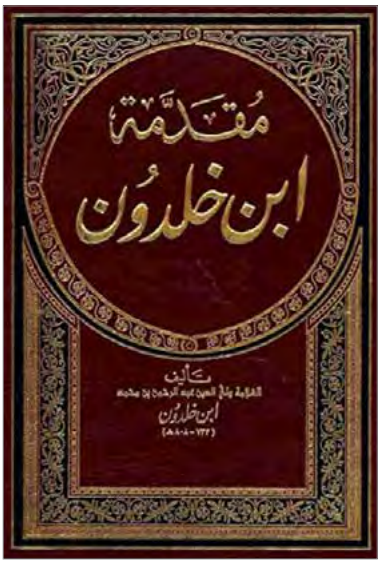

روما وقرطاجة. وكتابه – مقارنة بمصادر عربيّة قبْله[٢]، – هو الأشمل في دراسة التاريخ القديم، ومنه تاريخ الكنعانيّين. فهو تميّز بترتيب متقَن تاريخَ العالم تبعًا لتعاقبِ الدولِ، واعتمد منهجيّة علميّة واضحة بالتعامل مع المصادر ونقدها وتحليلها.

من هنا أن المتخصّصين في تاريخ الكنعانيّين[٣] يهتمُّون بدراسته لأنه أوضح مسائل عن تاريخهم لم تتوصل إلى فهمها مصادر عربيّة أخرى. وهو اعتمد على مصادر مساعدة لفهم الحضارة الكنعانيّة بأسلوب مميّز من النقاش والتحليل. في هذه الدراسة سندرس مضمون كتابه والمنهجيّة التي اعتمدها، والمصادر التي استند إليها، وكيفيّة تعاطيه معها، ونتبيّن تميّزه عن المؤرّخين العرب في النظرة إلى التاريخ الكنعاني، ومدى دقّة اعتباره مؤسّسًا مدرسةً تاريخيّةً متحرّرةً من المواضيع الدينيّة.

كتاب ابن خلدون في سبعة مجلّدات، أشهرها الأول «مقدمة ابن خلدون» ضمّنها قواعد علم التاريخ والاجتماع، نقَدَ من سبَقه من المؤرّخين وبيّن عيوبهم، ثم وصف تطوّر الأمم من البداوة إلى الحضارة، وترقّي الشعوب في السياسة والدين والاجتماع والعلوم والفنون، ونشوء الدول وانهيارها، وطبائع أهل البدو والحضر، والعصبيّة التي لا تقوم دولة من دونها على حدّ رأيه. وإذ المجلّد الثاني من كتابه خمسةُ أقسام، نقتصر منها لدراستنا على الأول والثاني.

---

٢) تعبير «مصادر عربية»، أو «مؤرّخون عرب» نعني به مؤرّخين وجغرافيّين كتبوا بالعربيّة إبان التاريخ الوسيط بين القرنين السابع والسادس عشر (م.).

٣) يواجه المتخصّصون في الحضارة الكنعانيّة الفينيقيّة مشكلة ندرة المصادر المباشرة (نصوص ونقوش وبقايا أثريّة من الكنعانيّين الفينيقيّين) بينما المصادر غير المباشرة أكثر غنى. حول مفهوم المصادر المباشرة وواقعها، مراجعة: M.G. GUZZO, *Krings*, pp. 19–38؛ وحول مفهوم المصادر غير المباشرة وتنوّعها، مراجعة: S. RIBICHINI, *Krings*, pp. 38–74؛ وكذلك: Philip C. Schmitz, "Research Tools", in *The Oxford Handbook of the Phoenician and Punic Mediterranean*, Edited by Brian R. Doak and Carolina López-Ruiz, Yale University; 2019, pp. 3–16.

١. أصل الكنعانّيين وأرضهم

لم يخصّ ابن خلدون الكنعانيّين بدراسة منفصلة لكنه، في سياق حديثه عن أبناء نوح، أشار إلى أصل الشعوب القديمة. وفي المقدمة الأولى من كتابه توسّع بالحديث عن أمم العالم واختلاف أجيالهم وأنسابهم. وتميّزت مقدمته بالوضوح والدقّة والموضوعيّة إذ نقل آراء مصادر عدّة في الأنساب، وقابل بينها. ولدراسته أهميّة مزدوجة: الأولى أنها تعرض مختلف الآراء في أصل البشر وتوضح غموضًا وتناقضًا ظهرا في مؤلّفات مؤرّخين عرب سبقوه، والأخرى أنها، علميًّا ونقديًّا، تبيّن مصادر عادت إليها المصادر العربيّة.

ذكر ابن خلدون أن اللّٰه خلق آدم وخالف بين أممه وأجياله إظهارًا لآياته. ثم استعرض آراء المؤرّخين في جواز الرفع في الأنساب[٤]، وأشار إلى أنساب العالم، واعتبر أن النسّابين اتفقوا على أن الأب الأول للخليقة هو آدم[٥] والأب الآخر هو نوح. واعتبر أن العرب نقلوا أسماء الأنبياء من آدم إلى نوح «**من أهل التوراة**» ونوّه أن مخارج الحروف في لغتهم غير مخارجها في لغة العرب[٦]. وأهميته في ذلك أنه دلّنا على مصدر مهم اعتمده والمؤرّخون العرب، هو التوراة[٧]. وفسّر سبب الخلاف في ضبط الحروف، وهو ما كانت المصادر العربيّة السابقة تغاضت عنه. وتابع ابن

تماثيل «بعل جبيل» المغطّاة بالذهب

٤) اعتبر ابن خلدون أن بعض المؤرّخين رفض مبدأ الرفع بالأنساب، ومنهم من أجازها. **ابن خلدون**، ٢، ص ٥–٧.

٥) **ابن خلدون**، ٢، ص ٨–٩.

٦) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٠.

٧) ثمة مؤرّخون عرب نقلوا خبر آدم وابنائه معتمدين على **التوراة: تك** ١–٥.

خلدون كلامه على علماء اليهود، رافضًا نظرية تعمُّدهم تبديل معنى كتابهم الديني، بل اعتبر أنهم «**بدّلوه وحرّفوه بالتأويل**»، وذكر أن القرآن تحدّث عن تبديلٍ في التوراة وعن تحريفٍ غير مقصود[٨].

شرع ابن خلدون بالكلام على أبناء نوح، واعتبر أن النسّابين والمفسّرين اتفقوا على أن الأمم تفرّعت من أبناء نوح: سام، وحام، ويافث، وقال: «... **وقد وقع ذكرهم في التوراة. وأن يافث أكبرهم، وحام الأصغر، وسام الأوسط. وخرّج الطبري في الباب أحاديث مرفوعة بمثل ذلك**»[٩].

من أولاد سام، في رأيه، العربُ على اختلافهم، وابراهيم وبَنوه باتفاق النسّابين. ورأى أن الخلاف بين النسّابين هو في نسب غير العرب إلى سام، وهنا استعرض آراءً عدّة. ونقل عن ابن اسحاق[١٠] أسماء أبناء سام والشعوب التي تنتمي إليها[١١]، كالعماليق الذين منهم «**الكنعانيُّون وبرابرَةُ الشام، وفراعِنَةُ مِصْرَ**»[١٢].

ومما نقله عن ابن اسحاق يبيّن أن الكنعانيّين ساميّون عمالقة. وحين عرض لآراءٍ أخرى حول أنساب الشعوب، أنكر أن الكنعانيين من أبناء سام وكتب: «**الصحيح أنهم من كنعان بن حام**»[١٣].

في حديثه عن أبناء حام اعتبر ابن خلدون أن من أولاده «**السودان والهند والسند والقبط وكنعان باتفاق. وفي آخرين خلاف نذكره**»[١٤]. ونقل عن التوراة أن أبناء حام هم مصرايم وكنعان وكوش وقوط[١٥]. ثمّ توسّع

٨) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٠–١١.

٩) **ابن خلدون**، ٢، ص ١١.

١٠) هو محمد ابن اسحاق بن ياسر (ت. العام ٧٦٧ م.) من كتّاب السيرة النبوية. ينتمي إلى عائلة تخصصت في نقل الأخبار والأحاديث، فبرع في الكتابة ونال شهرة في نقل الاخبار والمغازي. لكن ابن النديم يقول عكس ذلك ويعتبر أنه أخطأ في النسب الذي أورده في كتابه. ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٥. يمكن مراجعة حياته وأعماله، في: J.M.B. JONES, *"Ibn Ishak"*, *EI2, III*, pp. 834–835.

١١) ما نقله ابن خلدون يتلاقى مع ما ورد في التوراة، مع اختلافات بسيطة، منها أن التوراة لم تتكلم على ابناء لاوذ. يمكن الاطلاع على أسماء ابناء سام في التوراة: تك:٢١، ١٠–٣١.

١٢) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٢–١٣.

١٣) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٤.

١٤) **ابن خلدون**، ٢، ص ٢٠.

١٥) يمكن مراجعة التوراة حيث ورد أن بني حام هم كوش ومصرائيم وفوط وكنعان: **تك** ١٠: ٦.

في ذكر أسماء أبناء كلّ من الأولاد الأربعة، نكتفي منهم بذكر أولاد كنعان الأحد عشر، ومنهم «**صيدون ولهم ناحية صيدا، وإيموري وكرساش وكانوا بالشام، وعندما غلبهم يوشع انتقلوا إلى أفريقيا فأقاموا بها**[١٦]. **ومن كنعان أيضًا يبوسا وكانوا ببيت المقدس وحين غلبهم داود عليه السلام هربوا إلى أفريقيا والمغرب وأقاموا بها**[١٧]. **والظاهر أن البربر من هؤلاء المنتقلين أولا وآخرًا. إلا أن المحقّقين من نسّابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان، فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء. ومن كنعان أيضًا حيث الذين كان ملكهم عوج بن عناق. ومنهم عرفان وأروادي وخوي، ولهم نابلس وسبا، ولهم طرابلس وضمارى، ولهم حمص وحما، ولهم أنطاكية. وكانت تسمّى حما باسمهم**»[١٨].

ما نقله ابن خلدون ورد في التوراة مع اختلاف في مخارج بعض الكلمات، كما كان أشار إليها. لكنه تغاضى في المقابل عن ذكر معلومات وردت في التوراة، مع أن جوهر ما نقله يتلاقى معها. وبالعودة إلى النصّ يتبيّن أن أرض الكنعانيّين كانت في الشام، ومن مدنهم: صيدا والقدس ونابلس وسبا وطرابلس وأرواد وحمص وحمى وأنطاكية. والاختلاف بين معلومات ابن خلدون والتوراة أنه تحدث عن هجرة قبائل كنعانيّة إلى شمال أفريقيا، بينما التوراة اكتفت بالإشارة إلى تفرّق عشائر الكنعانيّين من دون تحديد أماكن انتشارهم[١٩].

خريطة المدن الكنعانية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر (ق.م.)

دراسةُ ابن خلدون الأنسابَ واضحةٌ تفوّق فيها على مصادر عربيّة أخرى لم

١٦) ذكر الطبري أن البربر في شمال أفريقيا كنعانيون فروا من سطو يشوع بن نون. **الطبري**، ١، ص ٤٤٢.

١٧) ذكر ابن الأثير وابو الفداء أن قوم جالوت الكنعاني انهزم أمام داود ففرّ إلى شمال أفريقيا: **ابن الأثير**، ١، ص ١٨٩–١٩٣؛ **أبو الفداء**، ١، ص ٢٤–٣٢.

١٨) **ابن خلدون**، ٢، ص ٢٠–٢١.

١٩) الخبر عن ابناء كنعان في **التوراة**، **تك**: ١٠، ١٥–١٩. ومن أولاده كما جاء فيها: «**صيدون بكره، وحثاً، واليبوسيّين، والأموريّين، والجرجاشيّين، والحويّين، والعرقيّين، والسينيّين، والأروادّيين، والصّماريّين، والحماتيّين**». وهذه الشعوب وردت أسماؤها محرّفة عند ابن خلدون، وفي التوراة: «**بعد ذلك تفرقت عشائر الكنعانيين. وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وانت آت نحو جرار إلى غزّة وانت آت نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع**».

تحلَّ مسألة الترابط بين أصل الكنعانيّين السامي والحامي، فيما ابن خلدون اعتمد على المادة التاريخيّة عينها وحسَمَ أن الكنعانيّين حاميّون، وأرضهم كانت بالشام إنما لم يحدّد امتدادها الجغرافي بشكل دقيق.

ذكرت المصادر العربيّة قصة نوح وأبنائه حام وسام ويافث، واعتبرت أن شعوب الأرض تعود بأصلها إليهم[٢٠]. لكن آراء المؤرّخين العرب في تحديد أصل الكنعانيّين تعدّدت وفيها اختلافات كثيرة. ويمكن تصنيف نظرة المؤرّخين العرب إلى أصل الكنعانيّين كالآتي:

- رأت بعض المصادر أن الكنعانيّين عمالقة ساميّون[٢١].
- ذكرت مصادر بشكّ وحذر أنْ كان لنوح ابن رابع، هو كنعان الذي يسمّيه العرب «يام» الذي غرق، ويسميّه بعضهم «الغريق». ولم نجد خلفية تاريخيّة لقصة يام وارتباطها بالمياه والغرق سوى في أسطورة «يام» في أوغاريت[٢٢].
- اعتبرت معظم المصادر العربيّة أن الكنعانيّين ينتسبون إلى كنعان بن حام بن نوح، دون توفيقهم بين أصل الكنعانيين الحامي وانتسابهم إلى عمليق أبو العماليق السامي[٢٣].

٢٠) قصة نوح في المصادر العربية: مروان أبي فاضل، «الحضارة الكنعانيّة – الفينيقيّة من خلال المصادر العربيّة (القرن التاسع – القرن السادس عشر م.)» أطروحة دكتوراه، جامعة الروح القدس –الكسليك، كلية الآداب، معهد التاريخ، ٢٠٠٧، ص ٢١ – ٢٥٢. وفي الموسوعة الإسلامية أن قصة نوح عند المسلمين تلتقي في نواح عديدة مع قصص الهغادا، واعتبرت أن الأسطورة الإسلاميّة تجاوزت بأخبارها عن نوح ما ورد في التوراة وفي الهغادا:

B. HELLER, 'Nūh", *EI, VIII*, pp. 111 – 112.

٢١) الثعلبي، **قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس**، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ت.، ص ٢١٣؛ ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٨جزءًا، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٢، الجزء الأول، ص ٢٥١.؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٧ أجزاء، دار صادر، بيروت، الطبعة ٢، ١٩٩٥ – ١٩٩٦، الجزء ٤ ص ٤٨٤؛ ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، ٤ أجزاء، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.، الجزء الثالث، ص ٣٠٢.

٢٢) دراستنا عن مفهوم اليم وكنعان في المصادر العربيّة: مروان أبي فاضل، «اليمّ والأدونيّات في نصوص المصادر العربيّة بين التاريخ القديم وعالَم اليوم»، **حوليّات معهد الآداب الشرقيّة**، جامعة القدّيس يوسف، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، معهد الآداب الشرقيّة، المجلّد ١١، ٢٠٢٢، ص ١٥٣ – ١٧٧.

٢٣) **الدِّينوري**، ص ٣٢ – ٣٤؛ **الطبري**، ١، ص ١٩١ – ٢١١.

لم يَحسم المسألةَ بوضوح إلا ثلاثة مؤرّخين: أبو عبيد البكري (اعتبر الكنعانيّين حاميّين وأرضهم بلاد الشام[٢٤])، وأبو الفداء (اعتبر الكنعانيّين الحاميّين سكنوا في أرض الشام ولا سيما في فلسطين، ومعهم شعوب أخرى أبرزها العمالقة من أبناء سام[٢٥])، وابن خلدون (توسّع في دراسة أنساب أمم العالم، وذكرلصعوبات تواجه دراستها، وأصاب في جمع معلومات مشتّتة). وهو عرض رأيه بوضوح دون الوقوع كسابقيه في تناقض وغموض. وذكر آراء مختلفة حول أصل الكنعانيّين، ورفض ربطهم بالعمالقة، وأكّد أنهم من أبناء حام، واعتبر أن منهم قبائل عدّة مثل الصيدونيّين والأروادييّن واليبوسيّين وغيرهم. ولم يَتَبَنَّ النظرة السلبيّة إلى كنعان كـ«مفسد في الأرض» ولا توقَّفَ عند نظرة عربيّة رأت كنعان ملعونًا بسبب خطإٍ اقترفه أبوه حام بحق نوح. وجذور هذه النظرة موجودة في أكثر من موضع في العهد القديم[٢٦].

الثابت أن تحديد تعبيرَي «حامي وسامي» في الدراسات الحديثة لا يستند إلى أصل عرْقي مشترك بل يرتبط بلغة الشعوب القديمة. وسنة ١٧٨١ أطلق المستشرق الألماني «شلوتزر (Schlozer) تعبير «ساميّ» للدلالة على مجموعة شعوب اعتمدت لغة ذات خصائص مشتركة، منها اعتمادها على جذر ثلاثي للأفعال. والمنطقة الجغرافيّة التي انتشرت فيها هي: بلاد ما بين النهرين، سوريا، فينيقيا، فلسطين، الأردن، وشبه الجزيرة العربية[٢٧].

عن بعض المصادر العربيّة أن أرض الكنعانيّين كانت تمتد في مصر وما وراءها حتى طنجة. واعتبرت غيرها أنها كانت تمتد في بلاد الشام. وكان لمصادر أخرى رأي أكثر وضوحًا وأكثر شموليةً: أرض الكنعانيّين امتدت في بلاد الشام التي يقال لها أرض بني كنعان، واعتبرت أن قسمًا من الكنعانيّين ترك بلاده نحو أفريقيا الشمالية لأسباب قاهرة. واعتبر

٢٤) **أبو عبيد البكري**، ١، ص ٨٨.

٢٥) **أبو الفداء**، ١، ص ٩٨.

٢٦) في التوراة لعنات كثيرة، منها: لعن الربّ للحيّة (تك ٣: ١٤)؛ وقايين (تك ٤: ١١)؛ ولعنة نوح: «... فلمّا استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدًا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبدًا لهم»، **تك ٩**: ٢٤ – ٢٧.

٢٧) لمفهوم الساميّة وفروعها: J. NOUGAYROL, "Langues et écritures Sémitiques (Sémitique Orientale ou Accadien)", *DBS, V,* 1957, pp. 257 – 284; H. CAZELLES, "Langues et écritures Sémitiques (Sémitique Occidental)", *DBS, V,* 1957, pp. 284 – 299.

ابن خلدون أن أرضهم امتدت على أرض الشام: في صيدا وفلسطين وغزّة وأرواد وطرابلس ونابلس وحمص ووصلوا حتى أنطاكية. وهذه الأرض الواسعة تفرّق عنها الكنعانيّون بعد غزوات يوشع بن نون وحروب داود فانتقلت جماعة منهم إلى شمال أفريقيا (تحليلُه لاحقًا في هذه الدراسة).

إعتبارُ الكنعانيّين حاميّين تعايشوا مع شعوب سامية في بلاد الشام، هو اتجاه عربي يتلاقى مع تقليد تاريخي نرى جذوره في مصادر كلاسيكيّة اعتبرت «الفينيقيّين» وفدوا إلى السواحل الشرقيّة للمتوسط من بلاد أخرى أعطتهم أصولاً غريبة عن الأرض التي عاشوا فيها[٢٨]. واعتبرهم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفيوس (ت. نحو العام ١٠٠م.) من الحاميين[٢٩]. واستخدم الكنعانيّون/الفينيقيّون لغةً سامية تُكتب من اليمين

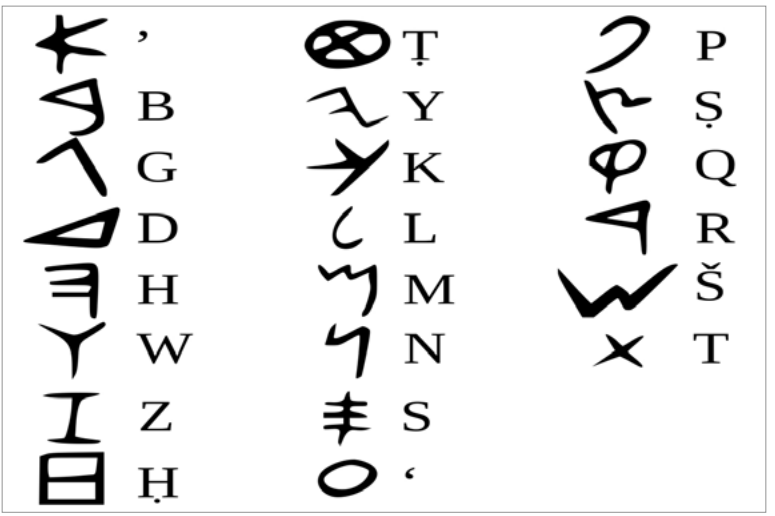

الأبجديّة الفينيقيّة

٢٨) اعتبر هيرودوت أن حكماء الفرس يدّعون أن الفينيقيين جاؤوا من البحر المعروف بأريتيريا إلى البحر الذي يعيشون على ضفافه اليوم (أي المتوسط)، Hérodote, *Histoire*, I-V, Trad. Ph. –E. Legrand. Coll. Universités de France, G. Budé. Paris, 1932, *I*, 1.؛ وذكر جوستان أن «الصوريين فينيقيون تركوا أرضهم بسبب هزّة أرضية وارتحلوا إلى «البحيرة السورية»، ومنها إلى ضفاف البحر فأسسوا مدينة أسموها «صيدون».

JUSTIN, *Abrégé des histoires Philippiques de Trogue Pompée*, Trad. E. CHAMBRY et L. THELY-CHAMBRY, Paris, s.d, *XVIII*, III, 1 – 5.

٢٩) FLAVIUS Josèphe, *Antiquité Judaïque*, Traduit sous la direction de T. REINACH, Paris, 1900–1924., *I*, VI, p. 19.

إلى اليسار قريبة من لغات سامية أخرى استخدمتها شعوب معروفة بأنها ساميّة كالأكاديّين والأموريّين والأشوريّين والبابليّين والآراميّين وغيرهم. وهُم انخرطوا في العالم السامي وكانوا منذ بدايات عصر البرونز يعيشون على الساحل الشرقي للمتوسط إلى جانب شعوب أخرى تفاعلت معها حتى أنتجت حضارة إنسانيّة مزدهرة.

ويلتقي استنتاجنا مع دراسات علمية حديثة أثبتت أن الكنعانيين مزيج أشخاص أقاموا في مزارع على الساحل منذ عصر النيوليتي بين ٩٠٠٠ و٣٣٠٠ ق.م. ومهاجرين آتين من أوراسيا منذ نحو ٥٠٠٠ سنة. ويستنتج القيّمون على هذه الأبحاث أن الجماعات التي عاشت على ساحل المشرق القديم وجماعات أخرى في المناطق الداخليّة، تنتمي إلى أصل جيني مشترك مع الكنعانيّين، ومنهم: العمونيّون والموآبيّون والعبرانيّون والفينيقيّون[٣٠].

٢. كنعان بن حام كوش أول ملوك الأرض

ذكرت المصادر العربيّة خبر «نمرود بن كنعان» واعتبرته ملكًا جبّارًا حكم في بابل وحرّان وغيرها من مناطق بلاد ما بين النهرين وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولكونه متمردًا على الله قام ضدّه النبي إبراهيم الذي دعا إلى التوحيد[٣١]. وتطرح مسألة نمرود سؤالاً حول إمكان هذا الملك الكنعاني أن يحكم أرض الرافدَين، وحول هويّة سكّان الأرض المذكورة. ففي المصادر العربيّة أن الكنعانيّين من أبناء حام سكنوا بلاد الشام، بينما سكّان بلاد ما بين النهرين من أبناء سام. وهنا تزيد عقدة نمرود: هل هو ابن كنعان أبي الكنعانيّين؟ هل

عقْد ذهبيّ وأَحجار نصف كريمة اكتُشِف داخل المقبرة الملكية في جبيل في الفترة الكنعانية على عهد الملك أبيشمو أبي (القرن الثامن عشر ق.م)، يمثل عقابًا باسطًا جناحَيه (المتحف الوطني – بيروت)

٣٠) للاطلاع على تحليل تلك الدراسة: مروان أبي فاضل، «الثقافة الوطنيّة في كتاب التاريخ المدرسي اللبناني»، **مجلة دراسات جامعيّة في الآداب والعلوم الإنسانيّة، عدد خاص: مؤتمر العلوم الإنسانيّة وإعادة بناء الثقافة الوطنيّة**، ج١، حزيران، ٢٠٢٠، ص ١١٩–١٤٦.

٣١) لمراجعة نظرة المصادر العربيّة إلى نمرود وعلاقته بالنبي إبراهيم الذي هرب من بلاد ما بين النهرين إلى بلاد الشام: مروان أبي فاضل، «**الحضارة الكنعانيّة – الفينيقيّة من خلال المصادر العربيّة (القرن التاسع – القرن السادس عشر م.)**»، ص ٢١–٢٥٢.

سكّان بلاد الرافدين كنعانيّون؟ هل كان نمرود ملكًا حاميًّا أو ساميًّا؟ ولم تذكر المصادر العربيّة مصادر قصتها بشكل واضح، ولا التوراة ربطت بين نمرود وكنعان.

تميَّز ابن خلدون بأنه حبَك روايته التاريخيّة بأسلوب علمي ومنطقي وضمّنها مصادر عدة فأضحت متكاملة واضحة. وهو نقل عن ابن سعيد[٣٢] ما يأتي: «**أول من ملَكَ الأرضَ من وُلد نوح كان كنعان بن كوش بن حام. سار من أرض كنعان في الشام إلى أرض بابل فبنى مدينة بابل اثني عشر فرسخًا في مثلها، وورِثَ مُلكَه ابنُه النمرود بن كنعان، وعظُم سلطانه في الأرض وطال عمره وغلب على أكثر المعمور، وأخذ بدين الصابئة، وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وأسمائه ومال معهم بنو سام. وكان سام قد نزل بشرقيّ الدجلة، وكان وصيّ أبيه في الدين والتوحيد، وورث ذلك ابنَه أرفخشذ – ومعنى أرفخشذ مصباح مضيء – فاشتغل بالعبادة ودعاه الكلدانيّون إلى القيام بالتوحيد فامتنع**»[٣٣].

وفي حديثه عن «**ملوك بابل من القبط والسريانيين وملوك الموصل ونينوى من الجرامقة**»[٣٤]، أضاف ابن خلدون أن التوراة نَسَبَت نمرود إلى كوش بن حام لا إلى كنعان بن كوش. لكنه علّق: «**فالله أعلم بذلك**»[٣٥]. ثمّ توسّع في الحديث عن ملوك الكلدانيّين، وطرح مسألة أصل نمرود مستعرضًا آراء ثلاثة مؤرّخين: المسعودي (لم يحسن تحديد أصل نمرود[٣٦])، والطبري (حسَم أنه «نمروذ بن كوش بن كنعان بن حام صاحب ابراهيم ودعا النبط إلى عبادة الأوثان فعبدوها[٣٧])، وهروشيوش مؤرّخ

٣٢) لم يعرّفنا على ابن سعيد. وهو شاعر ومؤرّخ وجغرافيّ أندلسي، ولد في غرناطة سنة ١٢١٣م. لعائلة متحدّرة من أحد صحابة الرسول. زار ابن سعيد شمال أفريقيا ومصر والعراق وسوريا وإيران، واطّلع على معلومات لكتابه ليتمكن من إنهاء «كتاب المُشرق في حلى المشرق». إلا أن آخر أيام حياته شابها الغموض، وعاش في تونس حيث توفي العام ١٢٨٦م. لحياته ومؤلّفاته: Ch. PELLAT, "Ibn Sa'îd Al. Maghribi", *EI, III*, pp. 950–951.

٣٣) **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٠.

٣٤) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٢٩–١٣٨.

٣٥) ورد في التوراة: «**وكوش وَلَدَ نمرود الذي ابتدأ يكون جبارا في الأرض**»: **تك** ١٠: ٨.

٣٦) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٣٤–١٣٥؛ هذا التناقض في قصة نمرود عند المسعودي يسمّيه في مرة أولى نمرود بن ماس، ومرة ثانية نمرود الجبار ولا يذكر له أي أصل ولا نسب، ومرة ثالثة نمرود بن كنعان، ويبدو أنه غير نمرود المنتمي إلى سام. المسعودي، **مروج الذهب** ١، ص ٤٥–٤٦.

٣٧) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٣٥؛ قصة نمرود في: **الطبري**، ١، ص ٢٣٥–٢٤٤.

التلّ الأثري في جبيل

الروم[٣٨] (اكتفى بالقول إنه «نمرود الجسّيم»[٣٩]). وكتاب هذا الأخير لم يرد فيه اسم نمرود بل اعتبر أوروز (Orose) أن أول ملوك الأرض يُدعى نينوس وسماه ملك الآشوريين ذاكرًا أنه أول من أسّس أمبراطورية مترامية الأطراف، وأن زوجته سميراميس خلفَتْه وحافظت على أمبراطورتيه وقادت بدورها فتوحات جديدة[٤٠]. ومن الصعب مقارنة كتاب أوروز بكتاب ابن خلدون الذي اطّلع على نسخة مترجمة إلى العربيّة لم نطّلع عليها.

من الآراء أعلاه يستنتج ابن خلدون: «**يظهر من كلام هؤلاء أن اسم النمرود سمة لكل من ملَكَ بابل، لوقوعه في أصل أنساب مختلفة، مرة إلى سام ومرة إلى حام**»[٤١]. وهنا منهجيته بإيضاح كل فكرة طرحها، مناقشًا الآراء المختلفة ليصل إلى استنتاج علمي ومنطقي. ويتلاقى تحليل ابن خلدون مع ما أورده المؤرّخ اليهودي «فلافيوس يوسيفيوس» الذي اعتبر أن «نمرود هو الابن السادس لكوش (ابن حام)، عاش بين البابليّين وأصبح الحاكم الطاغيّة»[٤٢].

٣٨) اعتمد ابن خلدون على هذا المؤرخ أكثرَ من موضع في الكتاب لكنه لم يعرّف به ولا ذكَرَ اسم الكتاب الذي وضعه. سمّاه في بداية كتابه «أهروشِيوش مؤرخ الروم»، ابن خلدون، ٢: ١٨، ٢٢، ٧٩؛ ثم اعتمد تسمية «هِروشيوش مؤرّخ الروم»، **ابن خلدون**، ٢، ص ١٣٥. ويمكن مراجعة تعريفنا به في دراستنا منهجية ابن خلدون لاحقًا في هذه الدراسة.

٣٩) لمراجعة ما نقله ابن خلدون عن هروشيوش: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٣٥–١٣٦.

٤٠) للاطّلاع على أخبار الملك نينوس عند أوروز: Orose, *Histoires contre les païens*, *I*, 4, 1–3.

٤١) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٣٦.

٤٢) لم يشر ابن خلدون إلى فلافيوس يوسيفيوس ضمن مصادره. ولِما نقله فلافيوس يوسيفيوس عن نمرود: FLAVIUS Josèphe, *Antiquité Judaïque*, 1900–1924, p. 135.

من تحليل نصوص ابن خلدون نستنتج أن نمرود بن كنعان سار من «أرض كنعان» في الشام إلى أرض بابل، وأسّس أمبراطوريّة مترامية الأطراف، قاعدتُها مدينة بابل. وهذا يوضح ارتباك مصادر عربيّة أخرى لم تُحسِن فهم ولا إيضاح مسألة ملِك كنعاني من بلاد الشام يَحكم في بابل. تقودنا هذه الاستنتاجات إلى نظرة جديدة حول التاريخ السياسي الكنعاني: إشارة أولى في التاريخ إلى تأسيس الكنعانيّين أمبراطوريّة واسعة امتدّت في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، ما يتعارض مع التقليد التاريخيّ أن الكنعانيّين عاشوا طيلة تاريخهم في ممالك مستقلّة بعضها عن بعض.

تحتاج قصة نمرود الكنعاني إلى معطيات أثريّة خاصة تكشف عن حقيقته مستقلاً عن قصة ابراهيم الذي ارتبطت بداياته التاريخيّة بتمرده على «نمرود». والأخير شخصيّة أسطوريّة في التقاليد الإسرائيليّة، وتُعرف أرض أشور بأنها أرض نمرود. وخرائب كلخ تحمل اسم نمرود، وهناك تقليد توراتي يعتبر أن نمرود أسّس مملكة تضمّ مدن بلاد الرافدَين الجنوبيّة: بابل، أوروك أكاد، كلنة، ومدّ نفوذه إلى أشور وبنى نينوى وكلخ وحبوت وعسير راسن[٤٣].

لا نستطيع أن نتعرف على نمرود بدقّة، لكنه يشبه جلجامش (صيّاد وملك أوروك). ويذكّر اسم نمرود بإله الحرب والصيد البابلي (نينورتا، نيمورتا، نين أيب) المعبود بخاصة في كلخ. وهناك من ماثلَ بين نمرود ولوجلبندا الملك الثالث المؤلّه للسلالة الأولى في أوروك[٤٤]. وفي بعض الدراسات أن ابراهيم عاش في زمن الملك «حمورابي» (بين ١٩٤٧ و ١٩٠٥ ق.م[٤٥]) ما يعني أن نمرود قد يكون حمورابي، ورُبِطَ بالكنعانيّين لأن عبادة النجوم (السائدة في أيام حمورابي) دفعت المصادر العربيّة إلى اعتباره كافرًا ومرتدًا عن عبادة الله، وتاليًا هو على صلة بالكنعانيّين.

في المصادر العربيّة اقتصرت أخبار العلاقات بين الكنعانيّين وشعوب بلاد ما بين النهرين على قصص النبي ابراهيم وتمرّده على الملك نمرود،

٤٣) **التوراة، تك:** ١٠: ٨، ١٢.١٠؛ مدينة كلخ غربيّ نهر دجلة، تبعد نحو ٣٥ كلم عن نينوى. وعن إرتباط نمرود بمدينة كلخ، وموقعها وأبرز الاكتشافات الأثرية التي جرت فيها، والحكّام الذين توالوا على حكمها، مراجعة: M. E J. RICHARDSON, '' Nimrud'', *EI2*, p. 50; L. BATTINI – P. Villard, "Kalhu", *DCM*, pp. 437–440.

٤٤) لوجلبندا ملك أسطوري من السلالة الأولى من ملوك أوروك. دارت حوله قصص أسطورية شفهيّة كما حول جلجامش. F. JOANNES, "Lugalbanda", *DCM*, p. 480.

٤٥) لمراجعة أصل النبي ابراهيم ونظريات عدة اعتبرته عاش في أيام حمورابي حيث ارتبطت العبادات بالتنجيم ومراقبة الفلك:
L. PIROT, "Abraham", *DBS, I*, 1928, pp. 8 – 14.

وهجرته إلى بلاد كنعان. وتغيب عنها أخبار حروب ملوك الأشوريّين والكلدانيّين ضد مدن فينيقيّة عدّة.

٣. علاقة الكنعانيّين بإبراهيم الخليل وأبنائه

استعرض ابن خلدون سِيَر أبناء سام وصولاً إلى عابر «أبو العبرانيّين» الذين تكلّموا بالعبرانيّة[٤٦]، ونقل عن «ابن سعيد «الحديث عن أبناء عابر ووصل بنسبه إلى تارح[٤٧]. وقال: «**وولد لتارح الذي هو آرز وله على ما وقع في التوراة ثلاثة من الولد: إبراهيم وناحور وهاران**»[٤٨]. ثم نقل عن الطبري قول ابن اسحاق إن ابراهيم وُلد على عهد نمرود بن كنعان بن كوش بن سام[٤٩]. وعن التوراة أن ابراهيم تزوّج سارة[٥٠]، «**ثم أُمِرَ بالخروج إلى أرض الكنعانيّين ووعده الله بأن تكون أثرًا لبنيه، وإنهم يكثرون مثل حصى الأرض**[٥١]. **فنزل بمكان بيت المقدس وهو ابن خمس وسبعين سنة، ثم أصابَت بلادَ الكنعانيّين مجاعةٌ فخرج ابراهيم في أهل بيته وقدم مصر**»[٥٢]. وتابع ابن خلدون خبر ابراهيم في مصر[٥٣]، فعودته إلى بلاد أرض كنعان حيث نزل جيرون[٥٤].

وذكر ابن خلدون أن أرض الشام تعرّضت في زمن ابراهيم لغزو خارجي، وفي أثنائها خرج لوط أخو ابراهيم «**مع عساكر كنعان وفلسطين للقاء ملوك الشرق حين زحفوا إلى أرض الشام. وكانوا أربعة ملوك: ملك**

٤٦) لقصّة أرفخشذ وخلفائه: **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٠–٦١.

٤٧) مراجعة نسب هؤلاء في **التوراة: تك** ١٠: ٢١–٣٠.

٤٨) ابن خلدون، ٢، ص ٦١؛ وفي التوراة: «وهذه مواليد تارح أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطا». **تك** ١١: ٢٧.

٤٩) لمولد ابراهيم، طفولته، ونبوته وزواجه من ساره: ابن **خلدون**، ٢، ص ٦١–٦٢.

٥٠) خبر زواجه من سارة في التوراة: **تك** ١١: ٢٩.

٥١) ورد في التوراة: «**وقال الرب اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعَنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض**». **تك** ١٢: ١–٣.

٥٢) **ابن خلدون**، ٢، ص ٦١–٦٢؛ لخروج ابراهيم إلى مصر: **التوراة: تك** ١٢: ١٠–١٢.

٥٣) راجع أخبار ابراهيم في مصر، وقصته مع ملك مصر وقصة هاجر في: **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٣.

٥٤) خبر نزول ابرام في «حبرون» في **التوراة: تك** ١٣: ١٤–١٨.

الأهواز من بني غليم بن سام واسمه كرزلا عامر، وملك بابل واسمه في التوراة شنعا واسمه أمراقيل ويقال هو نمرود. وملك الأستار، وما أدري معنى هذه اللفظة، واسمه أريوح. وملك كَوتَم ومعناه ملك أمم أو جماعة واسمه تِزعال. وكان ملوك كنعان الذين خرجوا إليهم خمسة على عدد القرى الخمس. ذلك أن ملك الأهواز كان استعبدهم اثنتي عشرة سنة ثم عصوا فزحف إليهم واستجاش بالملوك المذكورين معه فأصابوا من أهل جبال يسعين إلى فاران التي في البرية، وكان بها يومئذ الجويون من شعوب كنعان أيضًا»[٥٥]. وانهزم ملوك الكنعانيّين وبلغ الخبر ابراهيم فخلّص لوط[٥٦]. والخبر ورد كاملاً في التوراة[٥٧] مع فروقات بسيطة بمخارج الكلمات.

نستنتج من الخبر أن الكنعانيّين، وفق ابن خلدون، من سكّان الشام. ويشير إلى خمسة ملوك كنعانيّين، ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن الكنعانيين فترتئذٍ كانوا منظّمين في ممالك مستقلة بعضها عن بعض، وخاضعة لملوك من الشرق لم يحدّد هويتهم بدقّة.

ابن خلدون كما تخيَّله جبران خليل جبران (من كتابه «البدائع والطرائف»)

تابع ابن خلدون الحديث عن ابراهيم، وكيف اللّه أوحى إليه «**أنَّ هذه الأرض، أرض الكنعانيّين التي أنت بها، ملَّكْتُها لكَ ولذرّيَّتك، وأكثرهم مثل حصى الأرض، وأن ذريّتك يسكنون في أرض ليست لهم أربعمائة، ويرجع الحقب الرابع إلى هنا**»[٥٨]. ثمّ ذكر خبر وفاة سارة ودفنها في قرية جيرون من بلاد بني جييب الكنعانيّين. وطلب ابراهيم منهم مقبرة لها، «**فوهبه عفرون بن صخر مغارة كانت في مزرعته فامتنع ابراهيم من قبولها إلا بالثمن فأجاب إلى ذلك**»[٥٩]. والخبر عن دفن سارة يتلاقى مع ما ورد في التوراة مع فرق أن «بني جييب» عند

٥٥) **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٤؛ ما أورده يشبه الخبر في التوراة، مع فرق أن التوراة اعتبرت أن الملوك الذين تعرّضوا للغزو كانوا من العمالقة والأموريّين وليسوا كنعانيّين، وتحدّثت عن سقوط سدوم وعمورة: **تك** ١٤: ١٠–١١.

٥٦) لنتيجة المعركة على لوط، وموقف ابراهيم الذي خلّص أخاه: ابن خلدون، ٢، ص ٦٤–٦٥؛ وكذلك في **التوراة: تك** ١٤: ١٣–٢٤.

٥٧) راجع، **تك**: ١٤، ١–٢٤.

٥٨) **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٥؛ والخبر عينه في التوراة: **تك** ١٥: ١–١٤.

٥٩) **ابن خلدون**، ٢، ص ٦٩.

ابن خلدون هم «بنو حث» في التوراة[٦٠]، وذلك لخطأ في الترجمة كان ابن خلدون حذَّرَ منه في بداية حديثه عن تاريخ العبرانيّين. وبعد موت سارة تزوّج ابراهيم قطورة بنت يقطان من الكنعانيّين «**فولدت له كما هو مذكور في التوراة، ستة من الولد: زمران، يقشان، مدان، مدين، أشبق، شوخ**»[٦١]. من هنا نستنتج التفاعل الدائم بين العبرانيّين والكنعانيّين، خلافًا لما ورد مرارًا في التوراة التي كانت تلعن الكنعانيّين.

تابع ابن خلدون ذكر أخبار أبناء «النبي ابراهيم»[٦٢]، دون تحديد مصادره، وما قاله يلتقي في مضمونه مع ما ورد في التوراة[٦٣]. من هنا نستنتج أن أرض الشام الممتدّة في فلسطين والأردن هي أرض الكنعانيّين، وكان منهم قبائل عدّة، فصاهر بعضها أبناء ابراهيم واتّخذوا نساء من بنات عنا بن يسعين بن جَوى الكنعانيّين، ومن بنات حي من الكنعانيّين[٦٤].

٤. الكنعانيّون ومصر القديمة

تناول ابن خلدون مجمل تاريخ مصر القديم حتى خضوعها للإسلام، واعتبر شعبها من أقدم أمم العالم وأطولهم أَمدًا في المُلْك، خضع لكثير من الأمم التي عاصرتهم مثل العمالقة والفرس والروم واليونان الذين كانوا يستولون على مصر لفترة، ثم يتقلّص حكمهم فيعود القبط لحكم بلادهم وظلّوا على هذه الحالة حتى انقرضوا في دول الإسلام، وكتب ابن خلدون: «**كانوا يسمّون الفَرَاعِنَةَ سِمَةً لملوك مصر في اللغة القديمة. ثم تغيرت اللغة**

سفينة تجارية فينيقية (القرن الثاني ق.م.) جدارية اكتُشِفَت في صيدا (حاليًّا في المتحف الوطني – بيروت)

٦٠) قصة موت سارة ودفنها، وشراء ابراهيم الأرض، في: تك ٢٣، ١–١٩؛ وخبر موت ابراهيم ودفنه، أورده ابن خلدون. راجع التوراة: **تك ٢٥**، ٨–١٠.

٦١) لأسماء أولاد ابراهيم، **ابن خلدون، ٢**، ص ٧٠؛ ويمكن مراجعة **التوراة: تك**: ٢٥، ١–٣. لكن التوراة لم تذكر أن قطورا كانت كنعانيّة.

٦٢) أشار ابن خلدون إلى أخبار إسحاق، ويعقوب وابنائهما: **ابن خلدون، ٢**، ص ٧٢–٧٨.

٦٣) العهد القديم: تك: ٢٨–٢٩.

٦٤) **ابن خلدون، ٢**، ص ٧٨؛ والخبر عن أبناء عيصو وزوجاته الكنعانيّات: **تك**: ٣٦، ١–٤٣.

وبقي هذا الاسم مجهول المعنى». ونسبهم هو إلى حام بن نوح. ونقل آراء عدة في أصلهم منها عن السُهَيْليّ[٦٥] الذي اعتبرهم من وُلْدِ كنعان بن حام[٦٦].

نقل ابن خلدون عن المسعودي[٦٧] أن بنصر بن حام ولّى ابن أخيه كنعان أرض مصر فاستبدّ بها، ثمّ أوصى بالملْك لابنه مصر فحكم المناطق بين أسوان واليَمَن والعَريش وأَيْلِيَة وفَرْسِيَة فسميت كلها أَرض مصر نسبة إليه. وكان في جنوبها النوبة، وفي شَرْقِيِّهَا الشام، وفي شمالها بحر الزُقاق، وفي غربها بَرْقَة، والنيل دونها. وطال عمر مصر وكبر ولده، وأَوصى بالملْك لأَكبرهم وهو قبط بن مصر أَبو الأَقباط، فطال أَمد ملْكه وكان له أَربعة أبناء. ثمّ عدّ ابن خلدون أسماء ملوك مصر، وذكر أن آخر ملوكهم الأقوياء كان يُدعى أتريب. وبعد وفاته ملكت حُورِيَّا القِبط من بعده، فنازعها أَبْرَاحِس ابن عمّها أَتريب فحاربته وانتصرت عليه فلجأ إلى الشام واستعان بالكنعانيّين، فأرسل ملكهم قائده جِيرُون. ولما اقترب من مصر استقبلته حُورِيَّا وعرضت عليه الزواج على أن يقتل أَبْراحس ويبني مدينة الإِسْكَنْدَرِيَّة ففعل، ثمّ قتلتْه مسمومًا واستقام لها حكم مصر إلى أن ثار عليها أيمن من نسل أَتْريب مطالبًا بثأْر قريبه أَبْراحس فلجأ إلى ملك العمالقة في الشام الوليد ابن دَوْمَع فاستنصر به وجاءَ معه وملَكَ ديار مصر[٦٨].

في هذا النصّ جملة استنتاجات مرتبطة بالكنعانيّين، أبرزها اثنان:

– أدّى الكنعانيّون دورًا في حكْم مصر، وهو ربْط بين الكنعانيّين والمصريّين واعتبارهم شعبًا واحدًا في كثير من المصادر العربيّة، واعتبار فراعنة مصر من الكنعانيّين أبناء حام، فلَه، كما نعتقد، خلفية تاريخيّة على أساس علاقات قديمة قامت بين جبيل ومصر. وفي النصوص والنقوش المصريّة القديمة[٦٩] إشارات كثيرة إلى

٦٥) عبد الرحمن بن عبد الله، مات في العام ٥٨١ ه/ ١١٨٥ م. محدث أندلسي، عالم باللغة والسيَر، من أهل ملقة. كان ضريرًا. من كتبه «الروض الآنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام». الزركلي خير الدين، **الأعلام**، ١–٨، الطبعة العاشرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢. الجزء الثالث، ص ١٤٤.

٦٦) **ابن خلدون**، ٢، ص.١٤٠–١٤٣.

٦٧) حديث المسعودي عن ملوك مصر: المسعودي، **مروج الذهب** ١، ص ٣٩٥–٣٩٩؛ وما نقله ابن خلدون عنه: **ابن خلدون**، ٢، ص.١٤٠–١٤١؛ اطّلعنا على نصّ المسعودي فلم يُشِر إلى الكنعانيّين، وقد يكون ابن خلدون اطّلع على كتاب آخر للمسعودي لم نطّلع عليه.

٦٨) **ابن خلدون**، ٢، ص.١٤٠–١٤٣.

٦٩) لمراجعة بدء العلاقة بين المصريّين وكنعانيّي جبيل وتطوّرها في عهد الدولة القديمة، والآثار المصريّة في جبيل، وأبرز الملوك الذين تركوا آثارًا لهم في جبيل:

الكنعانيّين، ما يعني أن أصداء أحداث تاريخيّة قديمة وصلت إلى المصادر العربيّة، فنقلتها دون تدقيق في تفاصيل التاريخ القديم.

– ورد ذكر الكنعانيّين مع «جيرون» الذي أرسله ملك الكنعانيّين إلى مصر لمحاربة الملكة حوريا. وكان أن ملك العمالقة في الشام غزا مصر واحتلّها، كما أشارت مصادر عربيّة عدّة، بينها: اليعقوبي[٧٠] والمسعودي وأبو عبيد البكري[٧١]. وبذلك ترتبط الجذور بغزوات الهكسوس غُزاة مصر نحو العام ١٧٨٠ وحكْمها بين ١٧٣٠ و١٥٦٠ ق.م. ووفْقَ الآثار المكتوبة في تلك المرحلة، كانت ساميَّةً أسماءُ حكّام الهكسوس في مصر لكن حكمهم إياها لم يترافق مع غزو شعبي كبير غيّر في طبيعة التركيب السكاني للبلاد بل اقتصرت فترة الهكسوس على تبدّل هوية الحكّام ومكان إقامتهم، إذ أقام ملوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة في مدينة أفاريس (Avaris) في منطقة الدلتا. والهكسوس قبائل قوم جاؤوا من الشمال (ربما من مراعي الأستبس في أوراسيا) واختلطوا مع الساميين وتحالفوا معهم ثم احتلّوا واياهم دلتا النيل ووصلوا حتى مصر العليا[٧٢]. وهنا يقدّم ابن خلدون، وغيره من المصادر العربيّة/ إشارات إلى علاقة الكنعانيّين بالهكسوس، والتحالف معهم حتى غزوا مصر واحتلوها نحو قرنَين. لم يتوسّع المؤرّخون العرب بالبحث عن أصل الهكسوس ولا عن علاقتهم بالكنعانيّين، ولا اهتموا بظروف أتاحت التحالف والاتفاق على غزو مصر. فهذه مواضيع لا قدرة للمؤرّخين العرب على الإجابة عنها لأنها تحتاج معطيات أثريّة وعلميّة لم تكن متوفرة في أيامهم.

M. Dunand, "La sixième campagne de fouilles de Byblos", *Syria , IX*, 1928, p. 181; G. SCANDONE, Les sources égyptienne, *Krings*, pp. 58–59.

٧٠) **اليعقوبي**، ١، ص ٢١٠–٢١١.

٧١) **أبو عبيد البكري**، ٢، ص ٥٨٢–٥٨٥.

٧٢) لحكْم الهكسوس مصر وطبيعة سلطتهم فيها وهوية حكامهم، وعلاقتهم بالكنعانيّين: POSENER, "Les Asiatiques en Egypte sous les XII et XIII Dynasties", *Syria XXXIV* (1957), pp. 145–163 ; Bietak Manfred. Où est le palais des Hyksôs ? À propos des fouilles à Tell el-Dabca et 'Ezbet Helmi. In: *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 151e année, N. 2, 2007. pp. 749–780.

تحوُّل سياسي وجغرافي في التاريخ الكنعانيّ-الفينيقيّ

بعد حديث ابن خلدون عن تواريخ البابليّين والعرب والمصريّين القدماء تحدَّث عن تاريخ «بني إسرائيل» وخروجهم من مصر إلى الشام مع موسى[٧٣]. وذكر أن موسى هرب مع قومه من مصر فواجه «جبال الشام» وبلاد «بيت المقدس» التي وُعِدُوا بأن تكون ملكًا لهم. أحصى «بني إسرائيل» وأرسل منهم وفدًا ضمَّ اثني عشر رجلاً من جميع الأسباط «**فاستطابوا البلاد واستعظموا العدوّ من الكنعانيّين والعمالقة، ورجعوا إلى قومهم يخبرونهم الخبر إلا يوشع وكالب فقالا لهم ما قالا، وهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما**»[٧٤]. سخط الله على «بني إسرائيل» وعاقبهم بألاّ يدخل أحد من جيلهم أرض أعدائه إلاّ «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنّا»، فأقاموا في برية سيناء وفاران أربعين سنة[٧٥].

تابع ابن خلدون أن «بني إسرائيل» زحفوا إلى بعض ملوك كنعان وانتصروا عليهم واستولوا على أرضهم[٧٦]. وذكر أن «يوشع بن نون» بعد موت «موسى» دخل أرض الشام، ونقل عن «الطبري» أن يوشع سار بعد موسى إلى أريحا فهزم الجبّارين؛ ونقل عن السدّي أن يوشع تنبأ بعد وفاة موسى وسار إلى أريحا فهزم الجبّارين والكنعانيّين[٧٧]. سار ومعه تابوت الميثاق حتى عبَر الأردن مع قومه وقاتلوا الكنعانيّين فهزموهم، ثم حاصروا أريحا ستة أشهر وفي السابع أسقطوا سور المدينة فاستباحوها وأحرقوها، وكمُلَ الفتح واقتسموا بلاد الكنعانيّين «**كما أمرهم الله**»[٧٨]. ثمّ

٧٣) قصة موسى في مصر وخروجه مع قومه: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٥٢–١٦١.

٧٤) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦١–١٦٢.

٧٥) تفاصيل إحصاء موسى «بني إسرائيل» واستعظام النقباء الاثني عشر الجبّارين، وعقاب الله، وموقف موسى: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦١–١٦٣؛ ورد الخبر في **التوراة: عد**: ١–٣٣.

٧٦) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٣–١٦٤.

٧٧) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٥؛ **الطبري**، ١، ص ٤٣٧–٤٣٨.

٧٨) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٦؛ أورد الخبر هذا الطبري معتمدًا على **التوراة، يش** ٦: ٣–٥؛ وخبر ابن خلدون والطبري وابن الاثير ورد في التوراة، مع فرق أن المؤرّخين العرب الثلاثة جعلوا مدّة الحصار سبعة أشهر فيما ورد في التوراة أنها كانت سبعة أيام، وعلى نحو مشابه للتوراة ذكر أبو الفداء أن سقوط المدينة استغرق سبعة أيام: **أبو الفداء**، ١، ص ٢١.

ذكر ابن خلدون الأمم التي كانت في الشام عندما دخلها يوشع، متميزًا في ذلك عن مصادر عربية أخرى التي اطَّلعنا عليها، وكتب: «**أما الأمم الذين كانوا بالشام لذلك العهد فأكثرهم لبني كنعان، وقد تقدّمت شعوبهم وبنو أروم أبناء عمّون، وبنو مؤاب أبناء لوط، وثلاثتهم أهل يسعير وجبال الشراة وهي بلاد الكرك والشوبك والبلقا، ثم بنو فلسطين من بني حام. ويسمَّى ملكهم جالوت وهو من الكنعانيّين، ثم بنو مدين ثم العمالقة. ولم يؤْذَن لبني إسرائيل في غير بلاد الكنعانيّين فااقتسموها وملكوها وصارت لهم تراثًا. ولم يكن لهم في غيرها إلا الطاعة والمغارم الشرعية من صدقة وغيرها**»[٧٩]. اعتبر ابن خلدون أن أربع أمم كانت في الشام قبل الغزوات: الكنعانيّون، بنو فلسطين، بنو مدين، والعمالقة، وكان الكنعانيّون يشكّلون أكثرية سكان الشام. وهو إذ أشار إلى أن بني فلسطين سبقوا العبرانيّين إلى أرض كنعان لم يُشِر إلى غزوهم بلاد الكنعانيّين بل اعتبر أن مَلِكَهُم كان يُدعى جالوت وهو كنعانيّ.

سور مملكة جبيل في الألف الثالث ق. م.

ثم أشار ابن خلدون إلى فتوحات يوشع، ونقل عن الطبري أنه «**نهض إلى بلد عاي من ملوك كنعان فقتل الملك وأحرق المدينة**»[٨٠]، ودخل في ذمته «خيقون» ملك «عمّان»، و«بارق» ملك أورشليم. وزحف ضد «خيقون» ملك الأرمانيين[٨١]، فاستنجد بيوشع الذي هزم ملك «الأرمن» في

٧٩) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٧.

٨٠) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٩.

٨١) الأرجح أنه يقصد الآراميين الذين أسسوا آنذاك ممالك/دول في سوريا، في دمشق، وحلب، وحماه وغيرها من المدن.

حوران، وتتبع سائر الملوك في الشام فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكًا[٨٢] وقسّم الأرض التي ملكها بين بني إسرائيل[٨٣].

ينقل ابن خلدون عن الطبري ما «**زعم به هشام بن محمد الكلبي**»[٨٤] أن الهاربين من الكنعانيّين بعد يوشع، احتملهم «أفريقش بن قيس بن صيفي» من سواحل الشام إلى المغرب، ومنهم البربر[٨٥]. وفي حديثه عن ملوك التابعية من حِمْيَر نقل ابن خلدون عن «ابن حزم»[٨٦] أن «أفريقش بن أبرهة»: «**هو الذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقيا وبه سُمِّيَت، وساق البربر إليها من أرض كنعان، مرّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل الفلّ منهم وساقهم إلى أفريقيا فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه هو الذي سمّى البرابرة بهذا الاسم لأنه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم فسمّوا البرابرة، والبربرة في لغة العرب هي اختلاط أصوات غير مفهومة، ومنه بربرة الأسد**»[٨٧]. والخبر عن تهجير الكنعانيّين إلى أفريقيا ليس جديدًا بل أوردته معظم المصادر العربية، ومن أبرزها الطبري[٨٨].

نستنتج من المصادر العربيّة إشارة إلى انتشار الكنعانيّين في شمال أفريقيا. ومن خلال النصوص أعلاه يمكن أن نضيف أسبابًا جديدة

---

٨٢) لم ينقل ابن خلدون كل أسماء الملوك الذين هزموا أمام يوشع. وأسماؤُهم في **التوراة: يش ١٢**: ١–٢٤.

٨٣) لتقسيم الأراضي بين «بني إسرائيل» بعد موت يوشع: **ابن خلدون، ٢**، ص ١٧٠؛ **التوراة: يش ١٣**: ١–٣٣.

٨٤) هشام بن محمد السائب، أبو منذر الكلبي، المعروف بابن الكلبي (ت. في العام ٨١٩ أو ٨٢١). ولد في الكوفة وفيها علّم ومات، أيام الخليفة المأمون. اهتم كوالده بالعلْم، وكان عالما بالنسب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها، أخذها عن أبيه وعن جماعة من الرواة. له مؤلفات عدّة ذكرها ابن النديم، منها كتبه في أخبار الأوائل. ابن النديم، **الفهرست**، ص ١٠٨ – ١٠٩.

٨٥) **ابن خلدون، ٢**، ص ١٧٠.

٨٦) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد في قرطبة العام ٩٩٤ م. وتوفي العام ١٠٦٤ م. شاعر وفيلسوف ومؤرّخ ومتكلّم أندلسي. له مؤلفات كثيرة في فقه الحديث، ومنها «طوق الحمامة»، «الفصل في الأمم والأهواء والنحل» وهو تاريخ مقارن للأديان؛ حياته وأبرز مؤلّفاته في: R. ARNALDEZ, "Ibn Hazm", *EI2, III,* pp. 814 – 822. وورد عنده أن «بني إسرائيل» لمّا كفروا، ملكهم الفلسطينيّون وهم الكنعانيّون. ابن حزم الأندلسي الظاهري، أبو محمد علي، **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل**، دار صادر، بيروت، عن المطبعة الأدبية بمصر، ١٩٠٠ م.، ص ١٨٩.

٨٧) حديث ابن خلدون عن أفرقيش بن أبرهة في **ابن خلدون، ٢**، ص ٩٥.

٨٨) أورد الخبر الطبري معتبرًا أن مصادره زعمت بهجرة كنعانية إلى شمال أفريقيا: **الطبري**، ١، ص ٤٤٢.

ساعدت على الانتشار أو فرضَتْه، ومنها الحروب العبرانيّة الكنعانيّة، وربما غزوات الفلسطو. فاستفاد الكنعانيّون من مهارتهم في البحر وارتحلوا نحو شمال أفريقيا هربًا من ضغوطات واجهوها في مدنهم الأم[٨٩]. أما الأسباب المعروفة التي دفعت بالفينيقيّين إلى امتهان التجارة والانتشار فكانت طبيعة أرضهم الجبليّة وانفتاحها على البحر، إضافة إلى غزوات آشوريّة شجّعت الفينيقيّين على الإبحار والتجارة لتأمين الموارد من أجل دفع الضرائب[٩٠].

ما أورده ابن خلدون يتفق مع المصادر العربيّة ومع التوراة وتقاليدها بأن «يوشع بن نون» قاد القبائل العبرانيّة لاحتلال أرض كنعان بالقوّة العسكريّة. أما تاريخ دخول يوشع إلى بلاد كنعان ففير محدّد بدقّة في التوراة[٩١] أو في المصادر العربيّة[٩٢]. ولا تشير مصادر الشعوب القديمة إلى غزوات عسكريّة طاولت بلاد كنعان من جهة مصر في تلك المرحلة[٩٣]. والحفريات الأثريّة لم

الانتشار الفينيقي في النصف الأول من الألف الأول ق.م.

٨٩) ما ورد في المصادر العربيّة عن فرار كنعانيّين من يوشع، يتلاقى (وفق إشارة مراجع في القرن التاسع عشر) مع اكتشاف تمّ في موريتانيا، تحدث عنه «بوجولا» وهو عبارة عن عمودين من حجر أبيض باللغة الفينيقيّة نقش عليهما ما معناه «نحن الذين فرّوا من سطو يشوع بن نون». وورد الخبر عينه في قاموس التوراة في اللغة الانكليزيّة.... إنما العلماء لم يحسموا في صحّة هذا النقش. يمكن الاطلاع على مضمون النقش في: M. POUJOULAT , *Histoire de Jérusalem, tome I*, Vermot, Librairie – Editeur, Paris , 1856, p. 55; William Thomas Bullock «Joshua», *DOB, II*, p. 1809.

٩٠) لأسباب الانتشار الفينيقيّ والدور الأشوريّ ورغبة الفينيقيّين في التفتيش عن موارد أوليّة في الحوض الغربي للمتوسط، وتقوية مركزهم في المنافسة مع الإغريق في: M. Fantar, Carthage 1, pp. 95 – 99.

٩١) **التوراة، عد ٢٠: ١٤–٢١؛ تث ٢: ١–٢٣.**

٩٢) حول نظرة المصادر العربية إلى غزوات يوشع بن نون: مروان أبي فاضل، «**الحضارة الكنعانيّة – الفينيقيّة من خلال المصادر العربيّة (القرن التاسع – القرن السادس عشر م.)**»، ص ٤٠٦ – ٤٠٩.

٩٣) لا تشير المصادر المصريّة إلى «بني إسرائيل» كجماعة متمردة. وأول نقش يشير إليهم كمجموعة تعيش في كنعان تعود إلى عهد مرنفتاح في أواخر القرن الثالث عشر.

تُسفر عن أية نتيجة تثبت أيَّ تحرّكات قامت من سيناء باتجاه جنوب بلاد كنعان[٩٤]. لكنّ حفريات أثريّة أخرى كشفت تعرّض مدن كنعانيّة في الألف الثاني ق.م. لغزوات خارجيّة متكرّرة، وتشير رسائل تل العمارنة إلى خطر قبائل «العابيرو» على المدن الكنعانيّة في القرن الرابع عشر ق.م[٩٥]. وإذا كانت قبائل «العابيرو» هي التي تنسب إلى «عابر أبو العبرانيّين الذين تكلّموا بالعبرانيّة» (كما ورد في المصادر العربية) فهذا يتيح الاعتقاد بأن غزوات يوشع بن نون التوراتيّة خبرٌ أسطوري مضخّم عن إحدى تلك الغزوات التي كانت تشنّها قبائل أجداده على أرض الكنعانيّين منذ القرن الرابع عشر ق.م. وبنتيجة تلك الغزوات استقرت بعض القبائل في مناطق على أطراف المجمّعات السكنيّة الكنعانيّة. وتؤيّد بعض النظريّات أن استقرار القبائل العبرانيّة اقتصر على بعض المواقع الجبليّة في القرن الثالث عشر ق.م.، فيما ظلّ الكنعانيّون متمركزين في المناطق السهليّة حيث كانوا محصّنين ومسلّحين لدرجة عالية تمنع عنهم التعدّيات. ولم يتمكّن العبرانيّون من الاستقرار في فلسطين إلا بعد غزو الفلسطو[٩٦] إذ لا يمكن فصل دخولهم المنطقة عن أحداث كبرى شهدها شرقي المتوسط في الفترة الانتقاليّة بين نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد[٩٧]. لذلك

يمكن مراجعة: N. P. Lemche, « The so-called “Israel-Stele” of Merenptah », in N. P. Lemche, *The Israelites in History and Tradition*, Westminster John Knox Press, 1998, pp. 35–38.

٩٤) الاطلاع على الدراسات الآتية:

I. Finkelstein, *The Archaeology of the Israelite Settlement*, Brill, 1998, pp. 295–302; I. Finkelstein, ,« Kadesh Barnea: A Reevaluation of its Archaeology and History », *TA* 37, 2010, pp. 11–125.

٩٥) تحليل مقولة دخول سلمي للعبرانيين إلى فلسطين، وخطر قبائل العابيرو على المدن الكنعانيّة في:

J. NELIS, « Josué », *DEB*, 1960, pp 978–979.

٩٦) للحملات التي قادها يوشع بن نون، وتطور العلاقات بين الكنعانيين، والاسرائيليين، والفلسطينيّين في:

R. DE VAUX, “Israel”, *DBS, IV*, 1949, pp. 737–739.

٩٧) وضعت دراسات عدّة حول تلك المرحلة التاريخيّة الدقيقة، وناقضت ما جاء في الرواية التوراتية، يمكن الاطلاع على المراجع الآتية:

A. E. Killebrew, Biblical People and Ethnicity: An Archaeological Study of Egyptians, Canaanites, Philistines and Early Israel 1300-1100 B.C.E, (ABS 9), Leiden, 2005; I. Finkelstein, A. Mazar, *The Quest for the Historical Israel: Debating Archaeology and the History of Early Israel. Invited Lectures Delivered at the Sixth Biennial Colloquium of the International Institute for Secular Humanistic Judaism, Detroit, Oct. 2005,* (ABS 17), 2007; T. Levy et

تعتبر الدراسات العلميّة أن إقامة العبرانيّين في كنعان جاءت نتيجة دخول هادئ وسلمي، وهذا ما يناقض التقليد التوراتي «والعربي».

يقودنا تحليل نصوص ابن خلدون إلى استنتاجات حول المرحلة الانتقاليّة بين عصر البرونز وعصر الحديد[٩٨]. يرتبط مصطلح «كنعانيين» بعصر البرونز، وخلاله عاش الكنعانيّون منذ الألف الثالث ق.م. ومعظم الألف الثاني في مناطق واسعة من سوريا ولبنان وفلسطين كانت لهم السيطرة عليها. وتتعدّد الآراء حول بداية ظهور تسمية كنعان في المصادر التاريخيّة القديمة. منها تعتبر أنها تعود إلى الألف الثالث ق.م. لكن الشواهد الأولى المؤكّدة إلى التسمية وردت في نصوص مسماريّة من الثلث الأول من الألف الثاني ق.م. ثم توالت الإشارات إلى الكنعانيّين في النقوش المسماريّة المُكتشفة في ماري (منتصف القرن الثامن عشر ق.م.)، وآلالاخ (القرن الخامس عشر ق.م.)، ورسائل تل العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م.)، وأوغاريت (القرن الثالث عشر)، ونصوص أشوريّة من عهد شلمناصر الأول (١٢٦٣ – ١٢٣٤ ق.م.)، وحتوسا (القرن الثالث عشر ق.م.). وفي مصر أولى إشارات مؤكّدة «كنعان» هي مع الأسرة الثامنة عشر (القرن الخامس عشر ق.م.) واستمرت حتى عهد الأُسرة الثانية والعشرين (بين القرنين العاشر والثامن ق.م.)[٩٩].

من استعراض نصوص المصادر القديمة وتحليلها على ضوء الاكتشافات الأثريّة، يظهر أن الكنعانيّين أسّسوا منذ الألف الثالث ق.م. ممالك غير موحدة، امتدت بشكل خاص على طول الساحل الشرقي للمتوسط. وتأثّر وجودهم في الألف الثاني ق.م. بغزوات الأموريّين الذين أشارت إليهم في بداية الألف الثاني ق.م. نصوص ماري وآلالاخ. وفي القرن الخامس عشر ق.م. كان تعبير أمورو يشير إلى مقاطعة مصرية تمتد بين العاصي

alii.(ed.), *Israel's Exodus in Transdisciplinary Perspective: Text, Archaeology, Culture and Geoscience*, Springer, 2013.

٩٨) نادرةٌ هي الوثائق المكتوبة المرتبطة بعصري البرونز القديم (٣٠٠٠ – ٢١٠٠ ق.م.) والوسيط (٢١٠٠ – ١٥٠٠ ق.م.). وفي عصر البرونز الحديث (١٥٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.) تزيد المعلومات عن الكنعانيّين بعدما النصوص المكتشفة في تل العمارنة وأوغاريت وغيرها قدّمت معلومات أكثر وضوحًا. وللاطلاع على أبرز الاكتشافات المرتبطة بتاريخ لبنان في عصر البرونز (٣٠٠٠– ١٢٠٠ ق.م.):
B. LAFONT, « Le Liban avant les Phéniciens, langues, textes et histoire », in *Dossiers d'Archéologie*, n 350 – Mars/Avril, 2012, pp. 18–21.

٩٩) حول تسمية كنعان في المصادر القديمة: Philip C. Schmitz, "*Research Tools*", p. 2.

والمتوسط من جهة، وبين أرواد وجبيل من جهة أخرى[١٠٠]. إلا أن ذلك لا يعني أن الكنعانيّين ما عادوا يعيشون في تلك المناطق، أو أن سكّان جبيل كانوا من غير الكنعانيّين، مع ترجيحنا أن الكنعانيّين والآموريّين تعايشوا في أكثر من مدينة ومملكة، ولا يمكننا اليوم أن نرسم بشكل دقيق حدودًا تفصل بين ممالكهم[١٠١]. وكانت مراجع رجحت أن أرض الكنعانيّين امتدت منذ الألف الثاني ق.م. من طرابلس شمالاً حتى غزة جنوبًا وصولاً إلى التخوم المصريّة، وفي الشرق شكّلت جبال لبنان ووادي نهر الأردن حدودها الشرقيّة[١٠٢]. ويبقى الامتداد نحو الداخل غير واضح إذ اصطدم بالممالك الآموريّة ولاحقًا بالممالك الآراميّة. ومسألة الحدود بين الدول والأعراق غير محدّدة بوضوح لأن شعوب الشرق القديم لم تكن تولي الموضوع الأهميّة التي نعطيها نحن اليوم، فلا يجوز إسقاط مفاهيمنا حول الحدود على ما كان سائدًا في المنطقة عينها منذ آلاف السنين[١٠٣].

أحدثت التطوّرات العسكريّة والسياسيّة في القرن الثاني عشر ق.م. تحولات حاسمة في تاريخ الكنعانيّين أدّت إلى انحسار نفوذهم عن بعض السواحل الشرقيّة للمتوسط. ومن أبرز أسباب تلك التحولات التي لم يذكرها ابن خلدون، تغلغل قبائل العبرانيّين في جنوب بلاد كنعان تزامن مع غزوات شعوب البحر واستقرار الفلسطو في مدن الساحل الفلسطيني[١٠٤]؛

١٠٠) حول انتشار أرض الآموريين: M. ABOU – ABDALLAH, *l'Histoire du Royaume de Byblos à l'age du Fer 1080 – 333*, Peeters, Leuven – Paris – Bristol, 2018, pp. XXVII – XLI.

١٠١) أشارت بعض المصادر إلى أن الآموريين هم فعلاً من القبائل الكنعانيّة كما سبق وأشار فلافيوس يوسيفيوس:
FLAVIUS Josèphe, *Antiquité Judaïque*, I, 138 – 139.

١٠٢) حول تسمية كنعان في المصادر القديمة وامتدادها الجغرافي:
Philip C. Schmitz, "*Research Tools*", p. 2.

١٠٣) حول حدود بلاد الفينيقيين وطبيعتها الجغرافية ومواردها الطبيعية:
M. DUNAND, "Phénicie", *DBS, VII*, 1966, pp. 1142–11450.

١٠٤) للاطّلاع على أصل شعوب البحر وحروبهم في الساحل الشرقي للمتوسط في:
C. S. Ehrlich, The Philistines in Transition. A History from ca. 1000-730, Brill, 1996; S. Gitin et alii (éd.), Mediterranean Peoples in Transition, Thirteenth to Early Tenth Century BCE. In Honor of Pr. Trude Dothan, Jerusalem, 1998 ; X. FAIVRE, "Peuples de la Mer", DCM, pp. 644 – 647; A. E. Killebrew, Biblical People and Ethnicity. An Archaeological Study of Egyptians, Canaanites, Philistines and Early Israel 1300-1100 B.C.E, (ABS 9), Leiden, 2005 ; A. E. Killebrew et G. Lehmann (ed.), The Philistines and other "Sea Peoples" in Texts and Archaeology, SBL 15, 2013.

وسقوط مدينة أوغاريت نحو العام ١١٨٥ ق.م. بعد اضطرابات أهلية بين سكّانها أدّى إلى تركها تدريجيًا[١٠٥]؛ واستقرار القبائل الآراميّة في المناطق السوريّة الداخلية، وفي بعض المناطق البقاعيّة في لبنان[١٠٦]. لذا تقلّص امتداد الكنعانيّين السياسي في الألف الأول ق.م. أي خلال عصر الحديد (١٢٠٠ ق.م. – القرن الرابع ق.م.) إلى المُدُن الفينيقيّة الممتدة بين عكّا جنوبًا وراس البسيط وأرواد شمالاً[١٠٧]. لكن أثر الكنعانيّين الحضاري ظل قائمًا في مناطق انتشارهم فلم يشهد التاريخ انقطاعًا حضاريًا بين عصرَي البرونز والحديد[١٠٨].

٦. علاقة الكنعانيّين بداود وسليمان حتى انقسام المملكة

تابع ابن خلدون «الخبر عن حكّام بني إسرائيل بعد يوشع»[١٠٩]، وذكر أنْ لما قبض الله يوشع بعد استكمال الفتح، ضيّع «بنو إسرائيل» الشريعة. وظلّوا دون ملِك حتى طلبوا من نبيّهم شمويل أن يرسل إليهم ملكًا فأرسل طالوت، وتُسمّى المدة بين يوشع وطالوت مدّة الحكام[١١٠]. وأوضح ابن خلدون منهجيًّا مصادر دراسته هذه الفترة: «**أنا الآن أذكر من كان فيها من**

١٠٥) طويلاً أجمع المؤرّخون على أن مدينة أوغاريت سقطت بعد تعرّضها لغزوات قاسية من شعوب البحر بحدود العام ١١٨٥ ق.م. فيما كان للحروب الأهليّة الأثر الأكبر على هجر السكان لمدينتهم: M. YON – M. SCNYCER – P. BORDREUIL, *Le pays d'Ougarit autour de 1200 av. J.-C.* (Ras Shamra – Ougarit XI), Actes du Colloque International, Paris, 28 Juin – 1er Juillet 1993, Paris, 1995.

١٠٦) استفاد الآراميّون من الفراغ السياسي الذي أحدثته غزوات شعوب البحر وأسّسوا ممالك متفرقة. لمزيد من المعلومات عن أصلهم وممالكم: L. BARCHELOT – F. JOANNES, "Araméen (peuple)" , *DCM*, pp. 65–68.

١٠٧) تتعدد النظريات حول حدود انتشار المدن الفينيقية، ويعتبر بعض المؤرخين أنها امتدت على الساحل الشرقي للمتوسط من اللاذقية شمالاً حتى غزة جنوبًا، يمكن مراجعة أسماء مدن الفينيقيين وحدود انتشارها، وأبرز اللقى الأثرية فيها: J.Fr. SALLES, Phénicie, *Krings*, p. 562 – 569; Philip C. Schmitz, "*Research Tools*", p. 2.

١٠٨) حول الانتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد، أي من العصر الكنعاني إلى الفينيقي: Ann E. Killebrew, "Canaanite Roots, Proto-Phoenicia, and the Early Phoenician Period: ca. 1300–1000 bce", in *The Oxford Handbook of the Phoenician and Punic Mediterranean*, pp. 1–16.

١٠٩) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٨–١٧٨.

١١٠) معروفة في التوراة بـ«عهد القضاة».

مدخل المرفأ في مملكة صور الفينيقيّة

الحكّام على التتابع معتمدًا على الصحيح منه، على ما وقع في كتاب الطبري والمسعودي ومقابلاً به ما نقله صاحب حماة[١١١] من بني أيوب في تاريخه عن سفْر الحكام والملوك من الإسرائيليّات، وما نقله أيضاً هروشيوش مؤرّخ الروم في كتابه الذي ترجمه للحَكَم المستنصر من بني أميّة قاضي النصارى وترجمانهم بقرطبة، قاسم بن أصبغ»[١١٢].

كان طالوت أول الملوك. حارب أعداء «بني إسرائيل» من «بني فلسطين» و«مؤاب» والعمالقة ومدين. ثم خلفه داود الذي قاتل «بني كنعان» وغلبهم، وطالت حروبه ضد «بني فلسطين» واستولى على كثير من بلادهم. كذلك حارب أهل مؤاب، وعمّون وأهل أدوم وانتصر عليهم. وضرب الجزية على «الأرمن» (الأراميّين) في دمشق وحلب[١١٣].

ثم قام بالملك من بعد داود في «بني إسرائيل» ابنه سليمان، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة[١١٤] «فاستفحل ملكه، وغالب الأمم، وضرب الجزية على جميع ملوك الشام: مثل فلسطين وعمّون وكنعان ومؤلب وأدوم، والأرمن»[١١٥]. وفي السنة الرابعة من ملْك سليمان شرع ببناء الهيكل في بيت المقدس. وكتب ابن خلدون أن سليمان «بعث إلى ملك صور ليُعينه في

---

١١١) هو أبو الفداء.

١١٢) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٦٩.

١١٣) أخبار طالوت وحروبهم، وانتقال السلطة إلى داود، وحروبه ضد أعداء بني إسرائيل: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٨٠–١٨٥.

١١٤) لأخبار سليمان كاملة: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٨٥–١٨٩.

١١٥) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٨٥؛ ورد في التوراة: «**وكان سليمان متسلطًا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر**» (١ مل: ٤، ٢١)؛ «**كان**

قطع الخشب من لبنان. وأجرى على الفعَلة فيه كل عام عشرين ألف كرٍّ من الطعام، ومثلها من الزيت ومثلها من الخمر. وكان الفعَلة في لبنان سبعين ألفًا، ولنحت الحجارة ثمانين ألفًا، ولخدمة المناولة سبعين ألفًا. وكان الوكلاء والعرفاء على ذلك العمل ثلاثة آلاف وثلثمائة رجل». ثم وصف الهيكل والثروات التي احتواها، وذكر أنه بنى بيتًا عظيما سمّاه «غيضة لبنان» ووصفه[١١٦].

لم تترك المصادر العربيّة معلومات كثيرة عن علاقة الملكَين داود وسليمان بالكنعانيّين، مع أن المصادر استفاضت في الحديث عن سليمان، معتمدة على تقليد توراتي اعتبره من كبار الأنبياء[١١٧].

تميّز عمل ابن خلدون عن كل المصادر العربيّة الأخرى بأنه تفرّد في وصف هيكل سليمان وباقي أبنيته، واعتبر أن الصوريّين لعبوا دورًا رئيسيًا في البناء إذ أعانه ملك صور بقطع الخشب من لبنان. لكنه لم يذكر المصدر الذي استند إليه. وما نقله عن وصف الهيكل وباقي البيوت ورد في التوراة، فاعتمد عليها لوصف ما أراد وصفه وتغاضى عن ذكر معلومات أخرى، أبرزها عدم ذكره اسم ملك صور «أحيرام»، ومعلومات أخرى فيها تفاصيل عن أعمال البناء[١١٨].

بعد موت سليمان تولّى السلطةَ ابنه «رحبعام» فزاد الضرائب وأساء معاملة كبار الأسباط فقاموا ضده، وجاءهم «يربعام بن نباط» من مصر فبايعوه. وانقسمت مملكة سليمان إلى مملكتين[١١٩]. تحدّث ابن خلدون عن «ملوك يهوذا» أي خلفاء داود وسليمان، ولم نرَ إشارات واضحة إلى تاريخ الكنعانيّين.

ثم انتقل إلى الكلام على «ملوك إسرائيل» أي ملوك الأسباط العشرة. ومنهم نذكر أحاب بن عمري[١٢٠] الذي كان، بحسب ابن خلدون، على مذهب

متسلّطا على كل ما عبر النهر من تفسح إلى غزة على كل ملوك عبر النهر وكان له صلح من جميع جوانبه حواليه»، **١ مل:** ٤، ٢٤.

١١٦) **ابن خلدون**، ٢، ص ١٨٦–١٨٧.

١١٧) يمكن مراجعة نظرة القرآن الكريم والمصادر العربية إلى سليمان في الموسوعة الإسلاميّة.
J. WALKER – P. FENTON, "Slayman B. Dawud", *EI2, IX*, pp. 857–858.

١١٨) وصف الهيكل في التوراة ومدى التقارب مع معلومات ابن خلدون.**١ مل:** ٦، ١–٣٧؛ ووصف «بيت غابة لبنان» أو «غيضة لبنان» بحسب «ابن خلدون». **١ مل:** ٧، ١–٧؛ ويمكن وصف بيت ابنة فرعون: **١ مل:** ٧، ٨–١٢.

١١٩) افتراق «بني إسرائيل» إلى مملكتين: **ابن خلدون**، ٢، ص ١٩١–٢٢٠.

١٢٠) لأخبار احاب: **ابن خلدون**، ٢، ص ٢١٤–٢١٦.

والده من الكفر والعصيان، وكتب عنه: «**تزوج بنت ملك صيدا، وبنى هيكلاً بسامرة وجعل فيه صنمًا يسجد له، وأفحش في قتل الأنبياء، وبنى قرية أريحاء ودعا عليه إيليا النبي، فقحطوا ثلاث سنين خرج فيها إيليا إلى البرّية وسكنها. ثم رجع فدعا وأنزل الله المطر وذبح الذين حملوا أحَاب على عبادة الأصنام. هكذا قال إبن العميد**[١٢١]. **والذي قاله الطبري: إن هذا النبي الذي دعا عليهم هو الياس بن سين وقيل ابن ياسين من نسل فنحاص ابن ألعازر. وكان بعث إلى أهل بعلبك وإلى أحاب وقومه**». ثمّ نقل ابن خلدون بإيجاز عن الطبري خبر الياس وقصة الجفاف[١٢٢]، لكنه لم يشر إلى أن «أحاب» سجد للبعل وإن مَن حمَله على عبادته هم كهنة البعل، كما لم يذكر أن امرأته هي «إيزابيل» التي أشارت إليها مصادر عربيّة أخرى[١٢٣].

٧. قرطاجة وروما

تناول ابن خلدون تاريخ اليونان والرومان مشتملاً على أنسابهم وملوكهم ودولهم، والأحداث المهمّة التي جرت في عهدهم[١٢٤]. وفي دراسته تاريخَ الرومان أشار إلى حروب دارت بين الرومان وقرطاجة[١٢٥]. ومن تحليل النصّ نتبيّن إشارة إلى تأسيس قرطاجة ودمارها: «**إن بناء قرطاجنة كان قبل بناء روما بإثنتين وسبعين سنة. قال هروشيوش على يدّي ديدن بن**

---

١٢١) ما نقله عن ابن العميد قصة مختصرة للتوراة (التوراة، ٣ مل: ١٧، ١٨–٤٦). وابن العميد هو جرجس بن العميد بن الياس المعروف بالمكّين، مؤرّخ سرياني، أصله من تكريت، ومولده في القاهرة. تعتبره الموسوعة الإسلاميّة مؤرّخًا قبطيًّا كتب بالعربيّة. ولد سنة ٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥ م. وتوفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣ م. ومن أبرز مؤلفاته «تاريخ المجموع المبارك».

Cl. CAHEN – R.C. COQUIN, "Al – Makin B. Al. Amid", *EI2, VI*, pp. 141–142.

١٢٢) نقلها عن الطبري: **ابن خلدون**، ٢، ص ٢١٤–٢١٦؛ **الطبري**، ١، ص ٤٦١–٤٦٦.

١٢٣) لنظرة المصادر العربيّة إلى الصراع بين النبي الياس وكهنة البعل: مروان أبي فاضل، «جبل الكرمل: صراع طويل بين النبي الياس وكهنة بعل صور»، **مجلة مرايا التراث**، العدد الثالث، ينشرها مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانيّة الأميركيّة، خريف ٢٠١٥، بيروت، ٢٠١٥، ص ١٣٤–١٥٧.

١٢٤) لنظرة ابن خلدون إلى تاريخ اليونان: مروان أبي فاضل، «نظرة ابن خلدون إلى تاريخ اليونان القديم»، **مجلة المشرق**، السنة التاسعة والثمانون، الجزء الأول، كانون الثاني – حزيران، بيروت، ٢٠١٥، ص ٦٩–٩٦.

١٢٥) ورد بعنوان «**الخبر عن فتنة الكيتم مع أهل أفريقيا وتخريب قرطاجنة ثم بناؤها على الكيتم وهم اللطينيّون**»، **ابن خلدون**، ٢، ص ٤٠٢–٤٠٤.

أليثا من نسل عيصو بن اسحاق، وكان بها أمير يسمّى ملكون»[١٢٦].

لم يربط ابن خلدون بين ديدن مؤسس قرطاجة والكنعانيّين الذين «فرّوا من غزوات يشوع بن نون». ولَم يُشِر إلى أسطورة إليسا. وكتاب أوروز لم يشر إلى الأسطورة، ولا يتلاقى مع ما ورد عند ابن خلدون، ربما لاختلاف في الترجمة التي وصلت إلى ابن خلدون، أو أنه اكتفى بالإشارة إلى مصدره دون التزام بما نقله عنه حرفيًّا. فأوروز أشار باختصار شديد إلى بناء قرطاجة، معتبرًا أن ذلك «**تمّ سنة اثنتين وسبعين قبل بناء روما على يد «هيليسا» (*Hélissa*)، بسبب كوارثها وشرورها الداخلية، وفق ما أورده تروغ بومبي (*Trogue Pompée*) وجوستان (*Justin*)**»[١٢٧]. وتناول الأخير تاريخ صور[١٢٨] ذاكرًا أن إليسا (*Elissa*) بَنَت قرطاجة، منتقدًا فساد سكّانها وممارساتهم الدينيّة التي اعتبرها دمويّة وإجراميّة، شاجبًا كيفيّة تضحيتهم بأولادهم على مذابح آلهتهم[١٢٩]. وأوروز لم يحدّد أسباب بناء قرطاجة مع أنه ذكر عددًا من المصادر الكلاسيكيّة إنما لم يطّلع عليها كلها، كعادة عدد من المؤرّخين عهدذاك[١٣٠].

في الاطلاع على مختصر ما ورد في المصادر الكلاسيكيّة عن تأسيس قرطاجة تظهر نظرة سلبيّة رافقت تاريخ الكنعانيّين في التوراة والمصادر العربيّة، انتقلت في المصادر الكلاسيكيّة إلى الفينيقيّين في شمال أفريقيا. وابن خلدون لم يتبنَّ تلك النظرة، وما رواه يلتقي في نواحٍ عدة مع المعلومات المتداولة اليوم حول بناء المدينة. فبناؤُها تمّ على يدِ «إليسا» المعروفة في المصادر اليونانية بديدون، أي التائهة. وعند ابن خلدون على

---

١٢٦) **ابن خلدون**، ٢، ص ٤٠٢.

١٢٧) في نصّ أوروز:

« Carthage fut fondée par Hélissa, soixante-douze ans avant la ville de Rome, de ses désastres et de ses maux intérieurs selon ce qu'exposent Trogue Pompée et Justin », Orose, *Histoires contre les païens*, IV, 6, 3–5.

١٢٨) جوستان: أحد آباء الكنيسة وشهدائها، فيلسوف عاش في القرن الثاني ميلادي، ولد في نابلس في السامرة في عائلة وثنية ثم اعتنق المسيحيّة. وترك مؤلّفات في الفلسفة والتاريخ واختصر كتاب المؤرخ الغالي من القرن الأول الميلادي تروغ بومبي. لمعلومات عن سيرته: B. POUDERON, "Justin", *DA*, p. 1198.

١٢٩) للاطلاع على نصّ جوستان:

Justin, *Abrégée des histoires Philippiques de Trogue Pompée*, traduction nouvelle de E. CHAMBRY et L.THELY-CHAMBRY, Librairie Garnier, Paris, s.d, *XVIII*, VI, 9–12.

١٣٠) للاطلاع على أسماء المؤرّخين الذين ذكرهم أوروز: F. PASHOUD, «Orose», *DECA, tome II*, p. 1842.

يد «ديدَن بن إليثا». ولم تتطرّق المصادر العربيّة إلى بناء قرطاجة عدا إشارة أبو عبيد البكري[١٣١] إلى بنائها بواسطة ملك يُدعى «ديدون» كان «**في زمن داود**»[١٣٢]. ولا نستغرب أن هذين المؤرخَين انفردا في ذكر بناء قرطاجة وكلاهما من شمال إفريقيا.

ضعف إشارة المصادر العربيّة إلى تاريخ قرطاجة أن التوراة لم تورد أي إشارة إلى تأسيسها، فيما أشار إلى الموضوع «فلافيوس يوسيفيوس» في استعراضه تاريخ ملوك صور، وأشار إلى عهد الملك بيغماليون الذي حكم ٤٧ عامًا، وذكر أن أخته فرّت في السنة السابعة من حكمه، دون أي ذكر لاسمها، وأسست في ليبيا (أفريقيا) مدينة قرطاجة[١٣٣].

بناء المدينة ورد في مصادر كلاسيكيّة لم تطلع عليها المصادر العربيّة، مع أن نظرة المصادر الكلاسيكيّة لم تكن موحّدة بل انقسمت نظريتين: أولى رأى مطلقوها أن المدينة تأسّست على يد بطلين: «زوروس» و«كرشيدون» قبل حرب طروادة[١٣٤]، وهذا يتناقض مع الاكتشافات الأثرية الحديثة، والأخرى تناول مطلقوها أسطورة إليسا واعتبروها هربت من صور خوفًا من أخيها الملك بيغماليون، وأسّست «المدينة الجديدة» «**قرت حدشت**» في شمال أفريقيا[١٣٥].

---

١٣١) وُلد على الأرجح ولد في لبلة في الأندلس حوالى ٤٠٠هـ/١٠١٥م أو بعد ذلك بقليل، ونشأ في قرطبة حيث تلقّى ثقافته الأدبية والعلمية. حياته والاختلاف في تاريخ مولده: أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، ١–٢، حقّقه قدّم له وفهرسه أدريان فان لوفن، أندري فيري، الدار العربية للكتاب، قرطاج، ١٩٩٢، ج ١، ص ٨–١١؛ وللتوسع أكثر عن عائلته وأبرز مناطق تنقّل فيها:
E – LEVI E PROVENCAL, "Abu – 'Ubayd Al Bakri", *EI2, I*, pp. 159 – 160.

١٣٢) **أبو عبيد البكري**، ٢، ص ٦٩٩.

١٣٣) لإشارة فلافيوس يوسيفيوس إلى بناء قرطاجة: FLAVIUS Josèphe, *Contre Apion*, traduit par T. REINACH et L. BLUM, 1930., *I*, XVIII, 116 – 126.

١٣٤) بين مؤرّخين أشاروا إلى هذه الرواية: «فيليستروس دي سيراكيوز» (Philistros de Syracuse) مؤرخ روماني من القرن الرابع م. و«أودوكس دي كنيد» (Eudoxe de Cnide) معاصر فيليستروس، و«أبيان» (Appien) كاتب «التاريخ الروماني» حتى العام ١٦٥ م. حول نظرة تلك المصادر إلى بناء قرطاجة ونصوص تناولت أسطورة إليسا:
G. BUNNENS, L'Expansion Phénicienne en Méditerranée, Essai d'interprétation fondée sur une analyse des traditions littéraires, Bruxelles–Rome, 1979., pp. 126-129, 226 – 229.

١٣٥) وصلتنا مغامرات إليسا من المؤرخ الصقلي «تيمي دي تاورمين» (Timée de Taormine) الذي كتب في القرن الثالث ق.م. وفيرجيل (Virgile) المتوفي في العام ١٩ للميلاد، وتروغ بومبي، وجوستان وسيليوس إيتاليكوس (Silius Italicus) وكثيرين غيرهم. للاطلاع على مصادر كلاسيكيّة أشارت إلى تأسيس قرطاجة: G. BUNNENS, *L'Expansion Phénicienne en*

وتظهر الدراسات المعاصرة المستندة إلى حفريات أثريّة أن مملكة صور وصيدا الموحّدة[١٣٦] بنَت «قرت حدشت» أي المدينة الجديدة «قرطاجة» نحو العام ٨١٧/٨١٦ ق.م. ثمّ تحوّلت أمبراطوريّة بحريّة في الحوض الغربي للمتوسط، فاصطدمت عسكريًّا بالإغريق والرومانيّين[١٣٧].

لم يشر ابن خلدون إلى الحروب الإغريقيّة القرطاجيّة بل أشار باختصار إلى الحروب البونيّة: «**صار ملك أفريقية إلى أملقا من ملوكهم، فافتتح صقليّة وهاجت الحرب بينه وبين الرومانيين وأهل الإسكندرية بسبب أهل سردانية وذلك لخمسين سنة من بناء روما. ثم وقّعت السلم بينهم. وتولى حكم قرطاجة بعد «أملقا» ابنُه «أنبيل»: «فأجاز إلى بلاد الفرنج وغلبهم على بلادهم، وزحف إليه قواد روما فوالى عليهم الهزائم، وبعث أخاه اشدريال إلى الأندلس فملكها. وخالفه قواد الرومانيين إلى أفريقيا بعد أن ملكوا من حصون صقليا أربعين أو نحوها. ثم أجازوا إلى أفريقيا فملكوها، وقتلوا غشّول خليفة أنيبل فيها وافتتحوا مدينة جردا. وخرج آخرون من قواد روما إلى الأندلس فهزموا أشدريال واتّبعوه إلى أن قتلوه، وفرّ أخوه أنبيل عن بلادهم بعد ثلاث عشرة سنة من إجازته إليهم. وبعد أن حاصر رومة وأثخن في نواحيها لحق بأفريقية ولقيه قواد أهل رومة الذين أجازوا إلى أفريقية، فهزموه وحاصروه بقرطاجنة حتى سأل الصلح على أن يغرّم لهم ثلاثة آلاف قنطار من الفضة، فأجابوه إليه وسكنت الحرب بينهم، ثم ظاهر أنبيل صاحب أفريقية ملوك السريانيين على حرب أهل رومة، فهلك في حربهم مسمومًا. وبعد أن تخلص أهل رومة من تلك الحروب رجعوا إلى الأندلس فملكوها، ثم أجازوا البحر إلى قرطاجنة ففتحوها، وقتلوا ملكها يومئذ أنبيل وخرّبوها لتسعمائة**

Méditerranée, pp. 132–136, 174–186 ; M. Fantar, *Carthage. Approche d'une civilisation*, 1–2, Tunis,1993., T. I, pp. 82–83.

١٣٦) حول مملكة صور وصيدا الموحّدة، ودورها بتأسيس قرطاجة: مروان أبي فاضل، «صيدا وصور في العصر الحديد – مملكة موحدة أم مملكتان؟»، **مجلة مرايا التراث**، العدد السادس، ينشرها مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الأميركية، ربيع/صيف ٢٠١٧، بيروت، ٢٠١٧، ص ٢٠ – ٤٨.

١٣٧) حول الواقع العلمي المتعلق بتأسيس قرطاجة، وتأكيد تأسيسها في القرن التاسع ق.م.:

G. BUNNENS, *L'Expansion Phénicienne en Méditerranée*, pp.320 – 324; M. Fantar, *Carthage. Approche d'une civilisation*, T. I, pp. 104–106; V. KRINGS, L'histoire événementielle Partim Occident, *Krings*, pp. 238 – 239.

سنة من بنائها، وسبعمائة لبناء رومة»[١٣٨]. ثم ذكر خبر الحرب التي دارت بين الرومان وملك النوبة، وختم: «**قواد روما اجتمعوا على بناء قرطاجنة وتجديدها لإثنتين وعشرين سنة من خرابها، فعمرت واتصل بها لأهل رومة ملك**»[١٣٩].

مختصَرةً كانت إشارة ابن خلدون إلى حروب هنيبعل ضد الرومان («الحرب البونيّة الثانية») لكنها واضحة مع خطإٍ واحد تمثّل بعدم ذكره اسم القائد الذي هزم «هنيبعل»، والمعروف اليوم أنّه «شيبيون الإفريقي». أما «أشدريال» الذي اعتبره ابن خلدون أخا هنيبعل الذي استولى على الأندلس، فهو فعلاً «هسدرو بعل» الذي استولى على إسبانيا. ودمار المدينة على يد الرومان إشارة واضحة إلى الحرب البونيّة الثالثة التي شنّتها روما للقضاء نهائيًا على قرطاجة في العام ١٤٦ ق.م. وتناول أوروز بشكل موسّع تاريخ الحروب البونيّة الثلاث[١٤٠] معتمدًا على المصادر المعروفة في عصره[١٤١] إلا أن ابن خلدون لخَّص ما ورد عنده مكتفيًا بإشارات دقيقة عن تأسيس المدينة وسقوطها دون أن يبدي أي رأي منتقد لقرطاجة أو مدافع عنها.

تمثال حجري يمثّل هنيبعل (متحف اللوفر-باريس)

٨. منهجيّة ابن خلدون التاريخيّة

اعتمد ابن خلدون سردًا تاريخيًّا بنقد روايات تاريخيّة قديمة مبيّنًا معالجة مؤرّخين إياها بمضمون خرافي لا يتلاقى مع الحقيقة والعقل، موضحًا الخبر الصحيح ومبرّرًا وجهة نظره اعتمادًا على مصادر متنوّعة. وكان أحيانًا يضع الخبر ضمن حيّزه الجغرافي ليحدد مدى تطابق

١٣٨) **ابن خلدون**، ٢، ص ٤٠٢–٤٠٣.

١٣٩) **ابن خلدون**، ٢، ص ٤٠٣–٤٠٤.

١٤٠) للاطلاع الحروب البونيّة الثلاث في مؤلف أوروز: Orose, *Histoires contre les païens*, IV, 6–23.

١٤١) لمزيد من المعلومات عن مصادر الحروب البونيّ وأبرز المراجع:
M. Le GLAY – J-L. VOISIN – Y. Le BOHEC, *Histoire romaine,* 3ème édition, PUF, 1999, p. 83; J-P. MARTIN – A. CHAUVOT – M. CEBEILLAC-GERVASONI, *Histoire romaine,* 3ème édition, Armand Colin, 2013, p. 99.

الحدث التاريخي مع الأرض التي وقع فيها[١٤٢]. واستعرض أمثلة كثيرة حول أخبار تاريخيّة خرافيّة تناقلها بعض المؤرخين عن بعضهم[١٤٣]، وبيّن كيفية كتابة الخبر الصحيح.

تناول «ابن خلدون» التاريخ منذ بدء الخليقة، واشتمل على أخبار تاريخيّة متصلة بالكنعانيّين حاول معالجتها وفق منهجيّة عرضها في مقدمته. لكنه لم يصل إلى غايته بشكل كامل، إذ «لا يستطيع أحد منفردًا كتابة تاريخ عالمي شامل حسب الأطر التي وضعت في مقدمة ابن خلدون»[١٤٤].

استند ابن خلدون إلى مصادر متنوّعة، ورفض أخبارًا اعتبرها غير منطقية، ولم يتوانَ عن تصحيح الروايات التاريخيّة وتحدّي رأي أكثرية المتكلمين والفقهاء والمؤرّخين في عدد كبير من المسائل الخلافيّة[١٤٥]. ففي حديثه عن أبناء نوح الذي استنتجنا منه أصل الكنعانيّين استند إلى مصادر عدّة مصدّقًا بعضها وناقدًا بعضها الآخر. فتفوّق على غيره من المؤرّخين العرب في دراسة أنساب الأمم وأصاب في جمع معلومات مشتّتة، وعرض رأيه بوضوح دون الوقوع في تناقض أو غموض. وتوصّل إلى استنتاج مفاده أن الكنعانيّين حاميّون فلم يقع في تناقض ظهر لدى بعض المصادر العربية التي أعطتهم أصلين: سامي وحامي. وكان واضحًا في الحديث عن العمالقة الساميين إذ لا يلتقون مع الكنعانيّين بنسب واحد إنما عاشوا معًا على أرض واحدة هي «أرض الشام».

قدّم «ابن خلدون» تفسيرًا منطقيًا لقصّة «نمرود بن كنعان بن كوش بن حام» الذي حكم في بابل. واعتبر أن نمرود هو ابن كنعان، وأن الأخير خرج من «أرض كنعان في الشام» وغلب على بابل وأكثر المعمور،

١٤٢) كتشكيكه في ما نقله المسعودي ومؤرخون أن يكون عديد جيوش بني إسرائيل لما أحصاهم موسى كان ستمائة ألف أو أكثر، بسبب ضيق أرض شهدت تقدم تلك الجيوش في أرض الشام ومصر. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣.

١٤٣) لنقدِ ابن خلدون بعضَ الأخبار التاريخية. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣–٥٦؛ وللاطلاع على تقاليد وأساطير رفضها ابن خلدون: V. MONTEIL, ''Ibn Khaldoûn, sociologue et historien (1332–1406)'', *Rev. his., 237, (1967),* p. 349.

١٤٤) للاطلاع على علاقة مقدمة ابن خلدون بمعلومات تاريخية أوردها في كتابه واعتبار المؤرخ «تالبي» أن كتاب العبر لم يأتِ على مستوى المنهجية التي وضعت في المقدمة:

M. TALBI, "Ibn Khaldun", *EI, III,* p. 853.

١٤٥) طريف الخالدي، **فكرة التاريخ عند العرب، من الكتاب إلى المقدمة**، ترجمة حسني زينة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٨٣.

فأوضح مسألة الملك الكنعاني الذي حكم في بابل. واستعرض آراء بعض المؤرّخين في أصل نمرود ونسبه. مثل: «ابن سعيد» صاحب كتاب المبتدأ، و«الطبري»، و«المسعودي» و«هروشيوش مؤرخ الروم». وناقش أراءهم المختلفة ساعيًا إلى إيضاح كل فكرة يدرسها. والجديد الذي قدّمه ابن خلدون مقارنةً بباقي المصادر العربيّة، أنه تنقّل بين شمال أفريقيا ومصر والأندلس، واطّلع على مصادر جديدة لم تصل إلى غيره من المؤرّخين العرب، أبرزها المصادر اعتماده في أكثر من موضع على المؤرخ المسيحي «أوروز» الذي يسميه هروشيوس المعروف بباولوس أوروسيوس (٣٨٥–٤٢٠م.) (Paulus Orosius)[١٤٦] دون أن يقدّم معلومات وافية عن حياته ومؤلّفاته.

في حديثه عن تاريخ الكنعانيّين «وبني إسرائيل» استند بشكل رئيس إلى العهد القديم[١٤٧]، لكنه وضّح مرارًا أن الأسماء المنقولة عنه مغايرة بمخارج حروفها عن الحروف العربية. ونقل عن مصادر أخرى «السدّي»، و«الطبري»، و«المسعودي»، و«أبو الفداء»، والاسرائيليّات[١٤٨]، و«هروشيوش».

١٤٦) هو باولوس أوروسيويس (٣٨٥–٤٢٠) Paulus Orosius: المعلومات عن حياته قليلة لنقص مصادر أشارت إليه. ولد في تاراغونيا (Tarragona) في أسبانيا، أو في براغا (Braga) في البرتغال. هو كاهن ولاهوتي إيبيري التقى القديس أوغسطينوس في العام ٤١٥، وطلب منه الأخير أن يكتب تاريخ العالم للردّ على «الوثنيين» فترك كتابًا من سبعة أجزاء ضمّنه تاريخ العالم من آدم إلى الزمن الذي عاش فيه، هدفه الدفاع عن نظريات القديس أوغسطينوس في كتابه «مدينة الله»، محاولاً ردّ الاتهام الذي حمّل المسيحية وزْر ضعف الأمبراطورية الرومانية. لم ينل الكتاب تقدير القديس أوغسطينوس، ومع ذلك بدأ المؤرخون الأوروبيون منذ أواخر القرن الخامس الميلادي يعتمدون عليه كمصدر من مصادرهم. تُرجِمَ إلى العربية في عهد الحكم الثاني الخليفة الأموي في قرطبة، وأضحى المصدر الأساس الذي اعتمد عليه ابن خلدون لكتابة المواضيع المرتبطة بتاريخ الأوروبيّين القديمة والوسيطة. لم يصلنا الكتاب مترجمًا إلى العربية بل نطلع على الترجمة الفرنسية. حول حياته وأقسام الكتاب ومصادره والمخطوطات العائدة له: Orose, *Histoires contre les païens*, pp. VII – CIII.

١٤٧) عاشت جماعات يهوديّة ومسيحيّة في الجزيرة العربيّة قبل الاسلام، واعتمدوا في حياتهم اليوميّة على اللغة العربيّة وكان طبيعيًّا أن يعمدوا إلى ترجمة الكتب المقدّسة إلى العربيّة. بعض الترجمات ضاعت بالكامل وبعضها الآخر وصلتنا منها مقاطع قليلة. تتميّز الترجمات العربيّة للإنجيل بتنوّعها، وهي مترجمة عن نصوص عبريّة، ويونانيّة، وسريانيّة، وقبطيّة، ولاتينيّة، وصلت ترجمات من القرن السابع الميلادي، والثامن والتاسع. لمعلومات عن تلك الترجمات: بولس الفغالي، **المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم**، المكتبة البولسيّة، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٣٣٨ – ٣٣٩؛
Edward LIPINSKI, *DB*, 2002, pp. 1331 – 1332.

١٤٨) تعود الإسرائيليّات إلى القرن الهجري الأول. أول من نقلها وروّج لها يهودٌ اعتنقوا الإسلام أو عربٌ كانوا على صلة بيهود شبه الجزيرة العربية ومسيحيّيها. والإسرائيليّات

في أخباره عن «بني إسرائيل» اعتبر أرضهم مقتصرة على بلاد الكنعانيّين في فلسطين والأردن، وهو ما أكّده في مقدمته[١٤٩]. لكنه لم يحدّد الامتداد الكامل لبلادهم بل اعتبر أن ثمّة أربعة شعوب كانت في الشام قبل دخول يوشع بن نون: الكنعانيّون الذين شكّلوا أكثر الأمم، وبنو فلسطين، وبنو مدين، والعمالقة.

تميّز ابن خلدون عن المصادر العربيّة الأخرى بتفرّده في وصف هيكل سليمان، ومشاركة بنّائي صور في تشييده، لكنه لم يذكر مصادر استند إليها خلافًا لمنهجيّته المعهودة. وفي حديثه عن تاريخ اليونان والرومان أشار إلى بناء قرطاجة وتدميرها مستندًا إلى «هروشيوش». والمعلومات التي تركها عن قرطاجة تلتقي مع ما تتداوله أحدث المراجع التاريخيّة.

الخاتمة

يُعدّ ابن خلدون المؤرّخ العربي الأوسع علمًا بالنسبة إلى التاريخ القديم. جاء بمعلومات جديدة تساعد في إلقاء الضوء على كثيرٍ من المواضيع المرتبطة بتاريخ الكنعانيّين، ابتداءً بأصلهم مرورًا بتأسيس قرطاجة وصولاً إلى بعض الملامح الدينيّة عندهم. ومعلوماته أجابت عن تساؤلات كثيرة وردت في المصادر العربيّة السابقة، وكشف الغموض عن بعض المرويّات التاريخيّة التقليديّة.

لا يعترف معظم المفكّرين بأن ابن خلدون مؤرّخ بل رأوا إليه عالم اجتماع سبق عصره.

نشاطرهم نظرتهم الأخيرة لكننا نعتبره أفضل من أرّخ لتاريخ الكنعانيّين مقارنة بمؤرّخي عصره، فمنهجيّته ومضمون معلوماته هي الأكثر تقدمًا ووضوحًا. وما قام به على صعيد التاريخ القديم ظلّ محصورًا في كتابه فلم يخلق تيارًا تاريخيًّا نقديًا سعى إلى دراسة الماضي من خلال التفتيش عن المصادر المتنوّعة. ومن أبرز أسباب هذه المشكلة التي أصابت

مصطلح عربي يشتمل على ثلاثة أنواع من النصوص اعتمد عليها مفسّرو القرآن والمتصوّفون وكاتبو التاريخ وأهل الأدب. والأنواع الثلاثة أبرزها: نصوص مكمّلة قصص شخصيّات في الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، وقصص تاريخيّة تحمل عبَرًا أخلاقية ومثالية وتَقَوية من عهد «بني إسرائيل» وحكايات تنتمي إلى الفولكلور مقتبسة زورًا (وأحيانًا حقيقةً) من مصادر يهوديّة. اعتمدنا في تفسير مصطلح «الإسرائيليّات» على:
J. ECKMAN, "Isra'Ilyyat", *EI2, IV*, p 221.

١٤٩) أكّد ابن خلدون أن «بني إسرائيل» لم تتسع ممالكهم إلى غير الأردن وفلسطين من الشام، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز: المقدمة، ص ١٤.

الفكر العربي والإسلامي عمومًا: ظل الازدهار الفكري مرتبطًا بنبوغ بعض المفكرين، ولم ينْمُ ويزدهر ضمن مؤسسات جامعيّة أو بحثيّة تؤمّن الاستمراريّة الأكاديميّة والعلميّة، خلافًا لدول أوروبا الغربيّة التي دعمت الجامعات ومراكز الأبحاث، وأمّنت الظروف العلميّة والاقتصاديّة المؤاتية لإبداع العلماء والمثقّفين والمؤرّخين، فشهدت فورة علميّة وثقافيّة في مختلف الميادين استفاد منها علم التاريخ في مختلف عصوره.

المختصرات

- **ابن الأثير**، ١ = ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ١-١٠، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١، ١٩٩٧.
- ابن النديم، **الفهرست** = ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالورّاق، **الفهرست**، تحقيق رضا. تجدد إبن علي زين العابدين الحائري المازدراني، دار المسيرة، طهران، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.
- **ابن خلدون**، ٢= ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد الثاني، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦.
- **أبو الفداء**، ١ = أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، **المختصر من أخبار البشر-تاريخ أبي الفداء**، ١–٢، دار المعرفة، بيروت، د- ت.
- **الطبري**، ١ = الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ١–١٠، **المجلد الأول**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٠.
- المسعودي، **مروج الذهب** = المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ١–٧، **المجلد الثاني**، طبعة بربيه دي مينار، وبافيه دي كرتاي، عني بتصحيحه شارل بلاّ، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦.
- *DA* = Dictionnaire *de l'Antiquité*, publié sous la direction de J. LECLANT, Paris, 2005.
- *DEB, 1960= Dictionnaire Encyclopédique de la Bible*, Brepols, 1960.
- *DEB, 2002 = Dictionnaire Encyclopédique de la Bible*, Brepols, 2002.
- *DBS, 1928 – 1992= Dictionnaire de la Bible, Supplément*, Paris.
- *DECA = Dictionnaire Encyclopédique du Christianisme ancien, tome II*, Sous la direction de François Vial, Cerf, Belgique, 1990.
- *DCM* = Francis Joannès (dir.), *Dictionnaire de la Civilisation Mésopotamienne*, Paris, 2001.

- *DOB* = William SMITH, *A Dictionary of the Bible, Antiquities, Biography and Natural History*, *I – IV*, I.B. Tauris, London j New York, 2017.
- *EI 2* = *Encyclopédie de l'Islam, I – X,* Paris, 1960 – 2000.
- *Krings* = KRINGS Véronique (éd.), *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*, Leiden – New-YORK – Köln, *1995*.
- Orose, *Histoires contre les païens* = Orose, Paul, *Histoires contre les païens*, *3 tomes*, éd. et trad. M.-P. Arnaud-Lindet, Les Belles Lettres, Paris, 1991–1992.

تجّار البندقية في بيروت
بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر

د. بيار مكرزل
الجامعة اللبنانيّة - كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة (الفرع الثاني)

بين أكثر المواضيع صعوبةً وتعقيدًا: الدراساتُ التاريخيّة الاقتصاديّة عن المدن الساحليّة اللبنانيّة بين القرن الثاني عشر وأواخر العصر المملوكي، لأنّها تتطلب معرفة واسعة باللغة اللاتينيّة واللغات الأوروبيّة الحديثة والوسيطة. والقسم الأكبر من الوثائق والنصوص الأساسية لهذا النوع من الدراسات، ما زال مخطوطًا في مراكز أرشيف المدن الأوروبيّة، ومعظمه ليس في متناول الباحثين. وتزداد الصعوبة مع ضآلة مراجع في هذا النوع من الدراسات التاريخيّة، فالمصادر العربيّة لا تذكر إلاّ القليل من المعلومات عن العلاقات بين بيروت وأوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مع أن هذه العلاقات مهمة لفهم تطوّر اقتصادي عرفتْه بيروت فترتئذٍ.

في هذا البحث نموذج عن العلاقات التجاريّة بين مدينتي بيروت والبندقيّة في إيطاليا، تركيزًا على إقامة التجّار البنادقة في بيروت منذ عام ١٣٧٤ وتأسيس الخطّ التجاري البحري الذي ربط البندقيّة ببيروت.

سُقوط عكّا...

أهمّ معاقل الفرنج في الشرق: مدينة عكّا، سقطت عام ١٢٩١ بأيدي المماليك وتبعتْها مدن بيروت وصيدا وصور، فكانت بداية مرحلة جديدة من العلاقات بين ضفتّي المتوسّط. ولأن عكّا كانت المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الشرق والغرب، شكّل سقوطها ضربةً قويّةً للغرب الأوروبي. إزاء هذا الحدث وما أحدثَ من تغيير في الخريطة الاقتصاديّة والسياسيّة والعسكريّة والدينيّة للحوض الشرقي للبحر المتوسّط، تدخّل الكرسي الرسولي في روما لإعادة رصّ صفوف القوى الأوروبيّة والعمل على تنظيم حملات «صليبيّة» جديدة تهدف لاسترجاع المدن الساحليّة في بلاد الشام و«تحرير» الأرض المقدّسة. ولأن البابا البابا نقولا الرابع (١٢٨٨–١٢٩٢) أدرك صعوبة توجيه حملة «صليبيّة» جديدة إلى الشرق، لفقدان أي قاعدة

على ساحل بلاد الشام تُمَكِّن الجيوش من التمركز وإطلاق الهجمات نحو الداخل، اعتمد خطّةً جديدةً بإضعاف المماليك والقضاء على مصادر قوّتهم، فقرر منع التبادل التجاري بين أوروبا وأيّ بلاد تخضع لسلطة السلطان المملوكي، خصوصًا مواد وبضائع يمكن استعمالها لأغراض عسكريّة كالخشب والحديد والحبال والقير والأشرعة وغيرها[١]. واستمرّ الكرسي الرسولي لاحقًا في إصدار قرارات تحرّم التجارة مع الشرق، وجهّز عشرات السفن الحربيّة لمراقبة حركة الملاحة في البحر المتوسّط وتوقيف السفن التجاريّة الأوروبيّة المتّجهة إلى بلاد الشام ومصر[٢]. سوى أن هذه الإجراءات المشدّدة فشلت في منع التبادل التجاري وقطعه كليًا بين المدن التجاريّة الأوروبيّة وبلاد الشام ومصر، وشهدت الحركة التجاريّة انخفاضًا كبيرًا[٣].

... ونهوض بيروت

في النصف الآخر من القرن الرابع عشر وطيلة القرن الخامس عشر، تطوّر دور مدينة بيروت التجاري وأصبحت مركزًا أساسيًّا في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط تقصده السفن حاملةً التجّار والبضائع المختلفة، ما جعلها ملتقى التجّار والحجّاج والمسافرين القاصدين بلاد الشام. وساهمت عوامل عسكريّة واقتصاديّة وسياسيّة في تطوّر مدينة بيروت وقيامها بدور تجاري رئيس في المتوسّط.

١) George Martin THOMAS, *Diplomatarium Veneto-Levantinum sive acta et diplomata res venetas graecas atque Levantis illustrantia (1300–1350) (1351–1454)*, Réédition, New York, 1966, I, p. 371.

٢) لتفاصيل إضافية عن حظر تجاري فرضه الباباوات على السلطنة المملوكيّة: *Les registres de Nicolas IV, Recueil des bulles de ce pape publiées ou analysées d'après les manuscrits originaux des archives du Vatican*, par Ernest Langlois, Collection Bibliothèque des Écoles françaises d'Athènes et de Rome, Paris, 1886-93, doc.2199, p.389 et doc.4402, p. 641 ; Wilhelm HEYD, *Histoire du commerce du Levant au Moyen Âge*, II, Traduction de Furcy Reynaud, Amsterdam, 1959, p. 23–57 ; José TRENCHS ODENA, « De Alexandrinis. El comercio prohibido con los musulmanes y el papado de Aviñón durante la primera mitad del siglo XIV », *Anuario de Estudios Medievales*, 10, Barcelona, 1980, p. 237–320.
بين ١٣٠٩ و١٣٧٨ لم يكنْ مقرّ الكرسي البابوي في روما بل في مدينة أفينيون Avignon الفرنسيّة.

٣) لا وثائق عن النشاطات والأعمال التجاريّة المحرّمة من الكرسي البابوي، لذا لا يمكن تقدير حجم وقيمة السلع المتبادلة بين الغرب والشرق في بداية القرن الرابع عشر.

سنة ١٢٩١ انتصر المماليك على الفرنج واستعادوا المدن الساحليّة التي كانت تحت سيطرتهم، لكنه انتصار ترك انعكاسات اقتصاديّة خطيرة. فلأن المماليك كانوا يخشون عودة الفرنج ولم يكن لديهم أسطولٌ لحماية السواحل الشاميّة والمصريّة، دمَّروا المدن الساحليّة التي استعادوها، وهدموا الأسوار والدفاعات المحيطة بها كي لا يتمكّن الفرنج «الصليبيّون» من إعادة احتلالها والتمركز فيها. هكذا استحالت خرابًا أجزاءٌ من مدن عكّا ويافا والقيصريّة وصور وصيدا، ففرغَتْ من معظم سكّانها بعدما كانت مدنًا مزدهرةً ومحطّات تجاريّة رئيسيّة. وحدها بيروت، بين المدن الساحليّة في القسم الجنوبي من بلاد الشام، نجت من الخراب واكتفى المماليك بتفكيك تحصيناتها وترحيل سكّانها من الفرنج. وفيما غابت تلك المدن عن الخريطة التجاريّة المتوسّطيّة فلم يعُد لها دور بارز منافس، ازدهرت تجارة بيروت وتوسّعت وأصبحت بيروت منذ أواخر القرن الرابع عشر أهم قاعدة اقتصاديّة في بلاد الشام[٤].

تغَيُّر في الخارطة التجارية

وكان القرن الرابع عشر شهد أحداثًا مهمّة غيّرت في الخريطة التجاريّة للحوض الشرقي للبحر المتوسّط: نتيجة اضطرابات في الأمبراطوريّة المغوليّة وتفكّك الإلخانات في بلاد فارس منذ ١٣٣٨، أصيب التجّار الأوروبيّون (تحديدًا الإيطاليّون المقيمون في المدن المطلّة على بحر أزوف Azov والبحر الأسود) بخسائر فادحة بعد أن هاجمهم المغول عام ١٣٤٣ في مدينة تانا Tana على ضفاف بحر أزوف وقتلوا عددًا منهم. حيال هذه الظروف الصعبة وجّه التجّار الأوروبيّون من جديد تجارتهم إلى بلاد الشام ومصر، وطلبوا من البابا كليمنضوس السادس (١٣٤٢–١٣٥٢) رفع الحظر التجاري المفروض على السلطنة المملوكيّة والسماح للسفن التجاريّة الأوروبيّة بمعاودة نقل البضائع إلى موانئ بلاد الشام ومصر.

في الحقبة التاريخيّة ذاتها سقطت مملكة أرمينيا بأيدي المماليك عام ١٣٤٧، فانقطعت طرق التجارة بين تبريز وسمرقند في ميناء أيّاس المطلّ في مملكة أرمينيا على المتوسّط. هكذا انقطعت الطرق التجاريّة المباشرة بين أوروبا والشرق الأقصى، وازدادت أهميّة موانئ السلطنة المملوكيّة بعد

٤) لمعلومات إضافية:
Pierre MOUKARZEL, *La ville de Beyrouth sous la domination mamelouke (1291–1516) et son commerce avec l'Europe*, Éditions de l'Université Antonine, 2010, p. 26–28.

أن أصبح الأوروبيّون ملزمين بالتوجّه إلى أسواق بلاد الشام ومصر حيث سلع شرقيّة تفتقر إليها الأسواق الأوروبيّة. وعام ١٣٧٣ استولى الجنويّون على فَماغُستا Famagousta، الميناء الرئيسي في جزيرة قبرص، فأخذ التجّار الأوروبيّون (البنادقة، الكتلانون، وغيرهم) يوجّهون تجارتهم وأعمالهم إلى بيروت، الميناء الأقرب إلى مدينة دمشق ذات أسواق التوابل والبهارات والمنتوجات الشرقيّة المختلفة. وفي عام ١٣٧٤ دمّر السلطان المملوكي الأشرف شعبان مملكة أرمينيا كليًّا فانقطع الطريق التجاري الذي كان يمرّ بمدينة تبريز، السوق الرئيسي لمنتَجات آسيا الوسطى. ولاحقًا دمّر الخان المغولي تيمورلنك كلّ المحطّات التجاريّة في آسيا الصغرى. زادت هذه الأحداث المتعاقبة من الأهميّة الاقتصاديّة للسلطنة المملوكيّة كونها أصبحت ممرًّا إلزاميًّا للقسم الأكبر من البضائع الوافدة من الشرق الأقصى وآسيا الوسطى، وأفادت بيروت بشكل خاصّ من هذا التغيير في الخريطة التجاريّة على الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، فأصبحت الميناء الأساسي لتجارة العبور (الترانزيت) بين الشرق الأقصى وأوروبا، وازدادت أهميّتها التجاريّة بعدما أسّس البنادقة عام ١٣٧٤ خطًّا تجاريًّا بحريًّا منتظمًا بين البندقيّة وبيروت لنقل البضائع الشرقيّة والأوروبيّة بين ضفّتي البحر المتوسّط. حلّ هذا الخطّ البحري محلّ ذاك الذي كان يربط البندقيّة بقبرص. لكنّ هذا الخط توقّف عن العمل بين ١٣٧٣ و١٤٤٤. واستمرّت السفن البندقية تقصد جزيرة قبرص كمحطّة قبل أن تكمل طريقها إلى بيروت التي أصبحت وجهتَها الرئيسة. وعُرِف ذاك الخطّ البحري بين البندقية وبيروت بإسم Muda di Baruti (مودا بيروت). يختلف معنى كلمة «مودا» وفقًا لسياقها في النصوص، فهي تعني موكب سفن الغاليرا (galera) المغادر البندقيّة سنويًّا بتنظيم الحكومة، أو المدّة التي تمضيها السفن في الميناء، أو أيّ شهر تصل خلاله السفن للتجارة، أو السوق الذي يُعقَد سنويًّا عند وصول سفن الغاليرا إلى ميناء بيروت في الخريف (آب–أيلول). وتختلف الآراء حول أصل هذه الكلمة، فربّما هي تحريف للكلمة العربيّة «مدّة» أو هي اشتقاق من الفعل الإيطالي «mutare» الذي يعني تبادل[٥].

(٥) *Archivio di Stato di Venezia*, Senato Misti, 34, f.82, f.85, f.87; Frederic LANE, « Fleets and fairs: The function of the Venetian muda », *Studi in onore di Armando Sapori*, I, Milano, 1957, p. 651; Gino LUZATTO, « Navigazione di linea e navigazione libera nelle grandi città marinare del Medioevo », *Studi di storia economica*, Venezia-Padova, 1954, p. 54; Doris STÖCKLY, *Le système de l'Incanto des galées du marché à Venise (fin XIIIe-milieu XVe siècle)*, Éd. Brill, 1995, p. 26-27; Wilhelm HEYD, *Histoire du commerce*, II, p. 453.

إلى أسواق مصر وبلاد الشام

بعد سقوط القسطنطينيّة بأيدي الأتراك العثمانيّين عام ١٤٥٣ وتوسّعهم في آسيا الصغرى وبحر إيجيه، انحسرت أعمال التجّار الأوروبيّين، خصوصًا البنادقة والجنَويّين، في مناطق البحر الأسود فازداد اهتمامهم بأسواق بلاد الشام ومصر وركّزوا القسم الأكبر من نشاطاتهم في الموانئ والأسواق الرئيسة في السلطنة المملوكيّة: بيروت، طرابلس، حلب، دمشق، الإسكندريّة.

عرفَت بيروت تطوّرًا اقتصاديًّا كبيرًا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، واستقطبَت انتشارَ التجارة الأوروبيّة وتوسّعها في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، فأصبحت أبرز موانئ السلطنة المملوكيّة، واحتلّت مكانةً مهمّةً عفي علاقات تجاريّة تمتدّ من الشرق الأقصى حتّى أوروبا. برزت أهميّة بيروت التجاريّة في حقبة تاريخيّة شهدت دفعًا جديدًا للتبادل التجاري بين الغرب والشرق. وكان لبيروت جميع الأسباب التي تتيح لها التطوّر والازدهار ومنافسة غيرها من المدن الساحليّة في بلاد الشام ومصر، فهي المرفأ الرئيس في بلاد الشام، تقصده السفن الأوروبيّة لشحن السلع والبضائع الآتية من الشرق الأقصى؛ وهي على مقربة من دمشق السوق الأهمّ جنوبيّ بلاد الشام، كانت تصل إليه القوافل آتية من مكّة وآسيا الوسطى وبغداد وسلطانيّة وتبريز، محمّلة بالتوابل والحرير والأقمشة المذّهبة؛ وتملك بيروت ميناءً يمكن أن يستقبال مراكب تجاريّة مختلفة الأحجام آتية من موانئ المدن الأوروبيّة المحاذيةِ البحرَ المتوسّط وحتّى من بعض المدن المطلّة على المحيط الأطلسي (بسكايا، بلاد الفلاندر).

تجار البندقية في بيروت: نشاطهم، وضْعهم الاجتماعي

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، عرف التبادل التجاري بين أوروبا والسلطنة المملوكيّة دفعًا كبيرًا نتيجة تطوّر التقنيّات التجاريّة (الحوالة، الشيك، المحاسبة، التأمين البحري) وصناعة السفن والنقل البحري. وتطوّر التقنيّات على الصعيدين المالي والمصرفي ساهم في زيادة الأرباح وتوفير الوقت لنقل الأموال اللازمة للاستثمارات في مجال التجارة، فتضاعفت عمليّات البيع والشراء وتحويل الأموال بواسطة عقود مدوّنة لدى الكتّاب بالعدل. وعلى صعيد النقل البحري، بلغت صناعة سفن كبيرة الحجم حتى حمولة ١٠٠٠ طن في منتصف القرن الخامس عشر، ما أدى إلى تكثيف عمليّات الاستيراد والتصدير عبر البحر المتوسّط، فأحدثت تغييرًا كبيرًا في أوضاع تجّار أوروبيّين لديهم أعمال في الشرق.

نتج عن هذه التطوّرات تكوين طبقة من التجّار الأغنياء، واحتلّت التجارة البحريّة القسم الأكبر من أعمال التجّار الأوروبيّين. لكن السفر في البحر كان محفوفًا بالمخاطر، كالغرق بسبب العواصف، أو التعرّض للهجمات والنهب من القراصنة. فتخفيفًا هذه المخاطر، أنشأ التجّار الإيطاليّون نظام شراكة تجاريّة عُرِفت بإسم كوليغانزا *colleganza* في مدينة البندقيّة، سوسيتاس ماريس *societas maris* في جَنَوى، وكومبانيّا *compagnia* في فلورنسا[٦]. بموجب هذه الشراكة، يتقاسم المتشاركون المخاطر والأرباح، ويزيدون استثماراتهم في البلدان البعيدة، ويديرون أعمالهم من مقرّهم في المدن التي ينتمون إليها. هذا الوضع الجديد أفرز نوعين من التجّار هما: «التجّار المقيمون» المستقرّون في أرضهم الأمّ و«التجّار المسافرون» قاصدو البلدان المختلفة، ويجنون الأرباح لاقتسامها مع شركائهم. مع مرور الزمن، تخلى «التجّار المقيمون» تدريجيًّا عن نظام الشراكة واعتمدوا أكثر على تسمية وكلاء لهم في البلاد التي يتاجرون معها. يحصل الوكلاء *fattori* على نسبة مئويّة من الأموال المستثمرة في الأعمال التجاريّة هي ٢٪ على المبيعات، و١٪ على المشتريات[٧]. وهذا النظام التجاري المُستحدَث أتاح تركيز النشاط التجاري في موانئ ومدن محدّدة يديرها وكيل مقيم بشكل دائم، يراقب الأسواق وتقلّبات الأسعار ويعرف كيفيّة استغلال الظروف وانتقاء الفرص لعقد عمليّات بيع وشراء. دفع نجاح هذه التجربة بكبار العائلات البندقيّة إلى اعتماد تعيين وكيل في موانئ ومدن السلطنة المملوكيّة لزيادة الاستثمارات وتطوير الأعمال. كانت العائلات البندقيّة التي تتعاطى التجارة تسمّي أحد أبنائها للتوجّه إلى الشرق والإقامة فيه، فنشأت بين أفراد العائلات جمعيّات تجاريّة عُرِفَت بإسم «أخويّة» *fraterna*: يبقى أحد الأبناء في البندقيّة ويتوجّه الأَخوة الباقون إلى البلدان البعيدة.[٨]

---

٦) Yves RENOUARD, *Les Hommes d'affaires italiens du Moyen Âge*, Paris, 1968, p. 141 ; Jacques LE GOFF, *Marchands et banquiers du Moyen Âge*, 4e édition, P.U.F., Paris, 1969, p. 20.

عرف التجار العرب نظام الشراكة التجاريّة واعتمدوه منذ القرن الثامن. لمزيد من المعلومات:

Claude CAHEN, *L'Islam des origines au début de l'empire ottoman*, Édition Bordas, 1970, p. 140.

٧) Yves RENOUARD, *Les Hommes d'affaires italiens du Moyen Âge*, p. 142.

٨) Frederic LANE, «Family partnerships and joint ventures in the Venetian Republic», *Journal of Economic History*, Volume IV and supplement, 1944, p. 178.

العائلات البندقية

تلك العائلات البندقيّة النبيلة كانت وحدها المخوّلة الاشتراك في مزاد علني ينظّمه مجلس الشيوخ البندقي لعرض السفن التجّارية، تحديدًا سفن الغالير، للإيجار وتجهيزها لتنظيم عمل خطوط النقل البحريّة المعروفة بإسم *muda*، وكانت تلك العائلات مقسّمة وفقًا للطبقات الإجتماعيّة النبيلة تبعًا لأقدميّتها في تعاطيها التجارة وتبوُّء المناصب السياسيّة المهمّة: العائلات النبيلة القديمة *case vecchie*، العائلات النبيلة الجديدة *case nuove*، العائلات النبيلة الحديثة *case nuovissime*. كان أفراد العائلات النبيلة القديمة والجديدة يركّزون أعمالهم التجاريّة مع بلاد الشام ومصر، بينما أفراد العائلات النبيلة الحديثة وجّهوا اهتماماتهم ونشاطاتهم نحو بلاد المغرب العربي: من أصل ١٤٤ عائلة نبيلة بندقيّة، كانت ٣٣ عائلة فقط، معظمها عائلات تتمتّع بعضويّة مجلس الشيوخ البندقي، مكوّنة من العائلات القديمة والجديدة، تتولّى القسم الأكبر من السلطات السياسيّة والاقتصاديّة في مدينة البندقيّة[٩]. وكان أفراد العائلات الحاكمة استقرّوا في بيروت وغيرها من المدن في بلاد الشام، ينضمّ إليهم أحيانًا تجّار من عامّة الشعب البندقي *cittadini*، يعملون لديهم وكلاء أو شركاء.

هذا التطوّر الإقتصادي، وتنظيمات تجاريّة رافقته، توفّر لنجاحه عاملان، سياسي ومادّي، ساهما بإحداث تغيير كبير في العلاقات بين أوروبا والشرق: العامل السياسي بتحسّن العلاقات بين السلطنة المملوكيّة وأوروبا خصوصًا البندقيّة، والعامل المادّي بتطوّر وسائل النقل البحري.

معاهدات الصلح

بمعاودة المدن الأوروبيّة التجاريّة علاقاتها مع السلطنة المملوكيّة، عقدت معاهدات صلح وتجارة بين السلاطين والأمراء والحكّام الأوروبيّين توفّر للتجّار البنادقة امتيازات تشجّعهم على المجيء إلى الشرق والإقامة في مدنه وموانئه: كانت أوروبا بحاجة إلى التوابل والمنتَجات الشرقيّة المختلفة، وفي المقابل تزوّد السلطنة المملوكيّة بالمواد الأوليّة لأغراض عسكريّة كالحديد، والخشب، والأسلحة. نتيجة هذا الوضع، افتُتِحَت

(٩ Gino LUZZATTO, « Les activités économiques du patriciat vénitien (Xe–XIVe siècles) », *Annales Histoire Économique et Sociale*, 43, 1973, p. 42–43; Bernard DOUMERC, *Venise et l'espace maritime occidental au XVe siècle: une tentative de reconversion commerciale*, Thèse d'État sous la direction d'Alain DUCELLIER, Toulouse, 1989, p. 482–490, p. 688–689.

مرحلة جديدة من العلاقات بين أوروبا والسلطنة المملوكيّة أساسها الامتيازات المتبادلة. استفاد التجّار البنادقة من السلام الذي ساد بين ضفّتي المتوسّط فأقبلوا على أسواق بلاد الشام ومصر، أسّسوا وكالات تجاريّة، تحدّوا المخاطر والصعوبات، وركّزوا اهتمامهم على توسيع نشاطهم وجني الأرباح.

إقامة التجّار البنادقة في بلاد الشام ومصر استمرّت طيلة العصر المملوكي، فكانوا عنصرًا متميّزًا على هامش المجتمع الشرقي وغريبًا عنه رغم إقامتهم الدائمة وتعاملهم مع التجّار الشرقيّين. فالتجّار البنادقة حصلوا على امتيازات من السلطان تؤمّن لهم الإقامة في المدن الخاضعة لسلطته إنما لم يرحب بهم الشعب وكان بغالبيّته من المسلمين، فهم غرباء، لهم ثقافة وديانة مختلفتان، وهم آتون من بلاد كانت في حالة حرب مع المسلمين استمرّت قرونًا. شكّلت إقامة التجّار البنادقة في مدن بلاد الشام ومصر ضرورةً للطبقة الحاكمة التي كانت تهتمّ بزيادة عائدات خزينة الدولة، لكنّها بقيت هشّة محكومة برضا السلطان الذي يمكن أن يغيّر موقفه وفقًا لمصالحه أو لتدهور علاقاته مع مدينة البندقيّة خصوصًا وأوروبا عمومًا.

تجّار البندقية في بيروت: شروط مباشرة الأعمال

عندما كانت السفن تبلغ ميناء بيروت، ما كان يُسمَح لها بالدخول إلاّ بعد خضوعها لتفتيش دقيق من السلطات المحليّة. كان المسؤولون عن أمن الميناء يدقّقون بهويّة الواصلين وبنوع البضائع التي يحضرونها معهم. إذا كان أحد التجّار مطلوبًا لذنب اقترفه (خلاف مع أحد التجّار البيروتيّين، تهرّب من دفع الرسوم، ...) يُقبض عليه، وفي حال وجود تاجر آخر كفيل له، يتمّ توقيفه أيضًا. بعد ذلك، تبدأ عمليّة إنزال البضائع لشحنها إلى المخازن المخصّصة للتجّار أو إلى ديوان القبّان فيتمّ تقبينها لفرض الرسوم عليها: حُدِّد الرسم الذي يتوجّب على واردات وصادرات التجّار البنادقة إلى بيروت بـ ١٠٪، و٢٪ على الذهب والفضّة، أمّا اللؤلؤ والأحجار الكريمة فكانت معفاة من الرسوم[١٠]. وعند الانتهاء من هذه المرحلة، تبدأ عمليّة بيع البضائع.

كان للتجّار البنادقة حريّة بيع منتَجاتهم في الأسواق أو في المخازن لمن يريدون من التجّار البيروتيّين، وكانت عمليّات البيع تتمّ بحضور

(١٠) George Martin THOMAS, *Diplomatarium Veneto-Levantinum*, I, p. 292.

شاهِدَين لإضفاء طابع قانوني عليها. أمّا الدفع فكان نقدًا أو بالمقايضة وفقًا لما يجده التجّار مناسبًا. وفي حال تمّت عمليّات البيع في ديوان القبّان، يكون الدفع أيضًا نقدًا أو بالمقايضة. كان يشرف على هذا الديوان موظّفون، يُعرَفون بالقبّانين (مفردا قباني)، يقومون بتعداد البضائع والسلع لتقبينها وتحديد قيمتها وثمنها. أمّا البيع فكان يتمّ بالمزاد العلني وكان للتجّار الحريّة في إبطال البيع واستعادة بضائعهم في حال لم يحصلوا على السعر الذي يريدونه. كان المزاد العلني يتمّ بحضور شاهِدَين، وترجمان، وسمسمار، ويمكن للتجّار أن يختاروهم. وعندما تتسجّل عمليّات البيع والشراء في ديوان القبّان تصبح نافذة لا رجوع عنها ولا يمكن للبائع أو الشاري من تغييرها أو رفضها بأيّة وسيلة. عند البيع بالقياض، إذا ادّعى أحد التجّار، غير البائع، أنّ البضاعة المباعة تخصّه، تُرفَض شكواه ولا تُعاد البضائع إليه لأنّ البضائع التي تدخل إلى ديوان القبّان وتسجّل باسم التاجر، لا يعود يمكن إخراجها أو استرجاعها إلاّ بطلب من التاجر الذي سجّلها باسمه. فديوان القبّان هو المكان الذي يعطي شرعيّة لعمليّات بيع وشراء البضائع ويضمن حقوق التجّار[١١].

وهكذا يظهر أنّ التجّار البنادقة، والأوروبيّين عمومًا، كانوا ملزمين إجراء عدد من المعاملات المطلوبة لعقد عمليّات البيع والشراء، فكيف كان بإمكانهم أن يتدبّروا أمورهم؟

من اللغة إلى الترجمة

كان وكلاء التجّار المقيمون في بيروت بشكل دائم يتكلّمون العربيّة ولديهم خبرة طويلة في مجال التجارة، فيما كان عدد قليل جدًّا من التجّار البنادقة يتكلّم العربيّة، فمعظمهم يمرّون ببيروت لمدّة محدودة، بين شهر أو شهرين، حتى انتهاء موسم الأعمال التجاريّة وعودة السفن إلى البندقيّة. وكانوا غرباء لا يعرفون التجّار المحليّين، ولا الأعراف الشرقيّة المُعتمدَة في التجارة، ولا الأسعار، ولا حتّى المناطق التي فيها الأسواق كي يسوّقوا بضائعهم، فالمعلومات التي لديهم عن بيروت اطّلعوا

(١١) John WANSBROUGH, «A Mamluk commercial treaty concluded with the republic of Florence 894/1489», *Documents from Islamic Chanceries*, First series, S.M. STERN (ed), Oxford, 1965, p.54–58; Maximiliano A.ALARCÓN Y SANTÓN/Ramón GARCÍA DE LINARES, *Los documentos árabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon*, Madrid, 1940, p. 375.

عليها من كتب التجارة أو حصلوا عليها من شركائهم الذين يتنقّلون بين بيروت والبندقيّة[١٢].

بشكل عام، عند وصول التجّار إلى بيروت، كانوا يعتمدون على التراجمة، والسماسرة، والدلاّلين المعيّنين من قبل السلطات المحليّة للقيام بدور الوسيط بين التجّار البنادقة والتجّار البيروتيّين، لمساعدتهم بما يحتاجونه من معاملات ولإرتياد الأسواق. كان للتجّار الحريّة في إختيار التراجمة والسماسرة والدلاّلين الذين كانوا من طوائف مختلفة: مسلمين، مسيحيّين، ويهود. ولكن من خلال رسائل التجّار، وبنود المعاهدات، يظهر أنّ في معظم الأحيان كان التجّار البنادقة، والأوروبيّون عمومًا، يختارون تراجمة مسيحيّين[١٣].

١٢) كان التجّار يعتمدون على كتب تجاريّة *manuali di mercatura* للتزوّد بمعلومات عن أوضاع الأسواق في المدن والموانئ الشرقيّة والأوروبيّة، ما يسهّل عليهم معرفة الأسعار والعملات المتداولة ووحدات الوزن والقياس المستعملة في المدن والموانئ المختلفة. أبرز وأشهر تلك الكتب التجاريّة الإيطاليّة هي التالية:

Bartolomeo DE' PAXI, *Tariffa die pexi e mesure con gratia e privilegio*, Venezia, 1503; Giorgio di Lorenzo CHIARINI, *El libro di mercantie e usanze de' paesi*, Franco BORLANDI (ed), Torino, 1936; Giovanni di Antonio DA UZZANO, « La pratica della mercatura scritta da Giovanni di Antonio da Uzzano nel 1442 », *Della decima e di varie altre gravezze imposte al commune di Firenze della moneta e della mercatura de' fiorentini fino al secolo XVI*, Francesco Pagnini DEL VENTURA, Lisbona e Lucca, 1766, Réédition, Bologna 1967, Volume II, Tomo IV, p.1–284; Francesco Balducci PEGOLOTTI, *La pratica della mercatura*, A.EVANS (ed), Cambridge Mass, 1936; Saminiato DE' RICCI, *Il manuale di mercatura di Saminiato de' Ricci*, Antonia BORLANDI (ed), Genova, 1963; *Tarifa zoe noticia dy pexi e mexure di luogi e tere che s'adovra marcadantia per el mondo*, R.CESSI/V.ORLANDINI (eds), Venezia, 1925.

١٣) وردت في رسائل التجّار البنادقة في حماة عام ١٤٨٣–١٤٨٤ أسماء تراجمة مسيحيّين: جوان (يوحنا) سريان، توما، صدقة، الأب إلياس.

Éric VALLET, *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XVe siècle*, Paris, 1999, p. 129.

وإلى مسيحيّين شرقيّين ويهود عملوا في الترجمة والسمسرة، كان التراجمة والسماسرة من المسيحيّين الأوروبيّين الذين أسِروا، أو اختاروا الإقامة في الشرق، واعتنقوا الإسلام: مثلاً، جنوي يدعى لوسيان دولوى اعتنق الإسلام واتّخذ اسم ناصر الدّين. وكان التجّار الكتلان في دمشق وبيروت يتعاملون مع ترجمان – سمسار يُدعى منصور، هو في الأصل مسيحي اعتنق الإسلام.

Benjamin Z. KEDAR, *Merchants in crisis. Genoese and Venetian men of affairs and the fourteenth-century depression*, Yale University Press, 1976, p. 135-136; Amada LOPEZ DE MENESES, « Los consulados catalanes de Alejandria y Damasco en el reinado de Pedro el Ceremonioso », *EEMCA*, vol. VII, Zaragoza, 1962, doc.XII, p. 150.

الإطار القانوني

للدخول إلى مدينة بيروت، كان التجّار ملزمين أن يمرّوا من باب المدينة الذي كان يحرسه أمير مع فرقة من الجنود. ولم يكن يُسمح لأحد بالمرور إلاّ بعد أن يتعهّد بـ«عدم التعرّض للسلطان، لا بالكلام ولا بالرغبة ولا بالأفعال، وعدم الإقدام على أي شيء ضدّه أو ضدّ البلاد»[١٤]. وكان على كلّ تاجر دفع رسم مرور قدره دوكتين ذهبيّتان: دوكة عن شخصه، ودوكة للحصول على ترخيص للإقامة في بيروت[١٥]. بعد ذلك، يُمنَح التاجر عهد أمان يوفّر له الحماية لشخصه ولممتلكاته طيلة مدّة إقامته في بيروت. وكان عهد الأمان يحدّد الإطار القانوني والشرعي لوجود التاجر الأجنبي في بلاد يحكمها المسلمون[١٦].

عهد الأمان

ما هو عهد الأمان؟ ولماذا هو ضروري للتجّار الراغبين بالإقامة في مدن السلطنة المملوكيّة؟

وفقًا للشرع الإسلامي، عهد الأمان هو من الأمور التي يُرفَع بها القتل عن غير المسلمين أو «الكفّار». يؤمّن حماية شخص وممتلكات غير المسلم المقيم في بلاد المسلمين لمدّة لا تتجاوز سنة. وذكر القلقشندي (توفي عام ١٤١٨) «أنّ الأمان على ضربين: عامّ وخاصّ؛ فالعامّ هو عقده للعدد الذي لا يحصر كأهل ناحية؛ ولا يصحّ عقد الأمان فيه إلاّ من الإمام أو نائبه كما في الهدنة. والخاصّ هو عقده للواحد أو العدد المحصور؛ ويصحّ من كلّ مسلم مكلّف وإن لم تكن له أهليّة القتال، فيصحّ من العبد والمرأة والشيخ الهرم والسفيه والمفلس، بخلاف أمان الصبي

١٤) Anselme ADORNO, *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470–1471)*, Traduit par Jacques HEERS et G.DE GROER, Paris, 1978, p. 351.

١٥) الدوكة: عملة ذهبيّة لمدينة البندقيّة؛ كانت الأكثر رواجًا في التجارة. وفي أواخر القرن الخامس عشر، كانت قيمة الدوكة تساوي قيمة الدينار الذهبي.

١٦) للمعلومات عن الوضع القانوني والسياسي للتجار الأوروبيّين في السلطنة المملوكيّة، راجع: Pierre MOUKARZEL, «Le statut juridique et politique des marchands européens dans le sultanat mamelouk aux XIVe et XVe siècles», *CHRONOS*, Revue d'Histoire de l'Université de Balamand, Numéro 23, 2011, p.141–155.

والمجنون»[١٧]. وعهد الأمان يختلف عن عهد الذمّة، ففي فتوى صادرة عن المفتي تقيّ الدّين أبو الحسن الشافعي المصري عام ٧٧١ هجري/١٣٧٠ ميلادي، تناول بها وضع التجّار الأجانب في بلاد الشام ومصر، جاء «... هاولا الذين دخلوا إلى دار الإسلام في التجارة بأمان ليس حكمهم حكم أهل الذمّة بل حكم المستأمنين والمعاهدين غير أهل الذمّة، وعقد الأمان أضعف من عقد الذمّة، ينتقض بما لا ينتقض به عهد الذمّة»، أمّا إذا انتقض عهد الأمان فـ«يُخيّر الإمام فيهم أيضًا كما يخيّر في أهل الذمّة إذا انتقض عهدهم بين الأربعة المذكورة: القتل، والاسترقاق، والمن، والفدا. وليس تخيّره لذلك على سبيل الشهي بل على سبيل ما يظهر من مصلحة المسلمين، والأمر في ذلك للسلطان نفسه لا لنايب السلطان، فإنّ القتل في ذلك عظيم فليس للنايب أن يستقلّ به حتّى يشاور مولانا السلطان، وكذا بقيّة الأربعة...»[١٨].

مع تطوّر العلاقات التجاريّة بين القوى الأوروبيّة في الغرب والسلاطين المماليك خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، استبدل عهد الأمان بمعاهدات معقودة بين السلاطين المماليك والمدن التجاريّة الأوروبيّة، تمنح التجّار الأوروبيّين مزيدًا من الحماية والحقوق، فلم تعد الحماية الممنوحة للأجنبي مرتبطة بمدّة زمنيّة محدّدة، عند انتهائها يصبح المستأمن بخطر، بل اتخّذ الأمان شكل تحالف وتفاهم بين السلطان والمدن الأوروبيّة[١٩].

الامتيازات

الامتيازات التي يمنحها السلطان للتجّار الأوروبيّين المقيمين في البلاد الخاضعة لحكمه، كانت منّة من السلطان لكنّها في الوقت ذاته عقد يفرض حقوقًا وواجبات متبادلة: فالسلطان يؤمّن حماية التجّار ويضمن لهم حسن سير تجارتهم بإزالة العقبات التي يمكن أن تعترضهم خلال إقامتهم،

١٧) شهاب الدين أحمد القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، المجلّد الثالث عشر، تحقيق محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٢٢.

١٨) Aziz Suryal ATIYA, « An unpublished XIVth century fatwā on the status of foreigners in Mamluk Egypt and Syria », *Studien zur Geschichte und kultur des Nahen und Fermen Ostens*. Paul Kahle. Zum 60. Geburtstag Überreicht, Leiden, E.J. Brill, 1935, p. 65–66.

١٩) John WANSBROUGH, «The Safe-Conduct in Muslim Chancery practice, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 34, 1971, p. 20–35.

والتجّار ملزمون بتركيز اهتماماتهم على التبادل التجاري وتوسيع أعمالهم وعدم التدخّل في الشؤون الداخليّة للسلطنة[٢٠].

المساكن

عند دخول التجّار البنادقة بيروت، ينضمّون إلى أفراد الجالية البندقيّة المقيمة في المدينة، فيسكن التجّار الأوروبيّون في فنادق تخصصها لهم السلطات المحليّة في المدن، وإلاّ يستأجر التجّار بيوتًا يقيمون فيها بشكل فردي أو جماعي. لم يكن للتجّار الأوروبيّين حقّ ملكيّة الفندق الذي يقيمون فيه بل هو مبنى يملكه السلطان. ولتشجيع التجّار وحمايتهم وتوفير ما يحتاجونه خلال إقامتهم في بلاده، يضع السلطان بتصرّفهم مبنى مجهّزًا لسكنهم وخزن بضائعهم[٢١].

أين أقام التجّار البنادقة في بيروت؟ هل وضعت السلطات المملوكيّة فندقًا بتصرّفهم، أم سكنوا في منازل خاصّة؟

---

٢٠) لمزيد من المعلومات: بيار مكرزل، «المعاهدات التجاريّة بين البندقيّة والسلاطين المماليك»، **مجلّة المشرق**، رقم ٨٧، عدد ٢، تموز-كانون الأول، ٢٠١٣، ص ٥٨٧–٦١٣.

٢١) تشتقّ كلمة فندق (*fondaco* بالإيطاليّة) من الإغريقيّة Pandocheion أو Pandokeian، والفندق هو مبنى مغلق تحيط به جدران وله مدخل واحد، مربّع الشكل، مؤلّف من طابقين تتوسّطه ساحة، يضمّ في الطابق السفلي المخازن وفي الطابق العلوي غرف النوم. منذ القرن العاشر، أطلِقَ في العالم الإسلامي إسم الفندق على المكان المخصّص للمسافرين والتجّار الأجانب، ولكن بالرّغم من التشابه في الشكل الهندسي بين الفندق والخان وغيره من الأبنية المخصّصة لإقامة التجّار في مدن وموانئ العالم الإسلامي، فإنّ فندق التجّار الأوروبيّين، منذ القرن الثاني عشر، تخطّى وظيفة استقبال التجّار وتخزين بضائعهم واتّخذ معنًى مختلفًا لأنّه شكّل مكانًا يتمتّع بإكتفاء ذاتي ويوفّر مجموعة من حاجات العيش الضروريّة لجماعة من الأجانب، تحديدًا المسيحيّين الأوروبيّين.

Olivia Remie CONSTABLE, « Funduq, Fondaco, and Khan in the wake of Christian commerce and crusade », *The Crusades from the perspective of Byzantium and the Muslim World*, A.E.LAIOU and R.P.MOTTAHEDEH (ed), Washington, 2001, p. 145–156.

بيار مكرزل، «فنادق التجّار الأوروبيّين في مدن السلطنة المملوكيّة ومرافئها»، **الأبحاث**، السنة ٥٨–٥٩، مجلة تصدرها كليّة الآداب والعلوم، الجامعة الأميركيّة في بيروت، بيروت، ٢٠١٠–٢٠١١، ص.١٥–٤٠.

للمعلومات عن أصل كلمة فندق، راجع:

Hélène AHRWEILER, « Encore à propos de Funduq », *Itinéraires d'Orient. Hommages à Claude Cahen*, Volume VII, Textes réunis par Raoul Curiel et Rika Gyseleh, Burs-Sur-Yvette, 1994, p. 195–196.

قليلة هي المعلومات عن سكن التجّار البنادقة في بيروت، وغامضة وأحيانًا متناقضة. لم تتضمّن المعاهدات بين السلاطين ومدينة البندقيّة أيّة إشارة لمساكن البنادقة في بيروت، بينما في كتابات الحجّاج الأوروبيّين وغيرها من المصادر (رسائل التجّار والوقائع التاريخيّة المدوّنة) معلومات قد تساعدنا في إيجاد الأجوبة.

كان للبنادقة منازل فرديّة في بيروت: عام ١٤٣٢ أقام برتراندون دو لا بروكيير Bertrandon de La Broquière في منزل تاجر بندقي يدعى باولو بربارِيغو Paolo Barbarigo[٢٢]. وعام ١٤٨٣، أقام جوس فان غيستل Joos Van Ghistele في منزل تاجر بندقي في بيروت وذكر أنّ للبنادقة «منزلين أو ثلاثة»[٢٣]. وعام ١٤٩٨، أفاد أرنولد فون هارف Arnold Von Harff أنّ للبنادقة في بيروت مخازن ومنازل يعيشون فيها مع خدم[٢٤]. وذكر مدوّنو الأحداث التاريخيّة لمدينة البندقيّة، دومينيكو ماليبييرو، وجيرولامو بريولي، ومارينو سانوتو، أنّ للتجّار البنادقة منازل في بيروت[٢٥].

ما المقصود بـ«منازل التجّار»؟ هل هي الواردة في المصادر وتعني فنادق، أم هي شكل من السكن الفردي أو الجماعي؟

الفندق غير المنزل

الحجّاج والمدوّنون التاريخيّون الذين ذكرناهم، عن حديثهم عن منازل التجّار البنادقة في بيروت، لم يستعملوا كلمة فندق *fondaco*: جوس فان غيستل سمّاها *huusen van cooplieden*، وأرنولد فون هارف *kouffhuyser*، والتسميتان تعنيان منازل أو بيوت التجّار. في المقابل،

(٢٢) Bertrandon DE LA BROQUIÈRE, *Voyage d'Outremer de Bertrandon de la Broquière*, Éd. Ch.SCHEFER et H.CORDIER, Recueil de voyages et documents pour servir à l'histoire de la géographie du XIIIe et XIVe siècles, Tome XII, Paris, 1892, p. 40.

(٢٣) Joos VAN GHISTELE, *Tvoyage van mher Joos van Ghistele*, Ambrosius ZEEBOUT (ed), 1998, p. 62.

(٢٤) Arnold VON HARFF, *Die pilgerfahrt des ritters Arnold von Harff in den jahsen 1496 bis 1499*, Herausgegeben von Dr.E.VON GROOTE, Coln, 1860, p. 198.

(٢٥) Marino SANUTO, *I diarii di Marino Sanuto*, I, p. 289; Domenico MALIPIERO, «Annali veneti dall'anno 1457 al 1500 del senator Domenico Malipiero», *Archivio Storico Italiano*, Tomo VII, Seconda parte, Firenze, 1844, p. 336; Girolamo PRIULI, «I diarii di Girolamo Priuli (1494-1512)», *Rerum Italicarum Scriptores*, XXIV, Parte III, 1821, p. 153.

إستعملا كلمة فندق عند الحديث عن مكان سكن التجّار الأوروبيّين في الإسكندريّة ودمشق. أمّا ماليبييرو Malipiero، وبرييولي Priuli وسانوتو Sanuto، فاستعملوا كلمة *casa*. لكن هذه الكلمة، كما وردت في النصوص، غير واضحة: ماليبييرو وسانوتو تحدّثا عن منزل (casa) التجّار البنادقة في بيروت، في حين ذكر برييولي منازل (case) وكلاء التجّار البنادقة في بيروت. وعام ١٥٠٧، مارتينو بومغرتنر Martino Baumgartner، أحد الحجّاج النمساويّين الذين زاروا بيروت، كان الوحيد الذي أطلق على مقرّ إقامة التجّار البنادقة في بيروت إسم الفندق *Venetorum Fontico*؛ إنّها الإشارة الوحيدة عن وجود فندق للتجّار البنادقة في بيروت[٢٦].

برغم الغموض حول الفندق في بيروت وعدم الوضوح في تسمية منازل التجّار، كانت للبنادقة منازل جماعيّة في بيروت بما أنّ أرنولد فون هارف ومارتينو بومغرتنر أقاما فيها وأحسن البنادقة استضافتهما. فهُما أقاما في منزل تسكنه جماعة من التجّار البنادقة لا في منزل يسكنه تاجر واحد كما مع برتراندان دو لا بروكيير وجوس فان غيستل. ربّما التفسير الأكثر قبولاً لهذه المعلومات أن كانت للتجّار البنادقة في بيروت، في الوقت نفسه، منازل جماعيّة وفرديّة. على الأرجح لم يكن من فنادق للتجّار الأوروبيّين في بيروت، وما أسماه مارتينو بومغرتنر «فندقًا»، أو أرنولد فون هارف وجوس فان غيستل «بيت التجّار»، هو منزل جماعيّ يقيم فيه التجّار البنادقة، أطلق عليه الحجّاج اسم الفندق لكنّهم أخطأوا في مزج الصيغة الماديّة، أي الجماعيّة، للمسكن ووضعه القانوني[٢٧]، وإلاّ لماذا لا تطبّق السلطات المملوكيّة على فنادق التجّار

---

٢٦) « *Baruthum intramus in venetorum fontico humaniter excipimur...* » Martino BAUMGARTNER, « Ephemeris sive diarium peregrinationis, transmarinae, videlicet Aegypti, Montis Sinai, Terrae Sanctae ac ultimo Syriae anno domini 1507 et sequenti », C.D.NORIMB (ed), *Georgii Gemnicensis ephemeris peregrinationis transmarinae*. Thesauri anecdotorum, Tome II, partie III, p. 600.

٢٧) يتمتّع الفندق بحصانة مميّزة مضمونة بمعاهدات بين السلطان والمدن الأوروبيّة، لا تطبّق في داخله قوانين السلطنة المملوكيّة. نتيجة هذا الوضع المميّز، أصبح الفندق بالنسبة للأوروبيّين مكانًا شبيهًا بقطعة أرض من وطنهم. تكمن الميزة الخاصّة والفريدة لفنادق التجّار الأوروبيّين في نظام الحصانة التي تتمتّع به والذي يسمح لها أن تكون خارج إطار تطبيق القانون المعتمد في السلطنة المملوكيّة ما يؤدّي إلى خلق فسحة محدّدة داخل مدينة إسلاميّة يطبّق فيها تنظيم مميّز لا أصول له في الشرع الإسلامي ولكن يتوافق مع المصلحة العامّة للسلطنة المملوكيّة خصوصًا الفوائد الإقتصاديّة وما تدرّه من أموال على الخزينة.

في بيروت التدابير ذاتها التي تطبّقها في الإسكندريّة ودمشق بإغلاق الفنادق عند غياب الشمس وإعادة فتحها عند الصباح[٢٨]؟

إذا كانت للبنادقة منازل فرديّة، لِمَ كانوا بحاجة إلى منازل جماعيّة؟

يسكن المنازل الفرديّة تجّار بنادقة يقيمون بشكل دائم في بيروت (أي وكلاء التجّار) بينما المنازل الجماعيّة يسكنها تجّار يزورون بيروت خلال موسم الأعمال التجاريّة *la muda* ويغادرونها عندما تعود السفن إلى البندقيّة، أي أنّ إقامتهم في بيروت محدودة بنحو شهر أو شهرين حدًّا أقصى وتنتهي مع انتهاء أعمالهم[٢٩].

إنّ وصف منزل تاجر بندقي في بيروت عام ١٤٨٤ يفيد بأنه محاط بجدران، يعيش فيه التاجر مع خدمه، يحتوي على غرف يُستعمَل بعضها كمخزن للبضائع.[٣٠] لم يكن التجّار يحضرون معهم زوجاتهم للإقامة معهم

---

٢٨) كانت المصلحة الإستراتيجيّة للسلطات المملوكيّة تقضي باتّخاذ تدابير تمنع التجّار الأوروبيّين من التآمر والتحرّك ضدّ المسلمين في حال تعرّضت المدن الساحليّة لهجوم من إحدى القوى الأوروبيّة المعادية للمماليك وذلك بحصر التجّار الأوروبيّين وجمعهم في فندق وإخضاع أبوابه لمراقبة صارمة بإغلاقها عند مغيب الشمس، حظر الدخول والخروج من الفندق، وفتحها عند الصباح.

«Le voyage de Symon Semeonis d'Irlande en Terre Sainte», *Croisades et pèlerinages. Récits chroniques et voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle*, Danielle RÉGNIER-BOHLER (éd), Paris, 1997, p.974; Bertrandon DE LA BROQUIÈRE, *Voyage d'outremer de Bertrandon de La Broquière*, p. 34.

مسألة إغلاق السلطات المملوكيّة فنادق التجّار وردت في معاهدتين بين البندقيّة والسلطان جقمق سنة ١٤٤٢ وبين فلورنسا والسلطان قايتباي سنة ١٤٩٧:

John WANSBROUGH, «Venice and Florence in the Mamluk commercial privileges», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol.28, 1965, p. 493, 504.

ذكر شافع بن علي في كتابه «الفضل المأثورمن سيرة الملك المنصور» أنّ أبواب الفندق كانت تغلق ليلاً وأيام الجمعة خلال أوقات الصلاة.

شافع إبن علي، **كتاب الفضل المأثورمن سيرة الملك المنصور**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، المكتبة العصريّة، صيدا–بيروت، ١٩٩٨، ص ١٢٢.

كانت السلطات المملوكيّة تحظّر على التجّار الخروج من الفندق إلى أسواق خالية من المسلمين أثناء صلاة الجمعة، تفاديًا لحصول حوادث سرقة قد يقوم بها التجّار الأوروبيّون.

٢٩) كانت مدّة رسو السفن البندقيّة في مرفإ بيروت تتراوح بين ١٥ و٣٥ يومًا وفقًا لسير الأعمال وكميّة البضائع التي تُشحَن على السفن:

Archivio di Stato di Venezia, Senato Misti, reg.55, f.147v, f.148, f.149r ; Senato Misti, reg.56, f.106, f.107.

٣٠) Éric VALLET, *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XVe siècle*, p. 206.

في بيروت، لذلك غالبيّتهم كانوا عازبين، لهم خدم من الرجال فقط، يحضرونهم معهم من أوروبا[٣١].

خارج المدينة – داخل المدينة

هل كان للبنادقة في بيروت حيٌّ خاصٌّ بهم؟

لا تعطي المصادر معلومات واضحة عن هذا الموضوع، ولكن وفقًا لما كان شائعًا في مدن العالم الإسلامي، لضرورات أمنيّة ولاعتبارات دينيّة، مذهبيّة، إتنيّة، وقبليّة، كان من الصعب أن يقيم الأجانب في الحيّ ذاته مع سكّان المدينة[٣٢].

عام ١٣٩٥، أعطى نيكولا دي مارتوني Nicolas De Martoni معلومة عن مكان إقامة التجّار البنادقة في بيروت. لم يتحدّث عن وجود فندق في المدينة لكنّه قال إنّ التجّار البنادقة والجنويّين يسكنون خارج بيروت وسط الحدائق وبساتين الزيتون التي تحيط بالمدينة[٣٣]. تفيد هذه المعلومة أنّ التجّار الأجانب يعيشون منفصلين عن الأحياء السكنيّة، مسيحيّة أو إسلاميّة، داخل المدينة. إنّ عبارة «خارج المدينة» *extra civitatem* التي استعملها نيكولا دي مارتوني غير واضحة لكنّها تتيح أن نستنتج أنّ التجار، حتّى نهاية القرن الرابع عشر، أقاموا خارج المدينة ولم يسكنوا في الخان الذي بناه الأمير سيف الدّين تانكيز (نائب دمشق بين عامي ١٣١٢ و١٣٤٠)، ترجيحًا بالقرب من الميناء[٣٤]. مهما يكن من أمر، وأينما كانت مساكن التجّار البنادقة في بيروت، نعتقد أنّ منازلهم متقاربة خصوصًا

---

٣١) Eliyahu ASHTOR, *Levant trade in the later Middle Ages*, Princeton University Press, 1983, p. 407.

٣٢) Albert HOURANI, *Histoire des peuples arabes*, Traduit de l'anglais par Paul Chemla, Éditions du Seuil, 1993, p. 172–173.

٣٣) «*extra civitatem sunt etiam jardena pulcra et oliveta pulcra et sunt multi mercatores venitiales et januenses*» Nicolas DE MARTONI, «Relation d'un pèlerinage à Jérusalem de Nicolas de Martoni, notaire italien (1394–1395)», Léo LEGRAND (éd), *Revue de l'Orient Latin*, III, 1894, p. 626.

٣٤) صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت وهو اخبار السلف من ذريّة بحتر بن علي امير الغرب ببيروت**، أشرف على تحقيقه فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي بالإشتراك مع مجموعة من المؤرّخين، دار المشرق، بيروت،١٩٦٩، ص ١٥٤–١٥٥؛ أبو المحاسن يوسف إبن تغري بردي، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، حقّقه ونشره محمّد محمّد أمين، منشورات الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، المجلّد الرابع، ١٩٨٦، صفحة ١٦٤.

أنّ حصر سكن التجّار في مكان محدّد يتيح للسلطات المحليّة، ولقنصل البنادقة أيضًا، مراقبة سياسيّة وماليّة على التجّار.

خلال القرن الخامس عشر، أعطى الحجّاج الأوروبيّون الذين مرّوا ببيروت معلومات مختلفة عن تلك التي أوردها نيكولا دي مارتوني. وذكر جيلبرت دو لانوا سنة ١٤٢١، برتراندان دو لا بروكيير سنة ١٤٣٢، جوس فان غيستل سنة ١٤٨٣، أرنولد فون هارف سنة ١٤٩٨، مارتينو بومغرتنر سنة ١٥٠٧، أنّ منازل التجّار الأوروبيّين كانت داخل مدينة بيروت ولكن لم يحدّدوا موقعهم، وتبعًا لهم يمكن أن نستنتج أنّ التجار البنادقة، حتى نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، سكنوا في منازل خارج المدينة. ومع مرور الزمن، نتيجة تطوّر التجارة في بيروت وارتفاع عدد التجّار المقيمين فيها، تبدّلت الأوضاع وسُمِحَ للتجّار بالإقامة داخل المدينة. فبالإضافة إلى الخان في بيروت، تمّ بناء مساكن داخل المدينة لتأجيرها للتجّار، تستعمل للسكن أو لتخزين البضائع، ولم يعد من ضرورة لبنائها بعيدًا عن مركز التجمّعات السكنيّة. وعلى الأرجح كانت منازل التجّار ومخازنهم قريبة من المرفأ حيث السوق الرئيسي لبيروت المخصّص للاستيراد والتصدير.

الحرية في بيروت

وفق معلومات المصادر، تمتّع التجّار الأوروبيّون المقيمون في بيروت بحريّة أكثر ممن أقاموا في المدن الداخليّة لبلاد الشام، خصوصًا دمشق. ففي دمشق، وفقًا لما ذكره برتراندون دو لا بروكيير «أنّ المسيحيّين (أي التجّار الأوروبيّين) مكروهون جدًّا» وأنّ السلطات الحاكمة في المدينة تقفل أبواب منازل التجّار عند مغيب الشمس ولا تفتحها إلاّ صباح اليوم التالي[٣٥]. وليس في بيروت نصوص المعاهدات أو في كتابات الحجّاج الأوروبيّين أيّ إشارة لتدابير مماثلة اتّخذتها السلطات ضد التجّار الأوروبيّين. على الأرجح أنّ التجّار الأوروبيّين في دمشق كانوا يتعرّضون لمضايقات السكّان، لذا كان حكّام المدينة، تحت ضغط رجال الدين، لا يتدخّلون دائمًا لحماية التجّار، وكان يصعب على التجّار أحيانًا إقامة القداديس: عام ١٣٧٥، قدّم البنادقة طلبًا رسميًّا لحاكم دمشق ليسمح لهم إقامة القداديس في بيت القنصل أو في إحدى كنائس دمشق[٣٦].

(٣٥) Bertrandon DE LA BROQUIÈRE, *Voyage d'outremer de Bertrandon de La Broquière*, p. 38.

(٣٦) George Martin THOMAS, *Diplomatarium Veneto-Levantinum*, II, p. 170. في بيروت، كان التجّار البنادقة يقيمون القداديس في كنيسة المخلّص للرهبان الفرنسيسكان. للمعلومات عن هذا الموضوع:

أعداد التجّار

وسَّع التجّار البنادقة تجارتهم مع بلاد الشام عبر ميناء بيروت، ما دفع بكبرى الشركات التجاريّة البندقيّة بتعيين وكلاء في بيروت لإدارة الأعمال، ومراقبة الأسواق وتقلّبات الأسعار، والإشراف على شحن وتفريغ البضائع مع وصول السفن التجاريّة البندقيّة إلى مرفإ بيروت. ولم يكن كبيرًا عددُ التجّار البنادقة أي الوكلاء، المقيمين بشكلٍ دائم في بيروت. كان في بيروت سوق مهمٌّ تصل إليه البضائع والسلع الشرقيّة والأوروبيّة، وتملك ميناء يستقبل السفن من كافّة الأحجام، لكنّ القسم الأكبر من التجّار البنادقة فضّل الاستقرار والإقامة في دمشق حيث السوق الرئيسي لكلّ منطقة بلاد الشام الجنوبيّة[٣٧]. استنادًا إلى ما ورد في المصادر البندقيّة، بلغ عدد أفراد الجالية البندقيّة في دمشق عام ١٤١٨ ثمانية وعشرين تاجرًا، وواحدًا وأربعين تاجرًا عام ١٤١٩.[٣٨] أمّا في بيروت، فإنّ عدد التجّار البنادقة المقيمين بشكل دائم لم يتجاوز العشرة، بل أقلّ، طيلة القرن الخامس عشر: أربعة تجّار عام ١٤١٩، وسبعة تجّار في أواخر القرن الخامس عشر، بين عامي ١٤٨٢ و١٤٩٩[٣٩]. وأعطت المصادر المختلفة (سجلّات مجلس الشيوخ البندقي، سجلّات كتّاب العدل، رسائل التجّار،

Pierre MOUKARZEL, «La présence franciscaine à Beyrouth sous la domination mamelouke (1291–1516) d'après les récits de pèlerinage», *Revue d'Histoire Écclesiastique*, Université de Louvain, Belgique, Vol. 103, 2008, p. 50–84.

٣٧) عام ١٤٣٢، إلتقى برتراندون دو لا بروكيير بتاجر جَنَوي في بيروت نصحه بالتوجّه إلى دمشق حيث معظم التجّار الأوروبيّين: البنادقة، الجنويّون، الكتلان، الفلورنسيّون، وغيرهم من التجّار من الجنسيّات المختلفة.
Bertrandon DE LA BROQUIÈRE, *Voyage d'outremer de Bertrandon de La Broquière*, p. 29.

٣٨) Eliyahu ASHTOR, *Levant trade in the later Middle Ages*, p. 253.

٣٩) بين ١٤٨٢ و١٤٨٦، أظهرت الرسائل المتبادلة بين التجّار البنادقة المقيمين في بلاد الشام أنّ أفراد الجالية البندقيّة كانوا: ٧ تجّار في بيروت، ٦ في طرابلس، ١٦ في دمشق، ١٦ في حلب.
Éric VALLET, *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XVe siècle*, p.319–320.
إذا أضفنا أسماء التجّار البنادقة التي ذكرها الحاجّ جوس فان غيستل عامي ١٤٨١ و١٤٨٣، يصبح عدد التجّار في بيروت بين ١٤٨٢ و١٤٨٦ نحو ١٠.
Joos VAN GHISTELE, *Tvoyage van mher Joos van Ghistele*, p. 62, 289.
عام ١٤٩٩، ذكر دومينيكو ماليبييرو أنّ سبعة تجّار بنادقة يقيمون في بيروت.
Domenico MALIPIERO, «Annali veneti dall'anno 1457 al 1500 del senator Domenico Malipiero», II, p. 649.

كتابات الحجّاج الأوروبيّين) أسماء بعض أفراد الجالية البندقيّة في بيروت خلال القرن الخامس عشر:

الإسم	السنة
نيكولو مودازيو (قنصل)	١٤١٢
جاكومو ديللاّ تورّي (كاهن)	١٤٢٠
بولو بربارِيغو (قنصل)	١٤٣٢
كريستوفورو دل فيوري(كاهن – كاتب عدل)	١٤٥٤–١٤٥٧
أنطونيو جوستينيان	١٤٧٧–١٤٨٢
جاكومو غبرييلي (تاجر)	١٤٨١
جاكوبو دولفين (تاجر)	١٤٨١–١٤٨٢
لودفيكو جوستينيان(تاجر)	١٤٨٣
ألفيزي جوستينيان (تاجر)	١٤٨٤
ألفيزي دولفين (تاجر)	١٤٨٤–١٤٨٥
جاكوبو غبرييلي (تاجر)	١٤٨٤–١٤٨٦
أنزولو ماليبييرو (تاجر)	١٤٨٤
لورنزو موروسيني (تاجر)	١٤٨٤
جوان روسكي (تاجر)	١٤٨٤
بييرو سكورتيغا (تاجر)	١٤٨٤
بينيتّو كونتريني (تاجر)	١٤٩٧
ألفيزي كونتريني (تاجر)	١٤٩٧

بشكل عام، كان عدد أفراد الجالية البندقيّة المقيمين في بيروت بشكل دائم لا يتجاوز العشرة، ولكنّ الجالية البندقيّة في بيروت كانت الأكبر بين الجاليات الأوروبيّة الأخرى، تحديدًا الجاليتين الجنويّة والكتلانيّة.

كان محدودًا عدد التجّار البنادقة في بيروت لكنه خلال المواسم التجاريّة، في آذار وأيلول، كان يرتفع مع مجيء السفن وبدء عمليّات التبادل التجاري عبر أسواق وميناء بيروت، إنما مدّة إقامتهم تكون قصيرة. يُضاف إلى ذلك أنّ وصول السفن البندقيّة إلى بيروت يتزامن مع وصول القوافل المحمّلة بالتوابل ومنتوجات وسلع الشرق الأقصى إلى دمشق،

فتزداد نشاطات وأعمال التجّار ويرتفع عددهم: عام ١٤١٤، كان نحو ٩٠ تاجرًا بندقيًّا في دمشق يقومون ببيع وشراء البضائع وبعدها يعودون إلى بيروت لشحنها على متن السفن المغادرة إلى البندقيّة[٤٠].

ظروف الإقامة

لم تكن مدّة إقامة التاجر البندقي في بيروت محدّدة مسبقًا، فوصول ومغادرة التجّار يرتبطان بسير الأعمال التجاريّة والفرص التي تسمح باستثمار الأموال وجني الأرباح. وفي بعض الأحيان، تطول مدّة إقامة التاجر لسنوات عديدة يتنقّل خلالها بين المدن والأسواق التجاريّة وفق ما يراه مناسبًا لمصالحه، ويمكن له أن يغادر إلى بلاده لبعض الوقت يعود بعدها إلى مقرّه في بيروت لمعاودة عمله. فمثلاً، أقام التاجر أنطونيو جوستينيان في بيروت بين عامي ١٤٧٧ و١٤٨٢، كان في طرابلس عام ١٤٨٤ وفي دمشق عام ١٤٩٢[٤١]. إذن، تتجدّد إقامة التاجر وفقًا للظروف ولضرورات التجارة. لذا كانت الإقامة الدائمة في بيروت مرتبطة باستمراريّة الأعمال التجاريّة والمكاسب التي يمكن أن تتحقّق.

الخدمات القنصلية

تاجر بندقي

كانت جاليات التجّار الأوروبيّين في السلطنة المملوكيّة بحاجة إلى تنظيم وإدارة يتيحان تكوين الإطار الذي يساعد التجّار على مواجهة صعوبات تعترضهم في حياتهم اليوميّة وحسن تدبير أعمالهم التجاريّة. لذا عمد حكّام المدن الأوروبيّة إلى اختيار أشخاص من بين الأعيان لتمثيلهم في بلاد الشام ومصر، وللاعتناء بتنظيم أعمال التجّار والإشراف على أوضاعهم ومساعدتهم. أطلِقَ على هؤلاء الأشخاص اسم القناصل، وكانوا

(٤٠) Nicolau JORGA, « Notes et extraits pour servir à l'histoire des Croisades au XVe siècle. Documents politiques réédités avec l'autorisation des presses universitaires de France », *Revue de l'Orient Latin*, IV, 1896, p. 543.

(٤١) *Archivio di Stato di Venezia, Guidici di Petizion, Sentenza a Guistizia,* reg.178, f.94 ; reg.188,f.244 ; reg.192, f.65.

في أغلب الأحيان ينتمون إلى أهمّ العائلات التجاريّة، يتمتّعون بخبرة كبيرة في مجال التجارة والإدارة[٤٢].

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان للمدن التجاريّة الأوروبيّة قناصل في السلطنة المملوكيّة. وكان لمدينة البندقية قناصل في معظم مدن بلاد الشام: دمشق، حلب، سرمين، اللاذقيّة، عكّا، حماة، بيروت[٤٣]. عام ١٣٨٤، أفاد الحاج الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي عن وجود قنصل للبنادقة في بيروت[٤٤]. كان جميع القناصل البنادقة في المدن الشاميّة تحت إمرة وإشراف قنصل البنادقة في مدينة دمشق الذي كان أعلى شأنًا منهم، لذلك، كانوا نوّاب قنصل، وأحيانًا يُسمّون قناصل. كانت مدّة القنصليّة سنتين، ولكن في القرن الخامس عشر صارت ثلاث سنوات[٤٥]. وكان ينتخب نائبَ القنصل ١٢ تاجرًا يعيّنهم القنصل مجلسًا ممثّلاً للجالية البندقيّة،

---

٤٢) يعود تاريخ إنشاء القنصليّات إلى الحضارات القديمة، فعرف المصريّون، والإغريق، والعرب نظام القنصليّة لحماية تجّارهم الذين يسافرون ويستقرّون في بلاد بعيدة. في أوروبا، إستُعمِل إسم قنصل لأوّل مرّة عام ١١١٧. لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع:

Georges SALLES, «L'institution des consulats. Son origine, son développement au Moyen Âge chez les différents peuples», *Revue d'Histoire Diplomatique, Publiée par les soins de la Société d'Histoire Diplomatique*, Onzième année, n.1, Éd. Ernest LEROUX, Paris, 1897, p. 161–191.

٤٣) لا تذكر المصادر تاريخ تأسيس القنصليّات البندقيّة في بلاد الشام، إنّما في سجلّات مجلس الشيوخ البندقي إشارات إلى قناصل معيّنين في المدن الشاميّة. ففي بيروت وردت إشارات وأسماء لنائب قنصل:

بيروت، ١٤٠٧–١٤٠٩: *Archivio di Stato di Venezia*, Senato Misti, reg.47, f.117v; reg.48, f.82

بيروت، ١٤١٢: *Archivio di Stato di Venezia, Guidici di Petizion, Sentenza a Guistizia,* reg.71, f.55r

بيروت، ١٤٢٨: *Archivio di Stato di Venezia*, Cancelleria Inferiore – Notai, Niccolò Turiano, Busta 211, fasc.IV, f.85–86

بيروت، ١٤٤٤: *Archivio di Stato di Venezia*, Senato Mar, reg.2, f.32r

٤٤) *Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli*,Translated from the Italian by Fr.Th. BELLORINI and Fr. Eugène HOADE, Jerusalem, 1948, p.88.

٤٥) Guglielmo BERCHET, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, Torino, 1866, p. 27.

كانت دمشق المقرّ الرئيسي للقنصليّة البندقيّة في بلاد الشام، حتّى ١٥٤٥ عندما قرّر المجلس الكبير البندقي Maggior Consiglio نقله إلى طرابلس ثم إلى حلب بقرار صادر في ١٠ كانون الأوّل ١٥٤٨.

Guglielmo BERCHET, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, p. 19.

وتوكل إليه مهمّة القيام بأعمال القنصل في حال غيابه[٤٦]. كان باستطاعة نائب القنصل أن يقوم بمهام القنصل (الاهتمام بشؤون التجّار، العمل على حلّ مشاكل التجارة، تمثيلهم لدى السلطات) عدا الأمور القضائيّة، لذا، على غرار القنصل، كان يُحاط بثلاثة أشخاص لمرافقته ومساعدته في مهامه: كاهن، طبيب، وحلاّق[٤٧]. يؤمّن الكاهن الخدمات الروحيّة للتجّار وإقامة القداديس، وفي الأمور التجاريّة يُستعان به كرجل ثقة (حفظ أموال أو بضائع، شاهد، الخ...) وككاتب عدل لتسجيل عقود البيع والشراء[٤٨]. وكان الطبيب والحلاّق يعتنيان بصحّة التجّار وتأمين ما يلزمهم من وسائل شفاء (دواء، جراحة)، ويُستعان بهما شاهدين عند تحرير العقود لدى كاتب العدل[٤٩]. كان نوّاب القنصل في المدن والمرافئ التي يقيم فيها التجّار البنادقة، ما ساعد في إعطاء دفع للحركة التجاريّة البندقيّة في بلاد الشام وشجّع التجّار على توسيع أعمالهم وتأمين حاجات حياتهم اليوميّة طيلة إقامتهم في المدن والموانئ الشاميّة.

الامتيازات والاتفاقات التجارية

شكّلت جماعات التجّار البنادقة في مدن السلطنة المملوكيّة «أقليّة» ضروريّة للسلطة الحاكمة. من جهّة، إقامة التجّار في المراكز التجاريّة الشرقيّة تسهّل التبادل التجاري بين الشرق والغرب، ومن جهة أخرى، يمكن للسلطان استخدام جماعات التجّار كرهائن توفّر له تشكيل وسيلة ضغط على القوى الأوروبيّة في حال تعرّض مصالحه للخطر. ضمن هذا الإطار، خضع التجّار البنادقة للرهانات السياسيّة والعسكريّة بين السلطان والقوى الأوروبيّة. فالامتيازات التي حصل عليها التجّار من السلطان والصعوبات خلال إقامتهم في الشرق، تعكس الصراع بين عالَمَين لا تزال فيهما راسخةً في الأذهان فكرةُ الانتصار على الآخر وإخضاعه. صحيح أنّ الحروب «الصليبيّة» انتهت منذ ١٢٩١، لكنّ المسلمين في بلاد الشام ومصر استمرّوا يحتفظون بذكريات أليمة ويعيشون في ظلّ مخاوف تجدّدها إذ لم تتوقف هجمات الأوروبيّين على موانئ ومدن ساحليّة في

٤٦) Guglielmo BERCHET, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, p.13.

٤٧) بالإضافة إلى هؤلاء الأشخاص، كان يساعد القنصل ايضًا ترجمان، أربعة خدّام، ويوضع بتصرّفه حصان للتنقّل والسفر.
Guglielmo BERCHET, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, p. 28, 40.

٤٨) Guglielmo BERCHET, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, p.30.

٤٩) Éric VALLET, *Marchands vénitiens en Syrie à la fin du XVe siècle*, p. 202.

بلاد الشام ومصر طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر.[٥٠]

في عهد السلطان جقمق (١٤٣٨–١٤٥٣)، عُقِدَت اتفاقيّة تجاريّة مع البندقيّة عام ١٤٤٢ لإعطاء دفع جديد للعلاقات التجاريّة بين مدينة البندقيّة والسلطنة المملوكيّة. تضمّنت المعاهدة خمسة أقسام خُصّصَت لأوضاع التجّار البنادقة وأعمالهم في الإسكندريّة ومدن بلاد الشام: بيروت، طرابلس، اللاذقيّة، حماة.

بيروت: ١٣ بندًا

قسمت بيروتَ المعاهدةُ بقسمها الثالث إلى ١٣ بندًا[٥١]:

البند الأوّل: بأمر السلطان أنّه لا يملك أحد من الخاصكيّة أو البريديّة أو من مماليك نائب دمشق، أو حتّى النائب نفسه، أن يوقف التجّار ويسجنهم أو يضربهم، ويصادر بضائعهم، إلاّ بإذن السلطان، وجميع الأمراء والقادة ملزمون بقرار السلطان.

البند الثاني: لا يمكن للخاصكي (قائد حرس السلطان) أو البريدي (رئيس البريد) أن يحتفظا بمفاتيح أبواب بيروت ولا يفتحاها للتجّار إلاّ بعد الحصول على رشاوى وإكراميّات. يجب أن تكون مفاتيح مدينة بيروت بيد الوالي كما العادات والأعراف المُعتمَدَة.

البند الثالث: عندما تصل السفن إلى ميناء بيروت، يمكن للبحّارة أن ينزلوا إلى البرّ، يحملون ما معهم من مأكل ويبيعونه دون دفع أي رسم. ولكن إذا كان مع البحّارة سبّحات وفوانيس أرادوا بيعها، يلزمون بدفع رسم قدره ٣،٣٪ دوكة؛ إن لم يحصل بيع وعادوا بما يحملون إلى مراكبهم، فلا يلزمون بدفع رسم وذلك وفقًا للعادات القديمة.

٥٠) تعرّضت بيروت لهجمات الأوروبيّين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لضرب الحركة التجاريّة الناشطة في بيروت خلال العصر المملوكي. تذكر المصادر بعض الهجمات التي حصلت في السنوات التالية: ١٢٩٩، ١٣٣٤، ١٣٦٩، ١٣٨٢، ١٤٠٣، ١٤٢٢، ١٤٣٢، ١٤٣٩، ١٤٤٦، ١٤٥٠:

Pierre MOUKARZEL, « Les expéditions militaires contre Chypre (1424–1426) d'après Sālih bin Yahyā : Quelques remarques sur la marine mamelouke », *Al-Masāq. Islam and the Medieval Mediterranean*, Volume 19, Number2, September 2007, p.179–182.

٥١) نُشِرَ نصّ هذه المعاهدة باللغة الإيطاليّة في:

John WANSBROUGH, « Venice and Florence in the Mamluk commercial privileges», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol.28, 3, 1965, p. 494.

البند الرابع: السفن التي تشحن خمسين كولّلي[٥٢] من البهار، يكون عليها عادةً لمتولّي (الوالي) بيروت خمس دوكات مجاملة له؛ أمّا إذا كانت الحمولة أقلّ من الخمسين، فليس للمتولّي عليها شيء.

البند الخامس: يكون عادةً على كلّ سفينة ترد إلى ميناء بيروت رسمًا قدره ثلاثين دوكة، فلا يتعرّض متولّي بيروت لها، ولا الخاصكي ولا البريدي، لإعاقة شحن السفن أو تفريغها إلاّ بمستند أو بمرسوم شريف صادر عن السلطان، كما أنّ لا أحد يعيق تزويد السفن بما تحتاجه من مأكل وماء وزلط[٥٣].

البند السادس: كل السفن التي تشحن القلي(الرماد)[٥٤] لا تتعرّض لأيّ عائق، أكان من متولّي بيروت، أو الخاصكي أو البريدي.

البند السابع: إذا ارتكب أحد البحّارة فضيحة في بيروت (مخالفة، سرقة، خلاف مع أحد التجّار البيروتيّين) فلا يتعرّض التجّار أو عملاؤهم في بيروت لأيّة أذيّة من قِبَل السلطات الحاكمة.

البند الثامن: يدفع التجّار البنادقة ثمانية دراهم على كل كيس قطن مغزول، ويدفعون لمتولّي بيروت درهمًا على كلّ كيس. أمر السلطان بإبطال ما يأخذه متولّي بيروت لأن ذلك عادة مُستحدَثَة ليس لها سابقة.

البند التاسع: إذا ظُلِمَ أحد التجّار البنادقة، على متولّي بيروت أن يأخذ حق المظلوم من ظالمه، ولا يمنع المظلوم من الحضور إلى الأبواب الشريفة (في القاهرة) لعرض قضيّته أمام السلطان.

البند العاشر: عندما تصل رسائل للبنادقة المقيمين في بيروت، لا يتعرّض لها أحد ولا يصادرها الخاصكي ويعيق وصولها إلى أصحابها.

البند الحادي عشر: لا يتعرّض عامل بيروت للتجّار البنادقة ولا يمنعهم من البيع والشراء كي لا يلحق بهم الضرر.

البند الثاني عشر: بسبب أضرار أصابت التجّار البنادقة نتيجة عوائق من العامل و«بن مناظر الربّان» (رئيس الميناء) في بيروت أمر السلطان بعزل هذين المسؤولين من منصبهما واستبدالهما بآخرين.

---

٥٢) الكولّلو collo (كولّلي colli في صيغة الجمع)، يُعرَف بالمصادر العربيّة بالشخص. هو عبارة عن صرّة تُستعمَل للتوابل زنتها نحو ٩٠ كيلوغرامًا.

٥٣) يُستعمَل الزلط لتثقيل المركب لكي يصبح وزنه كافيًا للعَوم عند تحميله البضائع، أي تزويده بصابورة ليصبح متوازنًا وجاهزًا للإبحار.

٥٤) كان القلي يُستعمَل في صناعة الصابون والزجاج، يحضره البدو إلى طرابلس ودمشق ويُرسَل إلى بيروت لتصديره للخارج.

البند الثالث عشر: لا يمكن لأحد أن يضع العوائق أمام إرسال رسائل التجّار البنادقة إلى بلادهم.

تجاوزات المماليك

مع ذلك، لم يمضِ وقت طويل حتى عادت الأمور إلى التأزّم بين البندقيّة والسلطان جقمق. فعام ١٤٤٧، واجه التجّار البنادقة في بيروت ومدن بلاد الشام تجاوزات السلطات المملوكيّة، وتعرّضوا لأعمال عنف، وأجبروا على شراء البهار بسعر مضاعف. اتخّذ مجلس الشيوخ البندقي قرارًا بمغادرة التجّار البنادقة مدن بلاد الشام والعودة إلى البندقيّة. أرسِلَت تسعة مراكب إلى بيروت لحمل التجّار وبضائعهم خلال ١٥ يومًا[٥٥]. توقّف التبادل التجاري بين البندقيّة وبيروت وأوقف عمل الخطّ البحري الذي يربط المدينتين، واستمرّ انقطاع التجارة البندقيّة مع بيروت وبلاد الشام عمومًا حتّى عام ١٤٤٩. رفض مجلس الشيوخ البندقي إرسال سفن إلى بيروت لشحن التوابل والقطن إلاّ إذا منح السلطان امتيازات للتجّار البنادقة تضع حدًّا للتجاوزات والعوائق التي تلحق ضررًا بالحركة التجاريّة[٥٦].

عام ١٤٤٩، أرسل حاكم البندقيّة، فرنشيسكو فوسكاري، سفيرين الى القاهرة، لورنزو تريبولو Lorenzo Trepolo ومارين دي بريولي Marin di Priuli، لدى السلطان جقمق لعقد معاهدة تضمن حماية التجّار البنادقة، وتؤمّن لهم الظروف اللازمة لتطوير تجارتهم. شملت المعاهدة أوضاع التجّار البنادقة في بيروت، طرابلس، اللاذقيّة، حماة، عكّا، غزّة، الرملة، يافا. وقدّم السفيران طلبًا للسلطان جقمق لإيجاد حلّ لمشاكل يتعرّض لها التجّار البنادقة في مدن بلاد الشام لتفعيل التجارة وإزالة عقبات تمنع تطوير الأعمال التجاريّة وتوسيعها. وتضمّنت المعاهدة أربعة أقسام.

المعاهدة في بيروت

عن بيروت، نصّت المعاهدة على ما يلي[٥٧]:

- منع التعرّض للتجّار البنادقة في بيروت وعدم فرض عليهم أيّة رسوم إضافيّة أو إلزامهم دفع رشاوى وإكراميّات للمسؤولين من الأمراء، والقصّاد، والقادة، والقضاة.

٥٥) *Archivio di Stato di Venezia*, Senato Mar, reg.II, f.28r.

٥٦) *Archivio di Stato di Venezia*, Senato Mar, reg.III, f.80r.

٥٧) نُشِرَ نصّ المعاهدة بالإيطاليّة في:
George Martin THOMAS, *Diplomatarium Veneto-Levantinum*, II, p. 373–378.

- منح التجّار البنادقة حريّة بيع وشراء الفلفل وكل أنواع التوابل، ولا يفرض عليهم شراء بعض السلع والمنتَجات بالقوّة كالسكّر، والقطن، والأقمشة.

- وقف البلص والتجاوزات بحقّ التجّار وعدم سلبهم ما يحملون من مخمليّات، فرو، أجواخ، وغيرها من الأقمشة.

- يمكن للتجّار البنادقة شراء كل ما يريدون، ولا يتدخّل الأمراء، القادة، القصّاد، القضاة، تجّار السلطان، ولا أي شخص كان، ليفرضوا عليهم شراء التوابل بالقوّة وغيرها من السلع من خزينة السلطان.

- عدم التعرّض للتجّار البنادقة لدى شحن أو تفريغ البضائع وإطلاق حريتهم في تخزين البضائع على متن سفنهم أو نقلها الى مخازن مخصّصة لهم في بيروت.

- في حال حصول أي إشكال للتجّار البنادقة، يسمح لهم بالتوجّه إلى القاهرة، أو إرسال مكاتيب، لفرض شكواهم للسلطان.

- عند تفريغ أو شحن البضائع في ميناء بيروت، يوضع في تصرّف التجّار البنادقة حمّالون وجمّالون لتسهيل نقل البضائع إلى السفن أو إلى مخازن التجّار؛ حُدّد أجر الحمّالين والجمّالين بدينار واحد وفقًا للأعراف والعادات القديمة المُعتمَدَة في بيروت.

- عند الوصول إلى ميناء بيروت، يمكن للبحّارة على متن السفن البندقيّة استعمال القوارب الصغيرة التي بحوزتهم لتفريغ البضائع ونقلها إلى البرّ دون دفع أيّة رسوم إضافيّة، ولا يُجبَرون على استعمال قوارب تُفرَض عليهم، وعلى المسؤولين عدم التعرّض لهم أو منعهم من ذلك.

- أعطى السلطان جقمق عهد أمان للتجّار البنادقة كي يحضروا إلى بيروت آمنين، مطمئنيّن على سلامتهم وبضائعهم وأموالهم. وأصدر السلطان أوامره إلى نائبه والأمراء لحسن معاملة التجّار البنادقة وتكريمهم ومنحهم الحريّة في شحن وتفريغ البضائع والبيع والشراء لمن يريدون، والدخول إلى بيروت ومغادرتها دون عوائق أو صعوبات.

مع ذلك، ورغم معاهدات ضمنت للتجّار حمايتهم وحسن سير أعمالهم، استمرّوا يواجهون صعوبات خلال إقامتهم في بيروت، واستمّرت شكواهم مطالبين السلطان بمزيد امتيازات. وفّرت المعاهدات للتجّار البنادقة مكانةً في مدن السلطنة المملوكيّة تعترف بها السلطة الحاكمة، لكنّ هذه

المكانة بقيت هشّة غير مستقرّة تتغيّر وفق رضى السلطان وتبدّل الظروف السياسيّة والعسكريّة والإقتصاديّة.

هيمنة البندقية

إستطاعت مدينة البندقيّة طيلة العصر المملوكي التفوّق على غيرها من المدن التجاريّة الأوروبيّة في تجارة التوابل والقطن في بلاد الشام. فالخطّ التجاري البحري (*la muda*) الذي ربط البندقيّة بيروت، وضع بتصرّف التجّار إمكانات كبيرة تساعدهم على القيام باستثمارات تجاريّة مهمّة في بلاد الشام أدّت إلى هيمنة شبه تامّة على أسواق بيروت، دمشق، طرابلس، حلب، حماة، اللاذقيّة. ولكن نجاح البنادقة مرتبط أيضًا بنتائج التغييرات في البنيتين الاجتماعيّة والاقتصاديّة لبلاد الشام ومصر منذ نهاية الوجود الفرنجي في الشرق. وأصاب الانحطاط معظم الصناعات الشرقيّة القديمة بسبب العوامل السياسيّة والعسكريّة والجغرافيّة والمناخيّة التي أحدثت اضطرابات وعدم استقرار في الحكم، إضافة إلى المجاعات وانتشار الأمراض. نتج عن ذلك ارتفاع كميّة البضائع المستوردة من أوروبا لسدّ النقص الذي يعاني منه الشرق. ففي حين كانت حركة الإنتاج في الشرق بحالة تراجع وركود، شهدت أوروبا ثورة صناعيّة مكّنتها من زيادة الإنتاج وخفض الأسعار ما سهّل عليها إغراق الأسواق الشرقيّة ببضائعها المختلفة[٥٨].

تطوُّر البندقية والعلاقة مع بيروت

وعرفت مدينة البندقيّة تطوّرًا تصاعديًّا بسبب عملتها الذهبيّة، الدوكة، التي كانت متداولة بكميّات كبيرة في الأسواق الشرقيّة. واعتمدت البندقيّة في تعاطيها مع السلاطين سياسة مرتكزة على الصبر وتحكيم العقل متجنّبة الأعمال العدائيّة ضدّ السلطنة، فوفّرت لها هذه السياسة حماية مصالحها الإقتصاديّة والمحافظة على استمراريّة نشاطاتها الاقتصاديّة في الشرق.

(٥٨ Lynn WHITE, *Technologie médiévale et transformations sociales*, Traduit de l'anglais par Martine Lejeune, École Pratique des Hautes Études, 108–109; Claude CAHEN, «Quelques mots sur le déclin Mouton, 1969, p. commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge», *The economic history of the Middle East from the rise of Islam to the present day*, London, 31–36; Charles ISAWI, «The decline Oxford University Press, 1970, p. of Middle Eastern trade, 1100–1850», *Islam and trade of Asia*, Edited by D.S.RICHARDS, 1970, p. 245–266.

جاء التجّار البنادقة إلى بلاد الشام واستقرّوا في أهمّ المراكز التجاريّة طلبًا للربح والثروة، وللحفاظ على المرتبة الشريفة التي ينتمون إليها. فالتجّار البنادقة الذين يقصدون الشرق ويستقرّون فيه ليسوا مغامرين أو مستكشفين بل هم أبناء عائلات نبيلة تتعاطى الأعمال التجاريّة. ولزيادة نفوذ العائلة ورفع مرتبتها الاجتماعيّة وزيادة نفوذها، يسافر الأبناء إلى البلاد البعيدة ويوسّعون تجارتهم لكي يرفعوا اسم عائلتهم ويمهّدوا لأنفسهم الطريق لتبوُّء مركز اجتماعي مرموق، والانخراط في الحياة السياسيّة لمدينة البندقيّة؛ معظم أفراد الطبقة الحاكمة في مدينة البندقيّة يتعاطون التجارة وهم ينتمون إلى أكبر العائلات النبيلة. وتعايش التجّار البنادقة في بيروت مع التجّار البيروتيّين في مجال التبادل التجاري، ولم تسهم طول مدّة إقامتهم في بيروت في الاندماج فعليًا في المجتمع البيروتي. وبقاء البنادقة على هامش المجتمع البيروتي لم يمنع عنهم أعمال العنف وتعريض حياتهم وممتلكاتهم للخطر. صحيح أنّ الوضع القانوني لوجود التجّار البنادقة حدّد ووضعت له أطر بفتاوى دينيّة وبعهود أمان ومعاهدات، لكن الوضع الاجتماعي للتجّار بقي هشًّا خاضعًا للتغييرات السياسيّة والاقتصاديّة ومدى تقبّل السكّان المحليّين لوجودهم بينهم خصوصًا أنّ التجّار البيروتيّين الذين يحتلّون مكانة اجتماعيّة رفيعة، صعُبَ عليهم تقبّل منافسة تجّار غرباء وأغنياء يملكون كلّ الإمكانات اللازمة للسيطرة على السوق البيروتي والتحكّم به.

أخيرًا، هل يمكن القول إنّ الوجود الفعّال للتجّار البنادقة في بيروت جعل اقتصاد المدينة مرتبطًا بالتجارة البندقيّة وتحت تبعيّتها المطلقة؟ أم أنّ تجارة بيروت مع البندقيّة لم تشكّل إلاّ جزءًا ضئيلاً من تجارة بيروت العامّة التي لم تقتصر فقط على أوروبا بل شملت كلّ المدن على البحر المتوسّط وصولاً إلى المناطق الداخليّة في بلاد الشام، ومصر، والعراق؟ من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة لأنّ عدم وجود وثائق محفوظة في مراكز الأرشيف، في بيروت أو في غيرها من مدن العالم العربي، لا يتيح وضع دراسة مقارنة تعطي معلومات عن حجم التبادل التجاري عبر مرفأ بيروت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

بقي التجّار البنادقة في بيروت قرنين يركّزون اهتمامهم على التبادل التجاري. وأبرز ما ميّز التجّار البنادقة: علاقتهم بالسلطة الحاكمة المبنيّة على أساس امتيازات من السلطان، وطريقة عيشهم الخاصّة بمعزل عن السكّان المحليّين. ورغم كل ذلك، بقي وضع البنادقة هشًّا لأنّه ارتبط بالتجارة وبالمصالح الثنائيّة لمدينة البندقيّة والسلطنة المملوكيّة التي كانت تشهد تنافسًا حادًّا بين ضفتي المتوسّط.

The continued commitment

Collectively, these events and products will highlight not only the past work of The Institute, but its continued commitment to gender equality and women's rights in the future. This year, The Institute plans to engage and incorporate a wider audience, including and extending beyond those at the LAU campuses in Beirut to the region and globally, in the hopes of reaffirming its position as an advocate for marginalized groups in the region, irrespective of race or ethnicity, religion, class, gender, ability, or sexual identity. The Institute's work this year, building on the work of years past, focuses on building a truly feminist future, where people can live in dignity. As Sfeir recently noted in a public address,

> To quote from an animated song that [The AiW] created called *Bi'ideh*, or "in my hands," the future is, quite literally, in the hands of our feminist youth. We must encourage and support them to claim this future and to put their visions for equality and dignity into practice. Through our work with students and youth members of the larger community here in Lebanon, we aim to do just that.

Celebrating The Institute's 50th anniversary this year is, therefore, also a testament to the everyday work of The Institute to support the feminist youth in Lebanon, in the region, and beyond to achieve what we hope will be a truly feminist future. More than just a year of special events, The Institute's 50th anniversary is a chance to reflect on AiW's work and its goals to support these feminist youth and gender equality advocates for a better feminist future.

series of webinars specifically for LAU's MEPI Tomorrow's Leaders students on topics including gender discrimination, the COVID-19 pandemic and gender, tackling toxic masculinity and engaging with men about women's rights and gender equality, and civil marriage. In 2022, a special double issue of *Al-Raida* was published featuring only the work of MEPI students, a testament to the powerful effects of gender teaching and scholarship on LAU's campuses.[32]

Celebrating the 50ieth anniversary

This year, The Institute will turn 50 years old, which is a testament to what Dabbous calls one of its greatest strengths: "its continuity and perseverance." As Abirafeh notes, "to get this far [to] reflect on 50 years of work, is something to be proud of."

To celebrate its 50th anniversary, The Institute has planned activities ranging from panel discussions to informal F4T webinars, including a workshop dedicated to women's art and artists in the region. The Institute has also committed itself to hosting five panel discussions with regional experts in its role as the Regional Convener for Women Deliver.

The Institute will also host several events honoring the regional pioneers. The Institute is preparing to release *Our Feminine Memory*, a project that documents the work and stories of women pioneers, as well as a special issue of *Al-Raida* dedicated to gender equality and women's rights advocates and activists from the past 20 years. Finally, in December 2023, The Institute will celebrate the release of a book project that documents the history of The Institute. The book extends back to the founding of the Beirut Women's College and traces the university's commitment to women's rights and equality, manifest in the establishment of and its support for the Arab Institute for Women in 1973.

Domestic Workers in the Light of the Current Economic Crisis"; and "The Kafala System." In 2021, The Institute's F4T series included "Our Bodies, Their Battlefields: A talk with Christina Lamb" and a webinar entitled "Sexuality Matters."

32) The full issue can be found here: http://alraidajournal.com/index.php/ALRJ/issue/view/123

on UN Security Council Resolution 1325.[27] In addition, The Institute was finally able to make one of its programmatic goals for GDHA possible by, with the support of the Global Women's Institute at the George Washington University in Washington, D.C., upgrading, digitizing, and, arguably most importantly, translating the GDHA program into Arabic.

To Lebanese parliament

The socioeconomic and COVID-19 crises did not manage to stop The Institute from continuing its outreach and advocacy programming, either. As an outcome of the Equality for Everyone: Gender Reform from Grassroots to Government, funded by the Middle East Partnership Initiative (U.S-MEPI), The Institute, in collaboration with the NCLW, prepared and submitted to the Lebanese Parliament a draft law proposing to amend the Lebanese Labor Law to include parental leave policies in line with international standards.[28] The AiW also launched a national advocacy campaign promoting the draft law and raising awareness about parental leave rights. Also in 2021, The Institute released its online platform called Shabaket el Meem[29] directed toward LGBTQIA+[30] youth in Lebanon. The creative platform serves as a place where LGBTQIA+ youth can learn more about gender and LGBTQIA+ rights.

Further, The Institute continues to make space for students through its programming. Rather than stopping its student speaker series F4T and other public discussions, The Institute moved this work online without hesitation, bringing speakers to discuss topics related to gender equality and women's rights with LAU's students and the public.[31] The Institute also held a

27) UN Security Council (2000). *Resolution 1325*. 31 October. S/RES/1325.

28) Raissa Batakji, "Parental Leave in Focus," LAU News, July 16, 2021, https://news.lau.edu.lb/2021/parental-leave-in-focus.php.

29) This program was done with the support of the Dutch Embassy in Lebanon. Find more at www.shabaketelmeem.com

30) LGBTQIA+ refers to members of the community who identify as lesbian, gay, bisexual, transgender, queer, intersex, asexual, gender-diverse, gender fluid or other sexual orientations.

31) In 202, The Institute's F4T series included: "Gender Discrimination: Legal, Political, and Economic Implications"; "The Pandemic, The Blast, and Their Effects on Gender Rights"; "Gender in Oil and Gas"; "Migrant

Two Years Later (2022), authors, activists, political scientists, researchers, students, and others reflect on the impact of the Beirut Blast not only on their own lives, but on the lives of others. Written as a mixture of interviews, profiles, and personal testimonies, the issue serves as a reminder of all the trauma that Lebanon has experienced since the *Thawra* and culminating in the Beirut Blast.

War or peace, work goes on

Meanwhile, as the economic crisis worsened and the country came to a political standstill, The Institute continued to work, hearkening back to its founder Julinda Abu Nasr's comments that "war or peace, work had to go on." During 2020 and 2021, with a new director, Myriam Sfeir, at the helm, The Institute managed to strengthen its role as a research and knowledge hub, publishing research reports on violence against women reporters;[23] women in the Arab armed forces;[24] and several critical policy briefs, including one on the status of healthcare workers in the face of COVID-19[25] and on the status of mental health in Lebanon.[26] The AiW also managed to further expand its Continuing Education GDHA program; with support from the International Centre for Migration Policy Development (ICMPD), The Institute expanded the GDHA program to include three new courses on issues related to the Women, Peace, and Security global agenda based

23) Halime El Kaakour, "Comparative Study of Violence against Female Reporters and Male Reporters during Lebanon's 2019 Protest Movement" (Arab Institute for Women; UN Women, 2021), https://aiw.lau.edu.lb/images/Journalists%20VAW%20Study.pdf.

24) Dalia Ghanem and Dina Arakji, "Women in the Arab Armed Forces" (Arab Institute for Women; Carnegie Middle East Center, 2020), https://carnegieendowment.org/files/Women_in_Arab_Armies-final_report_English.pdf.

25) AiW, "The Unsung Heroes and Heroines of Lebanon's Healthcare System" (Beirut: Lebanese American University, 2021), https://aiw.lau.edu.lb/images/Policy%20Brief%201.pdf.

26) AiW, "Mental Health in Lebanon: A Right Requiring Urgent Intervention" (Beirut: Lebanese American University, 2021), https://aiw.lau.edu.lb/images/def2348aad6fa79be935a07311205d8eac2baed7.pdf.»plainCitation»:»AiW, "Mental Health in Lebanon: A Right Requiring Urgent Intervention" (Beirut: Lebanese American University, 2021

the agenda in the Arab region.[22] She also renamed *Taht al-Mijhar* the Food 4 Thought (F4T) speaker series, which targeted LAU students. Relatedly, Abirafeh helped to establish the competition "Art for Activism"; affiliated with the global 16 Days of Activism Against Gender-Based Violence, The AiW, in collaboration with UNESCWA, holds a yearly art competition, asking participants to produce artwork that reflects on that year's global theme. Abirafeh also established two important sources of outreach for both scholars and activists. First, she set up the *Aqlam* paper series, which was built as a productive counterpoint to *Al-Raida*. *Aqlam* is a more flexible platform that gives activists, advocates, researchers, and even students the chance to publish a wide variety of pieces on current events and other issues affecting the gender equality and women's rights. Second, Abirafeh, with the support of the AiW staff, established the Suad Joseph Distinguished Lecture Series, with the aim of bringing world renown women's and gender studies experts to speak to LAU students about research being done in the field.

Surviving Crisis:

Thawra, COVID-19, and Economic Collapse in Lebanon

As the 2019 popular uprising or *Thawra* took place, The AiW found itself taking up a familiar role: that of supporter and knowledge hub. In particular, The AiW edited a special issue of *Al-Raida* on Gender and Revolutions. The AiW also organized a collaboration with *Kohl, A Journal Body Research*, also based in Beirut, called "Writing Beirut," which was created to give gender and social justice activists a place to speak and write about the tumultuous political, social, and economic crises and events that continued to plague the country.

Al-Raida would also serve as an important documentation tool for the events of the August 4, 2020, deadly explosion at the Port of Beirut. In a special issue entitled *Remembering the Blast:*

22) AiW, KVINFO, and UN ESCWA, "Beirut Call for Action: Prioritizing Women, Peace and Security on the Arab Agenda" (Beirut: Arab Institute for Women, January 2016), https://www.unescwa.org/publications/beirut-call-action-prioritizing-women-peace-and-security-arab-agenda.

is free to use. Additionally, Dr. Abirafeh helped to establish the Julinda Abu Nasr Women and Gender special collection at the LAU Riyad Nassar Library on the university's Beirut campus.[20] She also worked closely with various UN organizations, including the UN Population Fund (UNFPA) to mainstream gender and feminist theory in classrooms around the country, working with a group of experts to develop syllabi for entry-level undergraduate classes in women's studies. Finally, and with the help of key feminist allies across the LAU's campuses in Beirut and Byblos, Abirafeh managed to establish the Title IX Office, which is dedicated to gender equality and is mandated by U.S. law to be active on all U.S.-registered and funded university campuses.[21]

Abirafeh's history as a women's rights activist and an expert on gender-based violence around the world drove her to expand The Institute's activist work. Abirafeh continued Dabbous' work on security sector reform through a training program for Lebanon's Internal Security Forces and General Security.

Beirut call to Action

In addition, Abirafeh spearheaded an international conference on the Women, Peace and Security Agenda, resulting in a *Beirut Call to Action* that includes 15 recommendations for advancing

20) LAU, "LAU and Its Institute for Women's Studies Salute Founding Director Julinda Abu Nasr," January 30, 2017, https://www.lau.edu.lb/news-events/news/archive/lau_and_its_institute_for_wome/.

21) Dana Haffar, "LAU Adopts a Strategic Approach to Its Gender Equality Policies," LAU, March 11, 2022, https://news.lau.edu.lb/2022/lau-adopts-a-strategic-approach-to-its-gender-equality-policies.php.\\uc0\\u8221{} LAU, March 11, 2022, https://news.lau.edu.lb/2022/lau-adopts-a-strategic-approach-to-its-gender-equality-policies.php.}», «plainCitation»: «Dana Haffar, "LAU Adopts a Strategic Approach to Its Gender Equality Policies," LAU, March 11, 2022, https://news.lau.edu.lb/2022/lau-adopts-a-strategic-approach-to-its-gender-equality-policies.php.», «noteIndex»: 15}, «citationItems»: [{«id»:1450, «uris»: [«http://zotero.org/users/3317765/items/SKT2UBSY»], «itemData»: {«id»: 1450, «type»: «webpage», «container-title»: «LAU», «title»: «LAU Adopts a Strategic Approach to its Gender Equality Policies», «URL»: «https://news.lau.edu.lb/2022/lau-adopts-a-strategic-approach-to-its-gender-equality-policies.php», «author»: [{«family»: «Haffar», «given»: «Dana»}], «issued»: {«date-parts»:[[«2022»,3,11]]}}}], «schema»: «https://github.com/citation-style-language/schema/raw/master/csl-citation.json»}

Started while Dabbous was still director, the report, produced in collaboration with International Center for Transitional Justice (ICTJ), was released in 2015 under Aghacy's guidance.

Aghacy was also at the head of The Institute when it hosted two important conferences. The first, entitled "Arab Countries in Transition: Gender Rights and Constitutional Reforms" from June 23–25, 2014. On the heels of the Arab uprisings that began in 2011, the conference focused on the roles of constitutions and other legal frameworks for upholding democracy and gender equality.[17] The second conference, entitled "Upholding Gendered Peace at a Time of War: Academics and Activists Speak Out on the Shifting Places of Women in the Arab World," from June 8–11, 2015, similarly looked at the ways that the Arab uprisings, and the legal shifts that followed, affected women's rights and gender equality around the region.[18]

Lina Abirafeh

Dr. Lina Abirafeh would become the fifth director of The Institute beginning in 2015. Following in the footsteps of past directors, Abirafeh would ensure that The Institute remained squarely at the intersection of academia and activism in its work and outreach. On the academic front, Abirafeh helped to get the master's program, originally established by Dabbous, back up and running, this time under a new name, the MA in Interdisciplinary Gender Studies. As well, she established a minor undergraduate degree in Gender Studies just one year after her arrival.[19] She also helped to launch a continuing education program entitled Gender in Development and Humanitarian Assistance (GDHA). Several other important academic activities define Abirafeh's time at The Institute, including the complete digitization of *Al-Raida*, which today is hosted on an independent website and

17) AiW, "Do Constitutions Bring about Gender Justice?" July 4, 2014, https://www.lau.edu.lb/news-events/news/archive/do_constitutions_bring_about_g/.

18) AiW, "Upholding Gendered Peace at a Time of War: Academics and Activists Speak Out on the Shifting Places of Women in the Arab World" (Beirut: Lebanese American University, 2015), https://eventscal.lau.edu.lb/images/Conference%20Program%5B1%5D.pdf.

19) LAU, "We Need Gender Studies to Battle Inequality," March 7, 2016, https://www.lau.edu.lb/news-events/news/archive/we_need_gender_studies_to_batt/.

at The Institute was that she was able to establish a Women's Studies master's degree program at the LAU.

Illustration by Oscar Hassrouthy

Samira Aghacy

Between 2013 and 2015, Dr. Samira Aghacy worked as the Interim Director to The Institute, while the organization searched for a new director. During her time, Aghacy ensured that The Institute continued to produce its foundational products, including *Al-Raida*, as well as its outreach programs such as BLSP. Importantly, Aghacy oversaw the release of the report *Protection of Minors from Early Marriage*, a legal study written in coordination with the National Commission of Lebanese Women (NCLW), part of a national campaign for the protection of minors from early, child, and forced marriage in Lebanon. Aghacy also ensured the completion and release of a report entitled *Living with the Shadows of the Past: The Impact of Disappearance on Wives of the Missing in Lebanon*, which explored the heavily politicized topic of the forcibly disappeared during the civil war.[16]

16) Christalla Yakinthou, "Living with the Shadows of the Past: The Impact of Disappearance on Wives of the Missing in Lebanon" (Beirut: Arab Institute for Women; International Center for Transitional Justice (ICTJ), 2015), https://aiw.lau.edu.lb/files/ICTJ-living-shadows-past-2015-English.pdf.

later appointed to the position of Director. Although becoming the Director of The Institute was "not part of the plan," just like her predecessor Abu Nasr felt, Dabbous "brought [her] own added value" to the organization. This, she says, reflects her own beliefs: "Two things about me, is that I am a committed feminist and researcher…But then I'm also an activist."

Al.Raida to a journal

As a result, Dabbous' time at The Institute is heavily marked by the number of research products and outreach programs the organization was able to complete. Dabbous oversaw the transition of *Al-Raida* from a magazine to a peer-reviewed journal, marked by a new cover design, the same one that is still in print today. Additionally, in 2012, the Mary Turner Lane student paper award was established by Dr. Mary Ellen, in honor of her mother.[14] The award, which continues today, is presented to LAU students whose papers are selected by a committee, as part of a university-wide competition for students to submit their written work on an issue in the field of gender and women's studies. The winners' papers are published in *Al-Raida*. Dabbous also helped to establish, in partnership with KVINFO, the Danish Centre for Information on Women and Gender, an online database called "Who is She in Lebanon." This database, which is fully available and free online, provides the profiles of women pioneers in Lebanon across several categories.[15]

Driven by her desire to see research "turned into something useful" for the communities The Institute was hoping to support, Dabbous oversaw the implementation of several programs dedicated to security sector reform. In a personal interview with Institute staff in 2023, Dabbous notes however that she was most proud of The Institute's work and publication of the *Guide to Working Inside of Women's Prisons* and a booklet, translated into several different languages, aimed at supporting migrant domestic workers in Lebanon to know their rights. Finally, arguably one of the most important legacies of Dabbous' time

14) AiW, "2012 Mary Turner Lane Award," November 21, 2012, https://aiw.lau.edu.lb/news-events/mary-turner-lane-award/winners-2012-mary-turner-award.php.

15) AiW, "About 'Who Is She in Lebanon,'" 2023, https://whoisshe.lau.edu.lb/about-us.

the National Commission for Women's Affairs in Lebanon (1996–1999). Khalaf was also an avid writer for *Al-Raida*, where she explored issues related to women's labor force participation and women's economic empowerment.

Arguably one of the most important products developed at The Institute during her tenure, Khalaf oversaw a country-wide survey of women's labor force participation in 1999.[13] This study remains, to date, one of the most inclusive and expansive surveys of women's labor force participation in the country. Under her lead, The Institute also joined the nationwide campaign led by the Collective for Research and Training on Development and Action (CRTD-A) called "My Nationality: A Right for Me and My Family," which argued for the reform of the 1925 Nationality Law. Just like her predecessor, Khalaf also focused on developing The Institute's role as a knowledge hub for gender and women's issues. As part of this work, The Institute produced the documentary film *Women in Time*, which would become a key product of The Institute's for the rest of its history. The film portrayed the lives of activists in the women's movement in Lebanon up until the start of the civil war; released in 2002, the film now has a sequel, *Women in Time Part 2*, further evidence of just how important this film is as part of the history of the women's movement in Lebanon.

Into the 21st Century:
The Institute at the Intersection of Academia and Activism

By 2005, The Institute would see its third director, Dr. Dima Dabbous, whose time at The Institute is defined by an expansion in its academic focus on women and gender equality. "One of the few feminist" professors at LAU, Dabbous ironically served on the search committee prior to her appointment; one year later, encouraged by colleagues at the LAU, she applied and was

13) Mona Chemali Khalaf, "Employment, Breadwinning and Women's Status: The Case of Lebanon" (Conference on Women and Gender in the Middle East: A Multidisciplinary Assessment of the State of Theory and Research, Bellagio, Italy: Institute for Women's Studies in the Arab World, 2001), 25.

independence, pushing it into a period of "identity crisis."[11] This, coupled with the lack of funds made it difficult for The Institute to retain its regional and international profile to the extent that it had previously: This culminated in The Institute's lack of an invitation to attend the Fourth International Women's Conference in Beijing.

Speaker series

However, The Institute continued to prioritize the roles of women and girls in the rebuilding of Lebanon during this time and turned its attention toward students at the university. In 1996, The Institute, in collaboration with the Friends of IWSAW student group, organized a speaker series for students entitled *Taht al-Mijhar* (under the microscope) for university students and youth on issues related to women's rights and empowerment.[12] The Institute also continued to produce its signature product, *Al-Raida*, which remained thematic and covered issues ranging from the family to women in agriculture.

Mona Khalaf

By 1998, The Institute had a new director, Mona Khalaf. An economist by training, Khalaf's work at The Institute heavily emphasized women's human rights and their participation in the labor force. Further, Khalaf's recognition as a regional expert, in part due to her work with the World Bank and other international organizations, helped her to bring The Institute back onto the international stage. Khalaf was appointed to the position of Coordinator for the World Bank's Consultative Council on Gender for the Middle East and North Africa (MENA) region and was an active member of

11) Lauri King, "Imperiled Pioneer: An Assessment of the Institute for Women's Studies in the Arab World," in *Muslim Women and the Politics of Participation: Implementing the Beijing Platform*, ed. Erika Friedl, 1st ed, Gender, Culture, and Politics in the Middle East (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1997).

12) Ghena Ismail, "Tahtal-Mijhar: Relationships, Young Men and Wome," *Al-Raida*, no. 73 (1996): 8–9.

"perseverance, hope, and faith were the armors that kept us going." Documenting the effects of the war, and the needs of those most affected by it, became a top priority for The Institute over the remaining war years: "Outreach programs to meet the needs of displaced women and children of war," she notes, "took more space in our programs than we had planned." By 1985, The Institute would relaunch an expanded version of BLSP that included 140 lessons in eight thematic areas for poor and marginalized women in Lebanon to address some of the development gaps left in the wake of the civil war. Relatedly, The Institute would host several conferences dedicated to the plight of women and children displaced by the war. The Institute also hosted a speaker series dedicated to children living with disabilities and published several children's books. Targeting refugee and displaced women, The Institute later developed an income-generating program that supported women's livelihoods based on knitting, and also offered several critical training workshops to empower women who were displaced and did not have workforce experience or skills to provide for themselves and their families.

The Struggle for Survival: IWSAW in the Post-War Era

After the formal conclusion of the civil war in 1989 with the signing of the Ta'if Peace Accords, The Institute found itself struggling to survive. The university, under its own budgetary pressures and constraints due to the war, had cut The Institute's budget, forcing it to reorganize its programmatic priorities during the last years of Abu Nasr's tenure as director. Under the guise of focusing on "pragmatic" programming, the university, under its new name as the Lebanese American University, stopped offering women's studies courses and brought the IWSAW under stricter control, ensuring that its programming was less "political."[10] During this time, as King notes in her critique of The Institute, the organization was "politically marginalized" under the bureaucracy of the university and thus lost some of its

10) In 1994, the Board of Regents in New York City approved the university's name change from BUC to the Lebanese American University, or LAU.

build its identity as a source of information on women's rights and women activists in the region.

As the war dragged on, The Institute continued to promote the "responsibility of women in national development," as a "ruined Lebanon need[ed] a larger number of working hands to rebuild it" in the wake of the war's devastation.[8] By 1979, which was declared the Year of the Child by the United Nations, the effects of the civil war on women and girls, and on The Institute itself, could be felt. In one of her editorials that year, Ghurayyib wrote that, "it is vain to speak of the Children's Year in the shadow of canons and bullets. Violence like fire is spreading everywhere and threatening the world with extinction and all of us are responsible for this degradation."[9] As Abu Nasr remembers,

> Just as The Institute started moving in the right direction there came the TSUNAMI of the16-year civil war that destroyed Lebanon. Oh! Those were very hard years to say the least. Our offices were bombed a few times, meeting deadlines was almost impossible. For every action taken there had to be plan one and plan two, and very often it had to be postponed or cancelled after hard work for weeks.

Moving to Cyprus

She even recalls the arduous process of having to move their conferences to Cyprus due to safety concerns:

> We had to carry everything with us from the paper clips to the computers and sail on small boats from the Jounieh Bay. That meant we had to cross the hot line going and coming, and wait on the Jounieh dock for hours on end in the hot sun. On some occasions we had to dock way out, jump on small boats to carry us to shore. To secure a visa for any country we had to risk our lives going to Damascus for that, generally at night and once there we had to stand and wait in long lines for hours. Once I was held for three hours by a militia group in the mountains on the way back from Damascus because I came from one of the villages that were evacuated in that area. That was quite an experience to remember.
>
> But "war or peace, work had to go on," she writes, and

8) AiW, "Post-War Thoughts," *Al-Raida* 4 (1978): 1.

9) Rose Ghurayyib, "The Year of the Child the Year of Hope," *Al-Raida*, no. 8 (1979): 1.

Raida, Rose Ghurayyib, whose editorials, throughout her time at The Institute, would serve as a critical documentation for the organizations work during the tumultuous time of the civil war.

From left: Lina Abu Rafeh, Samira Aghacy, Mona Khalaf, Julinda Abu Nasr

Bibliography on Arab women

Importantly, the role of The Institute as a source and hub of knowledge and information on women's rights in the region was slowly developing under the guidance of both Dr. Abu Nasr and Rose Ghurayyib. In 1976, The Institute had begun compiling a bibliography on Arab women "in English, including books and periodicals, basically covering all aspects of the status of the Arab woman."[6] By 1978, The Institute had developed a Documentation Center, to "provide adequate knowledge and research material for everyone interested in the study of women, more particularly, women of the Arab East," as Ghurayyib wrote in *Al-Raida*.[7] At the same time, *Al-Raida* was expanding, and including profiles on important women activists and women's rights advocates from around the region, documenting the works of Arab reformers like Qassem Amin, women writers like Rima Alamuddin, May Ziadeh, and Zainab Fawwaz. *Al-Raida* also became an important source of information on women's studies programs in the region and globally, documenting the growing number of universities that had certified women's studies degrees at the undergraduate and graduate levels. In this way, The Institute would continue to

6) AiW, "Recently Received by IWSAW," *Al-Raida* 2 (1977): 11.

7) Rose Ghurayyib, "Importance of Documentation in the Arab World," *Al-Raida* 3 (1978): 1.

of the IWSAW as a source of support for Arab women.[3] Organized around several thematic areas—research, communications, documentation, and outreach—the IWSAW's work under Abu Nasr focused on development and community outreach to marginalized women and girls and included research on key development themes such as women's education and literacy rates. The Institute emphasized women as "a human resource of development," one that had been hitherto ignored.[4]

Al.Raida

Less than five years into what would become the 15-year civil war, the IWSAW had established some of its most foundational products and programming. In 1976, the IWSAW published the very first issue of its bi-annual journal *Al-Raida*. At the time of its inception, *Al-Raida* was formatted as a magazine; it included both academic research articles as well as staff-written documents that provided an overview of The Institute's work in Lebanon and in the region. By this time, IWSAW had already established itself as a regional presence, with Abu Nasr traveling to four different Arab countries in 1975—Egypt, Iraq, Saudi Arabia, and Syria—to attend conferences and workshops on women's rights, as well as to meet with national and local-level advocates for women's rights. The issues discussed at these conferences ranged from women in rural development, women's legal status, and even women's status in the Muslim family, which was the focus of a conference organized by the International Islamic Center for Population Studies and Research at Al-Azhar University in Cairo.[5]

Issue 2 of *Al-Raida* gives more details about the development work of the IWSAW, including plans for the children's Literature Project for the Arab Countries, and a Basic Living Skills Program (BLSP), which would eventually become another one of The Institute's foundational and best-known products. By 1980, BLSP would be up and running, in spite of the difficulties facing IWSAW staff who continued to work throughout the civil war. At the same time, the IWSAW hired its first full-time editor of *Al-*

3) AiW, "Dr. Abu Nasr Activities in Egypt as a Consultant on Women's Affairs," *Al-Raida* 2 (1977): 8–9.

4) Albert Badre, "Women, a Human Resource for Development," *Al-Raida* 2 (1977).

5) See *Al-Raida* Issue 1 for more information.

world concerned with Arab women; to improve the quality of the lives of Arab women and children through educational and development projects; and to enhance the education and outreach efforts of the LAU.

Board of advisors

Alongside this mission statement, Abu Nasr selected a Board of Advisors to "guide [her] footsteps in the right direction." She intentionally selected "representatives from different backgrounds" in the hopes of "wide[ning] the scope" of The Institute's work: Not only did she include professors from various universities around Lebanon, but she included members of the National Council for Women, government representatives from the Ministry of Social Affairs, and staff from the United Nations Development Fund for Women (UNIFEM, later UN Women) and the United Nations Development Programme (UNDP). With support from this newly established group, Abu Nasr was able to develop a logo for the organization and name it formally as The Institute for Women's Studies in the Arab World.

Growing IWSAW:

Development Projects, *Al-Raida,* and the Specter of the Civil War

With The Institute's new name, logo, and mission statement set in stone, Abu Nasr and her team set to work. Inspired by a visit to Egypt in 1975, where she served as a consultant to the Ford Foundation, Abu Nasr returned to Lebanon with an image

running the nursery school. It took some convincing to get Julinda to move away from teaching, which was her primary interest. We had to do a lot of arm-twisting to convince her to take the position. We were proven right: She did an excellent job throughout the 24 years she served as director. She managed to nurture the institution from an embryo to a very reputable one.[2]

Dr. Julinda Abu Nasr - The founder

Dr. Julinda Abu Nasr had been both a student at the BCW and later, a professor. Her scholarly work focused on education and child development, something that would be reflected in much of The Institute's work during her tenure as director. In her own words, Abu Nasr "was getting ready to come back" to Lebanon following the completion of her PhD at Florida State University, "with a different vision for my career," one that did not include becoming the director of a women's institute. In fact, she writes that her "refusal of the job was rejected," and that she "was actually forced to accept the position" because President Schechter "insisted that I was the right person for the job." Ultimately, however, she gives "thanks to [President Schechter], for this position [as director] was a challenge that provided me with many opportunities to enrich my career and to serve women and children in the Arab world."

Abu Nasr's first two years at The Institute were "challenging," as she recalls. Her first task as director involved developing a mission statement for the nascent organization. In collaboration with, and with approval from the university, Abu Nasr settled on the following:

> [The Institute will] serve as a data bank and resource center to advance a better understanding of issues pertaining to Arab women and children; to promote communication among individuals, groups and institutions throughout the

2) AiW, para. 3.

The Arab Institute for Women: A Brief History

Gabriella Nassif
Editor of Al.Raida journal – AIW – LAU

How it All Started:

Preserving the History of the Beirut College for Women

The first jointly academic and activist institute dedicated to women's rights in the Arab region, the Arab Institute for Women (formerly, The Institute for Women's Studies in the Arab World [IWSAW]) was originally created to "honor the heritage" of the Beirut College for Women (BCW) after it was decided that the university would become a co-educational facility. With the support of the university Board of Trustees, then-president Dr. William H. Schechter approached the Ford Foundation for support establishing an institution that would, according to the then-Dean Riyad Nassar, "continue to [offer] women a special and unique service."[1] The Ford Foundation approved of the idea, and provided three years of seed money to the university to establish and develop the women's institute, which was formally founded in 1973.

Julinda

Following its establishment, Schechter and Nassar set about finding someone to take the helm of the new organization. As Nassar recalls:

> After funding was secured, we needed a director to run The Institute. Dr. Schechter and myself—I was Dean at the time—thought of Dr. Julinda Abu Nasr. She was a faculty member at LAU, and had a good record in teaching, research, and

1) AiW, "The 25 Year Life Story of the Institute for Women's Studies in the Arab World," *Al-Raida* 83–84 (1999 1998), http://alraidajournal.com/index.php/ALRJ/article/view/662/658.

LAU Heritage

Gabriella Nassif

The Arab Institute for Women: A Brief History

- Le Nationalisme syrien connait une régression continue et presque systématique. Au niveau théorique, aucun progrès n'a été signalé. Leur doctrine a fini par devenir dogmatique et répétitif des mêmes slogans. Son extinction dépend de la cessation du soutien politique que lui procurent certains Etats et organisations (Syrie, Iran),

Les Libanistes ont eu un sort différent. Ce courant n'a pas connu une ascension éclatante ni un déclin retentissant. Il a par contre continué à se développer lentement et calmement, adoptant parfois un certain mutisme ou donnant d'autres fois libre cours a un discours virulent surtout pendant la guerre civile. D'ailleurs ils n'ont ni fondé ni dirigé un parti politique. Cela n'exclut pas que certains aient adhéré a un parti ou aient été des sympathisants ou que certains partis aient adopté leur discours et leur vision du monde.

Assistant avec sa femme à la cérémonie inaugurale du pavillon Libanais (NY 1939)

Ce que nous devons à Charles Corm

Les intellectuels représentant le Libanisme sont Kamal El Hage et René Habchi, tous deux philosophes, Saïd Aql, poète, la plupart des écrivains francophones de Georges Schéhadé a Amine Maalouf en passant par Salah Stetié. Sous la plume de ces écrivains, le Libanisme connaitra des configurations différentes et une certaine ciselure lui donnant des formes moins agressives, plus souples et partant plus admissibles par la majorité des Libanais.

Pour conclure, je dirais que le Libanisme n'est pas un parti et ne possède pas d'idéologie rigide. Les libanistes ne tiennent pas le même discours. Leur diversité est bâtie sur une large mais solide appartenance à l'idée du Liban.

Aujourd'hui, tout le monde est Libaniste d'une certaine façon et personne ne voudrait diluer le Liban dans une entité plus grande. Et le slogan scandé après 2005 « ***Le Liban d'abord*** » (je reprends le titre d'une chanson de Brassens, « Les copains d'abord ») est assez éloquent du triomphe de la Libanité.

Tout cela nous le devons à Charles Corm.

Constantin Zureik. Le mouvement adopte une idéologie révolutionnaire, panarabe, socialiste et laïque œuvrant pour la formation d'une élite intellectuelle à même de pouvoir réaliser l'unité arabe. Les nationalistes arabes prendront pied dans plusieurs pays arabes et adopteront le nom de *Mouvement des nationalistes arabes* en 1958.

c. Déclin et fin du mouvement

Des tensions internes et des divergences avec certains pays arabes causeront le retrait du mouvement dans les années soixante. Après la défaite de juin 67, le mouvement retrouvera un bref second souffle. Georges Habache et Wadie Haddad fondent le Front populaire de libération de la Palestine en décembre 1967. La scission dirigée par Nayef Hawatma conduira à la formation d'un nouveau Front de Libération plus radical auquel on ajoutera le terme « démocratique ». Aujourd'hui, beaucoup de partis politiques arabes de gauche trouvent leur origine dans le MNA, en Syrie, en Palestine en Irak et au Yémen. Ces partis occuperont une grande place sur la scène politique de leurs pays respectifs. Parmi les variantes du MNA, on compte le Baas et le courant Nassérien.

Corm s'apprêtant à donner son discours (NY 1939)

Évaluation

Ces trois courants nationalistes s'inspirent du concept européen de l'Etat-Nation dont ils s'étaient inspirés et qui avait donné beaucoup d'espoir aux populations de la région afin de se libérer de l'emprise ottomane et recouvrer leur autonomie, leur liberté et leur Etats indépendants.

Cependant, malgré leurs sources communes, ces courants suivront des parcours différents :

- Les Nationalistes arabes (avec les différentes variantes) vont s'éteindre tant au niveau organisationnel qu'au niveau doctrinal. Il n'en restera que le slogan nostalgique,

Les nationalismes du monde arabe

1. Le parti syrien nationaliste social (PSNS)

Le **Parti syrien nationaliste social (PSNS)** connu aussi sous le nom de **Parti populaire syrien (PPS)** est un parti politique actif en Syrie et au Liban.

Créé en 1932 à Beyrouth, il préconise l'établissement d'une grande nation syrienne. Sa vision de la Syrie comprendrait le Liban, la Syrie, la Palestine, la Jordanie, l'Irak, le Koweït, Chypre, ainsi que le Sinaï en Égypte, la Cilicie en Turquie et le Chatt-el-Arab en Iran.

Hostile au nationalisme arabe, parce qu'une nation ne se base pas sur une langue, une religion ou une ethnie. Bien au contraire, la nation a la vocation d'accueillir plusieurs ethnies car ce qui fait l'identité de l'homme, c'est l'espace géographique dans lequel il vit. Saadé s'en explique dans son livre *La genèse des nations*: « Une nation résulte du mariage d'un groupe d'hommes et d'une terre. »

Il explique encore que: « *La nation résulte non de l'origine ethnique commune, mais du processus unificateur du milieu social et physique ambiant. L'identité des Arabes ne provient pas du fait qu'ils descendraient d'un ancêtre commun, mais qu'ils ont été façonnés par le milieu géographique: le désert pour l'Arabie, l'Assyrie pour la Syrie…* » Ayant négligé l'Arabité de la Syrie au départ, il finira par l'admettre: « *Lorsque nous évoquons le monde arabe, nous entendons le monde qui parle la langue arabe et dont nous sommes.* »

2. L'Arabisme

a. Dans l'Arabisme, il faudra distinguer deux périodes: l'Arabisme culturel de la Nahda (mouvement de renaissance arabe) et l'Arabisme politique des années quarante (du XXe siècle). Je parlerai du second.

b. Le mouvement des nationalistes arabes

Le mouvement des nationalistes arabes trouve ses origines à l'université américaine de Beyrouth vers la fin des années 1940. Georges Habache y mène un groupe d'étudiants nationalistes qui rejoindra au début des années 1950 un autre groupe mené par un autre nationaliste arabe, l'historien

L'impact de l'expérience européenne

Entretemps l'Europe, après la révolution française, traversait une période d'instabilité politique à la recherche de nouvelles formes de gouvernement dont l'Etat-Nation fut le fruit. Les intelligentsias ottomane et arabe étaient très sensibles à cette conception. Les uns trouvaient en elle une solution aux crises de l'Empire, les autres une issue au morcellement dont la région était sujette.

Cet Etat-Nation repose sur une identité, et cette identité doit forcément être nationale. Quant à La nation, elle est l'aboutissement d'une communauté d'éléments: histoire, géographie, langue, religion.

Pour faire du Liban une Nation et partant un Etat, Corm trouvait dans l'histoire phénicienne, la religion chrétienne et la culture française, les éléments requis qui assurent son identité et valident son Etat.

A cet égard, des nationalismes vont surgir au Moyen-Orient sous l'influence de l'expérience européenne de l'Etat-nation qui est un concept théorique, politique et idéologique, désignant la juxtaposition d'un Etat, en tant qu'organisation politique, à une nation, c'est-à-dire des individus qui se considèrent comme liés et appartenant à un même groupe. Ce qui nous mène à déduire que les « nationalismes » dans notre région sont les rejetons de l'Etat-Nation européen:

le nationalisme turc et le Pantouranisme,

le nationalisme arabe et le panarabisme,

le nationalisme syrien et le pansyrianisme

et enfin le nationalisme libanais ou le *phenicianisme*

Tous les écrits de Corm, et particulièrement ses écrits poétiques, constituent une recherche soutenue et opiniâtre d'une identité conduisant à une nation. Et le nationalisme libanais, qui en découle, n'est pas un phénomène isolé. Il y en aura d'autres qui vont sillonner le parcours politique des peuples de la région: le Nationalisme arabe et le Nationalisme syrien. Tous trois sont nés aux lendemains du traité de Sèvres détachant de l'Empire ottoman ses parties arabophones qui deviennent théoriquement indépendantes mais passent de la tutelle des Turcs à celle des Européens.

la Grande Bretagne et les Etats Unis d'Amérique). L'aspiration des Libanais à un mandat français sur son territoire séparé de la Syrie actuelle n'était pas facile à satisfaire. Plus tard, les Libanais auront à combattre des idéologies expansionnistes comme le *Panarabisme*, le *Pansyrianisme* et dernièrement le *Panislamisme* qui projetaient à fusionner le Liban dans une plus grande entité politique.

Ainsi s'est constitué un discours nationaliste libanais armé de quelques principes de base: l'indépendance du Liban, sa séparation de la Syrie, refus d'être gouverné par les Etats arabes, être rattaché à la culture française, la reconnaissance de son passé phénicien tant politique que géographique.

Ce nationalisme libanais s'était donc patiemment construit à partir de la deuxième moitié du XIXe siècle, et s'est développé depuis les crises des années 1840–1860, et ensuite dans le contexte de l'après-guerre (XXe siecle) sur un système d'identité et de différence syro-libanaise.

Au mythe phénicien, la Revue ajoutera et développera un discours national liant *Terre, Histoire et Patrie*:

Convaincu que, dès son origine, le Liban est un « réseau de routes » et un « carrefour des nations », le groupe de *La Revue Phénicienne* s'est fixé le projet de reconstruire et de réécrire l'histoire du Liban à des fins politiques, économiques et culturelles.

Rappelons que nous sommes au tout début du XXe siècle, une époque qui a vu l'effondrement de l'Empire ottoman suivi du désarroi dans lequel s'étaient empêtrés les peuples de notre région qui avaient connu pendant des siècles une domination étrangère agrémentée d'un semblant d'unité administrative imposée par un régime impérial coercitif peu soucieux des particularités nationales et surtout ethnique et religieuses.

1938 – Le jour du baptême d'Ahiram (second fils du poète) sur les bras de sa mère Samia, derrière elle le poète portant son fils aîné David, aux côtés de May Ziadeh (marraine) et Amine Rihani (parrain)

Patrimoine mythique de Corm

En survolant les 10 volumes de ses œuvres poétiques, nous traversons plusieurs civilisations orientales et méditerranéennes qui se croisent. Beaucoup de personnages historiques et bibliques sont cités : Jacob, Madeleine, Didon et Enée, Venus et sa sagesse, Adonis, Ishtar ou Astarté la phénicienne, Cadmos et ses thébains, Bacchus ou Dionysos, Héraclès ou Melkart, Socrate même, etc.

J'aimerais citer un quatrain du sonnet « **Le Pont d'amour** » (7 – *La planète exaltée*) qui exprime sa conception du message que le Liban est censé exprimer :

Du Liban au Japon c'est nous la belle Asie,

Et des cinq continents le giron maternel ;

Ici, croire et songer, sagesse et poésie

Sont au banquet des Dieux notre vin éternel.

Ce monde-là constitue le patrimoine mythique de l'imaginaire de Corm. Et le Libanisme qui en résulte est le produit d'une construction culturelle à partir de ce patrimoine, une combinaison entre *mythologie* et *histoire*, une expression idéologique d'une nation libanaise moderne héritière des grandes civilisations orientales et méditerranéennes. Corm rêvait d'un Liban qui serait l'expression de l'histoire ou il tiendrait le rôle de « trait d'union » entre Orient et Occident.

Corm : témoignage politique

Parler de Charles Corm aujourd'hui, dans le contexte actuel du Liban, a pour moi une signification qui dépasse et son contenu strictement littéraire et sa valeur spécifiquement francophone. L'œuvre de Corm est un témoignage politique de ce que fut le Liban dans la première moitié du XXe siècle.

Corm est, qu'on l'approuve ou non, le pionnier du Libanisme.

Tout a commencé avec la *Revue phénicienne* parue en 1919 un an avant la proclamation du Gand Liban. La revue propageait un discours visant à définir l'identité libanaise. Au-delà du mythe identitaire phénicien, il s'agissait pour la *Revue* de la naissance d'un Etat libanais moderne dans ses frontières actuelles.

Cette naissance ne s'est pas faite sans problèmes, vu les conflits entre les grandes puissances de l'époque (la France,

Charles Corm : *En quête d'une Identité nationale*

Georges Dorlian

Charles Corm, poète et homme de lettres, est de ces auteurs qu'on cite souvent pour la singularité de son œuvre, la hardiesse de ses propos et la fermeté de ses principes et convictions. Tout cela agrémenté d'une riche vision panoramique culturelle et historique des ancêtres du Libanais.

Comment j'ai decouvert Charles Corm

Pour ma part, je peux avouer que je n'ai jamais lu sérieusement l'œuvre de Charles Corm, ayant appartenu a une génération qui mésestimait ce genre de littérature. La seule fois où il m'a été accordé de la lire d'une manière méthodique, c'est lorsque mon ami Henri Zoghaib a sollicité ma participation à ce débat et que *Les Editions de la Revue phénicienne* ont eu la gentillesse de me procurer quelques uns de ses ouvrages.

Cette invitation a toutefois réveillé en moi des souvenirs auxquels je suis toujours très attaché. Jeune lycéen, j'avais eu le bonheur de suivre les cours d'un éminent professeur de littérature française décédé aujourd'hui, Jean Assi, qui a eu une influence décisive sur mon parcours et mes choix littéraires futurs. Il nous avait parlé de Charles Corm, de son art du sonnet, de son recueil *La Montagne inspirée*, de la Revue Phénicienne qu'il avait fondée avec d'autres poètes francophones tels Hector Klat (Khlat), Elie Tyane auxquels s'est joint Michel Chiha, etc., de son profond Libanisme teinté d'un Phénicianisme sans ambages.

noyau autour duquel ont gravité de nombreux écrivains talentueux, dont des écrivains libanais arabophones comme Saïd Akl qui a toujours reconnu sa dette à l'égard de Charles Corm, et qui, dans son livre *Cadmus*, a fort bien illustré les idées prophéniciennes de son mentor.

Même Andrée Chedid, la grande poétesse libano-égyptienne lui est redevable puisqu'elle fut encouragée, lors de son séjour libanais de 1943 à 1945, par Charles Corm qui apprécia son premier recueil en anglais intitulé : *On the trails of my fancy* publié à l'initiative de son mari médecin, et qui lui recommanda d'écrire en français, ce qu'elle fit avec succès.

Corm : Hommage au patrimoine libanais

Enfin, Charles Corm fut, comme le préconisait. Jean Giono, un « professeur d'espérance ». Non content de stimuler ses pairs et de dynamiser la vie culturelle au Liban, au point de mériter un numéro spécial en arabe de la revue *Al-Maarad*, il ne cessa jamais de mettre en valeur le patrimoine libanais, notamment dans sa conférence « 6000 ans de génie pacifique au service de l'humanité » prononcée au Cénacle libanais en 1949, et d'inciter ses compatriotes à militer pour une certaine idée du Liban et à ne pas baisser les bras, malgré les vents contraires, comme le prouve la conclusion de sa conférence où l'on peut lire ces lignes optimistes :

« Soyons bon patriotes, mais en même temps, restons toujours amis de tous et citoyens de l'univers ! Si cependant nous voyons aujourd'hui quelques tristes nuages qui obscurcissent le ciel de nos Montagnes (…), n'oublions pas que nous en avons vu bien d'autres au cours de notre histoire ! N'oublions pas qu'ils passent ! Et qu'ils passent assez vite, en bousculant d'abord les malfaiteurs qui les produisent, mais qu'éternellement ce beau Liban demeure ! ».

Hier, des jurés du prix Goncourt et un grand nombre d'écrivains se sont réunis dans « La Maison blanche » de Charles Corm à l'occasion du Festival du livre. Leur présence en ce lieu était hautement symbolique puisqu'elle constitue un acte de foi en la pérennité de la culture libanaise en dépit de l'obscurantisme de certains, et un hommage au bâtisseur de cet immeuble atypique, Charles Corm, qui fut aussi, avec conviction, le bâtisseur de la Francophonie au Liban.

Corm lançant son discours
à NY (1939)

fils, à titre posthume dans un coffret réunissant dix volumes. On y retrouve un nombre incalculable de poèmes écrits dans une langue classique, qui dénotent une maitrise parfaite de la langue de Molière. Récemment, un roman inédit intitulé *Le volcan embrasé* a été exhumé. Ecrit en 1930, peu après la révolte druze de 1925–1927 qui opposé la France mandataires aux rebelles druze au Liban et en Syrie, il nous plonge au cœur du Djébel Druze. Bien que traditionnellement francophile, Corm s'y montre sévère à l'égard des abus de la puissance mandataire, comme le montre ce passage éloquent : « L'injustice et la violence sont un mauvais système d'Etat. Les Français ont bien fort d'exaspérer les gens de ce pays. On frappe l'amour-propre, la fierté, les coutumes, les traditions. Si les Français qui font des bêtises par ici savaient quel idéal s'attache au nom de la France, ils se mettraient à genoux pour adorer l'image que nous nous faisons de leur pays ».

Corm : Libanais avant tout

De toute évidence, l'attachement du poète à la culture française ne l'aveugle pas au point de cautionner les exactions commises par le haut-commissaire de l'époque le général Sarrail, et par le gouverneur du Djébel-Druze : il demeure clairvoyant et lucide, Libanais avant tout.

Tout bien considéré, l'œuvre poétique de Charles Corm n'est pas dépassée, bien qu'elle soit de facture classique comme je l'ai dit, à une époque où la littérature française s'ouvrait déjà à des moyens d'expression nouveaux, empruntés au Liban par Georges Shéhadé ou Fouad Abou Zeyd. Un peu comme Gibran Khalil Gibran dont la statue sculptée par Youssef Hoayek trônc dans le jardin de Corm et qui fut un peintre symboliste à l'époque où la peinture s'ouvrait à de nouveaux courants plus audacieux, comme le surréalisme, notre poète est resté attaché à la forme traditionnelle, aux alexandrins, aux rimes, mais ses poèmes sont toujours d'actualité parce qu'ils sont sincères, nous touchent profondément, et, sur certains sujets comme le Liban, l'émigration, le vivre-ensemble ou la foi, se révèlent précieux et parfois prémonitoires. Chef de file d'une école baptisée « l'école du libanisme phénicien », francophone convaincu, il aura a été le

maison d'édition, prolongement de *La Revue phénicienne*, a permis au public de se familiariser avec les œuvres d'auteurs libanais d'expression française, et créé une plateforme à partir de laquelle la francophonie pouvait rayonner. Non content d'avoir déjà créé une revue et cette maison d'édition, Charles Corm organise aussi, à partir de 1935, une sorte de Salon littéraire baptisé « Amitiés libanaises » qui réunit chaque samedi les amateurs de littérature française en son domicile près du Musée pour y lire des extraits d'œuvres française et les commenter, et pour y accueillir des intellectuels français de passage au Liban.

Corm a également constitué une bibliothèque impressionnante réunissant des milliers de livres et de revues en français devenus rares ; il a participé à la fondation de la BNL. Il a rendu hommage dans ses écrits aux grands noms de l'histoire de France comme Louis XIV ou Napoléon, et de la littérature française comme Baudelaire qu'il appelait volontiers « Saint Baudelaire ».

Corm : Une éclosion

On voit bien comment Charles Corm a su créer un environnement favorable à l'éclosion de cette littérature d'expression française au Liban et comment, grâce à ses propres deniers, il a édité plusieurs auteurs libanais francophones pour faire connaître leurs œuvres.

Il a ainsi représenté un « état », ce qu'on appelle en arabe : حالة, et couru deux lièvres à la fois : la défense de la Phénicie, considérée comme un moyen pour se démarquer de l'héritage arabe revendiqué par le panarabisme et sceller l'unité islamo-chrétienne autour d'un héritage commun ; et la francophonie, conçue comme une ouverture nécessaire sur le monde et, comme le disait le président Charles Hélou, « un merveilleux instrument de dialogue entre les cultures ».

Fort de cet environnement, Charles Corm à lui-même donné le bon exemple en publiant de nombreux ouvrage en langue française comme *La Montagne inspirée*, *La Symphonie de la lumière*, suite de poèmes mystiques, *Le Mystère de l'amour*, recueil de textes poétiques dédiés à Marie-Madeleine, et quatre contes réunis sous le titre : *Les Miracles de la Madonne aux sept douleurs*. Mais ces ouvrages ne sont rien à côté de l'œuvre inédite colossale qu'il nous a léguée et qui a été publiée par ses

Charles Corm : Lettes de noblesse

Mais c'est avec Charles Corm, né en 1894, mort en 1963, que la francophonie au Liban va gagner ses lettres de noblesse. L'action de Corm dans ce domaine s'est manifestée à deux niveaux : Premièrement, la création d'un environnement francophone propice, et deuxièmement, une production personnelle en langue française qui l'a placé au premier rang de nos poètes d'expression française.

Concernant la création d'un environnement propice, il convient de rappeler que Charles Corm fut un grand homme d'affaires et introduisit au Liban les premières voitures Ford, dont il devint le représentant, ce qui lui permit de réunir suffisamment de fonds pour décider de tout abandonner afin de se consacrer à sa passion pour les Lettres. Dès 1919, à l'âge de 25 ans, il lance une revue intitulée *La Revue Phénicienne* qui ambitionne de mettre en valeur notre patrimoine phénicien tout en accueillant un grand nombre de plumes libanaises d'expression française. Il y publie ainsi les poèmes d'auteurs francophones, comme Hector Klat, Elie Tyane, Alfred Naccache ou Michel Talhamé, et des articles sur la culture et l'histoire du Liban, rédigés par Charles Corm lui-même, et par Michel Chiha, Paul Noujaim, Jacques Tabet, Ibrahim J. Tabet ou Philippe de Tarrazi. Les lignes directrices de cette publication étaient la spécificité du Liban par rapport à son voisinage, son ancrage dans la civilisation phénicienne, la nécessité de rétablir « ses frontières naturelles », et l'amitié avec la France, considérée, je cite, comme « la protectrice des faibles, civilisatrice des peuples et mère de toutes les justes libertés ».

La Revue Phénicienne

Ayant sorti quatre numéros de cette revue d'excellente facture, il finit par l'abandonner pour s'occuper de ses affaires jusqu'en 1934, année au cours de laquelle il renonça aux affaires comme je l'ai dit. Aux éditions de la Revue phénicienne, dont il est le fondateur, il publie plusieurs ouvrages dont son propre recueil *La Montagne inspirée*, où il rend hommage au Liban et à la Phénicie, mais aussi les livres de Michel Chiha, Elie Tyan ou Hector Klat. La liste des ouvrages en cours de publication au sein de cette maison d'édition est ambitieuse. Certains titres qui y sont cités ont vu le jour, d'autres pas. Néanmoins, cette

Le Liban et la Francophonie

Un quotidien francophone, L'Orient-Le Jour dont je dirige le supplément culturel, L'Orient littéraire, perpétue la tradition de la presse d'expression française au Liban, et notre littérature rassemble un grand nombre d'écrivains francophones, comme Georges Shéhadé et Salah Stétié, tous deux lauréats du Grand Prix de la francophonie de l'Académie française, Amin Maalouf, lauréat du prix Goncourt et membre de l'Académie française, Fouad Gabriel Naffah, Farjallah Haïk, Nadia Tuéni, Charif Majdalani, lauréat du prix Femina essais, Vénus Khoury Ghata qui vient d'obtenir le Prix de la Fondation Prince Pierre de Monaco, ainsi que de très nombreux auteurs qu'il m'est impossible de citer tous ici.

Pourtant, cette littérature libanaise d'expression française n'a qu'un siècle d'âge. C'est en France, au début de siècle dernier, qu'elle connaît ses premiers balbutiements. Installés à Paris pour fuir les persécutions des autorités ottomanes, des auteurs libanais comme Khalil Ghanem ou Khairallah Khairallah adoptent la langue française comme langue de combat. Mais c'est avec Chucri Ghanem, poète et dramaturge, auteur de la pièce *Antar*, jouée au théâtre de l'Odéon en 1910, que les contours d'une littérature francophone libanaise commencent à se dessiner.

Peu à peu, d'autres auteurs d'expression française apparaissent sur la scène littéraire comme le poète Jean Dagher, né en Egypte en 1874 et auteur de plusieurs recueils poétiques comme *Sous les cendres* et *Parfum des fleurs fânées*; Jacques Tabet, auteur de *Rires et sanglots* en 1907, May Ziadé, auteur sous psendonyme d'un recueil intitulé *Fleurs de rêve* et paru au Caire en 1901, Joseph Farès, Jeanne Arcache, Eveline Bustros, Amy Kheir, Georges Naccache ou Victor Hakim, pour ne citer qu'eux.

Charles Corm signant l'accord du Pavillon Libanais à l'Exposition Universelle de New York (1939)

Charles Corm, pionnier de la francophonie au Liban

Alexandre Najjar

Je tiens tout d'abord à féliciter la LAU d'avoir pris l'initiative d'accueillir l'exposition et la rencontre sur Charles Corm dans le cadre du Festival francophone de Beyrouth. Cette initiative montre bien l'ouverture de cette prestigieuse université à d'autres langues que l'anglais, et son attachement au patrimoine libanais que défend si bien le centre du patrimoine libanais dirigé par Henri Zoghaib qui n'est jamais à court d'idées pour valoriser notre héritage culturel et promouvoir les Lettres.

Et puisqu'on parle d'héritage, je tiens à préciser que la francophonie au Liban n'est pas un héritage du Mandat puisque la langue française était enseignée au pays du Cèdre bien avant le Mandat, grâce aux écoles tenues par les missions religieuses, et a prospéré depuis l'indépendance jusqu'à nos jours.

Le Liban, grâce au président Charles Hélou, a participé à la fondation de la francophonie institutionnelle, et est membre de l'OIF, l'Organisation Internationale de la Francophonie.

Plus de la moitié des écoles du Liban enseignent le français comme 2e langue, alors les autres établissements l'enseignent comme 3e langue, et le pays compte un grand nombre d'universités francophones, qui font partie de l'AUF, l'Agence universitaire de la francophonie.

françaises du **Festival Beyrouth livres 2022**, et surtout par l'organisation de cette séance francophone autour de notre éminent poète francophone Charles Corm, cette icône toujours vivante et vivace du Liban créatif et créateur, ce Liban qui résiste à tous les ouragans qui l'encerclent que ce soit par les Ponce Pilates de l'extérieur, ou par ses propres Judas de l'intérieur.

Il résiste, OUI. Et il résistera immanquablement toujours.

Car le Liban est fort malgré ses multiples crucifixions.

Et le Liban est robuste malgré ses calvaires successifs.

Et le Liban est éternel malgré toutes les tentatives sataniques de l'annihiler jusqu'à l'anéantir.

Il est là, depuis la nuit des temps jusqu'à l'aube de la renaissance, il est et il sera toujours ce besoin humaniste et créatif.

Le Liban ne se mesure guère par son étroite géographie, ni par sa minime démographie, mais plutôt par sa vaste créativité aux niveaux local et international.

Tel le phare est le Liban, une petite superficie qui plane et rampe sur le sol, mais une immense lumière qui émane de son sommet innovateur qui ne cesse de surprendre et de stupéfier le monde.

Et qu'est-il de son sommet?

C'est là, haut, si haut, la montagne inspirée de notre grand Charles Corm, qui l'a magistralement sublimé en priant si pieusement:

"Ô cèdres du passé... Ô cèdres du Liban... reliques sans pareilles, vous que rien n'égala... Voici le plus ancien, le vénérable ancêtre, le témoin troublant, le cercle de son tronc mesure seize mètres, ce cèdre a trois mille ans... Ce cèdre philanthrope, ce cèdre héroïque, tous nos cèdres pratiquent le pardon de l'injure et l'amour du prochain."

C'est autour de ce Liban que nous nous réunissons ce soir.

Qu'il nous soit donné de mériter le Liban de Charles Corm.

Mot du modérateur

Henri Zoghaib
Directeur du Centre du Patrimoine Libanais à la LAU

En 1935, soit 85 ans déjà, Charles Corm participa à Monaco au congrès de l'Humanisme, et prononça un discours sur l'Humanisme des Libanais en disant que: "*Les Libanais, depuis la haute antiquité, ont créé, conservé, défendu, affermi et développé une civilisation expansive et libérale à tendances universelles tellement accessibles aux autres peuples que certains d'entre eux l'ont identifiée à leur propre génie*".

C'est donc, selon Charles Corm, le rayonnement génial du Liban sur les autres pays.

Je dis "pays" pour dire Nation, et je différencie clairement entre le Liban/Nation et le Liban/État, le premier étant la créativité continue au delà de tous temps et lieu, le dernier étant l'actuel éphémère qui se dérobe et s'éclipse chaque laps de temps.

Pour cette créativité continue, le ***Centre du Patrimoine Libanais*** fut créé, 20 ans déjà, au sein de cette université magestueuse, la LAU, pour perpétuer le message de la LAU et la mission de préserver, conserver et promouvoir, par différents biais, le riche patrimoine Libanais.

Et voilà qu'après la suspension forcée des 3 ans derniers si amers, pour des raisons déjà connues, le ***Centre du Patrimoine Libanais*** relance dès ce soir ses activités périodiques et diversifiées. Et ce n'est pas au hazard qu'il les relance par la participation de la LAU, l'université Anglophone, aux activités

Le fameux "Empire State Building" Libanais comme conçu pas Charles Corm

LAU, a choisi de commemorer ce soir Monsieur Charles Corm, le célèbre poète libanais francophone qui a contribué un patrimoine littéraire immense, chantant d'une part le Liban d'Antan, et d'autre part l'avenir d'un pays qui surpasse ses difficultés.

Dans sa conférence intitulée "***6000 ans de génie pacifique au service de l'humanité***", donnée au Cénacle Libanais à l'occasion de l'Assemblée Générale de l'UNESCO à Beyrouth le 7 juin 1949, Charles Corm mentionne: "*Dans un vieux coin du Proche Orient, il y a un brave petit pays qui – plusieurs fois dans son histoire – a été tout entier, dans les faits et par les actes, un véritable héros de l'Humanisme. Ce petit pays c'est le Liban*" !

Oui c'est le Liban, mon Liban, notre Liban, qui passe actuellement par un calvaire mille fois amer, duquel il sortira j'espère confident et réjuvéné comme ce fut répétitivement le cas dans son histoire tourmentée. C'est que, dit-on, ce qui ne vous tue pas, vous rend meilleur (What does not kill you, makes you a better man).

Et c'est ainsi pour notre Liban, qui passe par des expériences annihilantes, mais en sort toujours plus fort et meilleur, rassemblant son peuple avec amour et joie, car un pays ne déçoit pas son peuple, **même** si parfois une fraction de celui-ci n'est pas à la hauteur du défi.

C'est dans ce Liban millénaire, riche en civilisation, que les organisateurs du **Festival international et francophone du livre de Beyrouth** ont opté de se réunir cette semaine.

Qu'ils soient remerciés pour leur choix.

Et que la LAU soit cette oasis toujours prête à recevoir au sein de son campus, des activités prestigieuses qui reflètent bien ces deux vers de Charles Corm dans son illustre chef-d'oeuvre "*La montagne inspirée*":

"**Car on n'a jamais vu… nulle part sur la terre**

Ni si petit pays… ni si vaste destin".

Soyez tous les bienvenus à la LAU. Je cède la parole à nos chers intervenants ce soir.

Mot d'ouverture

Dr. Michel Mawad
Recteur de la LAU

Notables invités Français,
Amis Libanais de la LAU
Chers collègues

Bien que notre université Libano-américaine soit principalement anglophone, elle se devait de participer à cet important évènement culturel qu'est le **Festival international et francophone du livre de Beyrouth 2022.**

Le Recteur de la LAU
Dr. Michel Mawad prononçant
son discours inaugural.

Beyrouth, historiquement la Mère des Lois, est le siège cet Octobre d'une activité multidimentionnelle débutant avec l'acceuil dans ses cercles littéraires des astres de la littérature française, pour culminer avec l'annonce des finalistes du prix Goncourt.

La LAU, par le biais de son "*Centre du Patrimoine Libanais*", organisateur du débat ce soir, perpétue son message polyvalent affirmant que l'université ne se limite pas aux conférences et aux recherches, mais s'ouvre à un vaste espace culturel. Ce faisant, elle offre à sa communauté d'étudiants un patrimoine riche qui la guidera comme un phare vers un avenir rédempteur au sein de la société. En effet, la LAU a pour mission première, non seulement de former des professionnels, mais aussi et surtout d'éduquer ses étudiants et étudiantes, afin d'être **des humanistes engagés à remédier aux maux de leur société.**

Pour cela, la LAU s'engage à familiariser ses élèves avec leur patrimoine Libanais pour mieux cultiver en eux l'amour de leur passé prestigieux. Car être Libanais, n'est pas un passeport ou une carte d'identité; être Libanais est tout simplement un "état d'âme" hérité de nos ancêtres. C'est dans cette même optique que le "*Centre du Patrimoine Libanais*" au sein de la

L'exposition sur la vie et l'oeuvre de Charles Corm (offerte par la Fondation Charles Corm)

LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University

Dans le cadre du

Festival international et francophone du livre de Beyrouth 2022

Le Centre du Patrimoine Libanais à la LAU

Vous convie à la rencontre littéraire

Hommage au poète libanais Charles Corm (1894-1963)

INTERVENANTS

Dr. Michel Mawad
recteur de la LAU:
Mot d'ouverture

Georges Dorlian
universitaire et critique littéraire:
Charles Corm,
en quête d'une identité nationale

Alexandre Najjar
avocat et écrivain, Grand Prix de la Francophonie de l'Académie française:
Charles Corm,
pionnier de la francophonie au Liban

Modérateur:
Henri Zoghaib
poète et directeur du CPL à la LAU.

Théâtre Gulbenkian
LAU – Campus Beyrouth

Le jeudi
27 octobre 2022

17:00
Visite de l'exposition sur la vie et l'oeuvre de Charles Corm

18:00
La rencontre littéraire
(durée: 60 minutes)

La LAU commémore Charles Corm

Introduction

À la veille du 60ème anniversaire du départ du grand poète Libanais Charles Corm (1894–1963), et dans le cadre du "*Festival international et francophone du livre de Beyrouth 2022*", le Centre du Patrimoine Libanais à la LAU, inaugura ses débats littéraires mensuels par une séance commémorative qui porta sur Corm, poète et pionnier de la Francophonie.

À l'amphithéâtre Gulbenkian de la LAU (campus Beyrouth), le jeudi 27 Octobre 2022, se réunit une élite qui passa tout d'abord, au préau du théâtre, par une exposition sur la vie et l'oeuvre de Charles Corm (offerte par la Fondation Charles Corm), puis assista à la séance où prirent respectivement la parole le poète Henri Zoghaib (directeur du "Centre"), Dr. Michel Mawad (recteur de la LAU), l'avocat et écrivain Alexandre Najjar, et Dr. Georges Dorléan.

Ci-après les textes intégraux des discours prononcés.

Une vue de la séance inaugurale

Mirrors of Heritage

Refereed journal
published twice a year
by
The **Center for Lebanese Heritage (CLH)**
at
The **Lebanese American University (LAU)**

Henri Zoghaib – Editor

Issue No. 18 – Spring/Summer 2023

The LAU Arab Institute for Women:
50 years of shining message and mission

La LAU commémore
Le poète Libanais francophone Charles Corm

The Venetian traders in Beirut
During the XIV and XV centuries

Ibn Khaldoun
His view on the Cananean and Carthaginian History

Center for Lebanese Heritage
Lebanese American University, Kraytem, Beirut – Lebanon

Phone: +961.1.78 64 64 (ext: 1600)
P.O. Box: 5053 13 Beirut – Lebanon
email: clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

Design and layout by STRATCOM–LAU

Cover: Batroun harbor (From Eddy Choueiry's book "Liban sur mer")

Mirrors of Heritage

LAU
الجامعة اللبنانية الأميركية
Lebanese American University

Issue No. 18 – Spring/Summer 2023

- AIW at LAU: a brief history
- LAU commémore Charles Corm